التّفسير الجَامع

فضيلة الشّيخ الدّكتور محمّد عبد السّتّار السّيّد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

القرآن الكريم معجزةٌ خالدةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وعطاؤه متجدّدٌ لا ينفد، وكلّما تطوّر العقل البشريّ استطاع أن يستمدّ من القرآن الكريم وعلومه ما يوافق التّطوّر العلميّ الّذي وصل إليه.

وآيات القرآن الكريم مكتنزةٌ بعطائها العلميّ والفكريّ والرّوحيّ، وهو كتاب هدايةٍ، فيه إشاراتٌ علميّةٌ لا يمكن أن تُصادم العقل البشريّ في أيّ زمنٍ من الأزمان.

وهذا التّفسير هو محاولة تدبّرٍ لآيات كتاب الله؛ امتثالاً لأمره ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمّد]، متمسّكين بهدي نبيّنا محمّد فهو الّذي عليه نزل وبه أخذ وعمِل، فقد كان ﷺ قرآناً يمشي بين النّاس في نهجه وسيرته وسلوكه وهديه وأقواله وأفعاله، وبالعلم الّذي به أمر ﷺ.

فكان هذا التّفسير الجامع محاولةً عصريّةً للأخذ من عطاء القرآن الكريم الّذي لم يفرغ في زمن النّزول، وإنّما تعدّى كلّ العصور، ومواكبةً لتطوّر العقل البشريّ ومعطيات العلم الحديث في فهم النّصّ من خلال التّفكّر والتّعقّل والتّدبّر الّذي أمر به القرآن الكريم: (أفلا يعقلون، أفلا يتفكّرون، أفلا يتدبّرون، أفلا ينظرون).

والله وليّ التّوفيق

الشّيخ الدكتور محمّد عبد السّتّار السيّد

الجُزءُ العشرون

سـورة النَّمْـل (٥٦-٩٣)

سـورة القَصَص (١-٨٨)

سـورة العنكبوت (١-٤٥)

سُورَةُ (النّمل)

الآيات: (٥٦-٩٣)

تتمّة سورة النّمل

(الآية ٥٦) - ﴿* فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: تماماً كما نراهم الآن يُعاقبون النّاس الّذين يرفضون الشّذوذ والمثليّة، ويحرمونهم من أطفالهم، فعِلَّة الإخراج عندهم وحيثيّته: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، سبحان الله، ومتى كان الطُّهْر ذنباً وجريمة تستوجب أنْ يُخرَج صاحبها من بلده؟ إنّها نغمة نسمعها دائماً من أهل الباطل في كلّ زمان ومكان حينما يهاجمون أهل الحقّ، ويَسْعَوْن لإبعادهم من السّاحة لتخلو لباطلهم، ومن عَدْل الله ﷻ أن يُظهر في منطقهم دليل إدانتهم وخُبْث طباعهم، فكلمة: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ الّتي نطقوا بها تعني: أنّهم أنفسهم أنجاسٌ تزعجهم الطّهارة، وما أحلَّ الله ﷻ من الطّيّبات، وكأنّ الله ﷻ يجعل في كلامهم منافذ لإدانتهم، وليحكموا بها على أنفسهم.

(الآية ٥٧) - ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: من المُهْلَكين مع قومها، فقد كانت تدلّ قومها على ضيوف لوط عليه السلام ليأتوا إليهم، وليفعلوا معهم الفاحشة، لذلك أصابها من العذاب مثلما أصاب قومها.

(الآية ٥٨) - ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: أي: قَبُح هذا المطر، وإنْ أبهم المطر هنا فقد

وضَّحه الحقّ ﷻ في آيات أخرى، فقال: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣﴾ [الذّاريات]، وقال ﷻ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢﴾ [هود: من الآية ٨٢]، والسّجّيل: هو الطّين إذا حُرِق، فصار فخّاراً، وهذه الحجارة منظّمة مُسوَّمة صنعها الله ﷻ لهم بحساب دقيق، فلكُلِّ واحدٍ منهم حَجَره المسمَّى باسمه، والّذي لا يُخطِئه إلى غيره.

(الآية ٥٩) - ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: نعرف أنّ الله ﷻ يُحمَد على النّعمة، لكن هنا الحمد لله ﷻ جاء بعد نقمة وعذاب وأَخْذ للمكذِّبين، قال العلماء: الخطاب هنا مُوجَّه لرسول الله ﷺ، وفيه إشارة إلى أنّ جُنْد الله ﷻ هم الغالبون، وأنّ العاقبة لهم ليطمئنّ رسول الله ﷺ، كما أنّ تطهير الكون من المفسدين فيه، وحين تستريح منهم البلاد والعباد، فهذه نعمة تستوجب الحمد، وفي إهلاك الكافرين والمكذِّبين عبرة ودرسٌ لغيرهم، حتّى لا يتورّطوا في أسباب الهلاك، وهذه نعمة أخرى تستحقّ الحمد، لذلك أمرنا ربّنا ﷻ أن نحمده إنْ رأينا خيراً نزل بالأخيار، أو شرّاً حَلَّ بالأشرار، فمعنى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أنّ الرّسل انتصروا وغلبوا، وأنّ المفسدين انهزموا واندحروا، فبعد أنْ قطع الله ﷻ دابر الظّالمين قال: الحمد لله ربّ العالمين، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام].

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾: وهم المؤمنون الّذين نصرهم الله ﷻ،

وجعل العاقبة لهم، والسّلام عليهم بعد ما لاقوه من عَنَتِ الكفّار وعنادهم، فالحمد لله الّذي أهلك المفسدين، وأتى بالسّلام على المهتدين، ثمّ يطرح الحقّ ﷻ قضيّة، ويأتي بها في صورة سؤال واستفهام لتكون أبلغ في النّفس من مجرّد الإخبار بها:

﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: ولو أنّ الآية قالت: (قل: الحمد لله، وسلام على عباده الّذين اصطفى؛ لأنّ الله خير، وما يشركون به شرٌّ)، لكان الكلامُ خبراً، والخبر في ذاته، وبصرف النّظر عن قائله، يحتمل الصّدق أو الكذب، أمَّا حين تُعرَض هذه القضيّة في صورة الاستفهام، فقد جعلتَ مخاطبك هو الّذي ينطق بها، آلله خير أم الّذين أشركوا به خير؟ ولا بدّ أن تأتي الإجابة: الله ﷻ خير.

(الآية ٦٠) - ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠﴾:

﴿أَمَّنۡ﴾: هذا استفهام آخر، وكأنّ الحقّ ﷻ بعد أن كتب الهزيمة على الكافرين، والنّصر للمؤمنين، أراد أنْ يُربّب في النّفس الإيمان بالله ﷻ، وأن نأخذ من نصر الله ﷻ للمؤمنين خميرة إيمانيّة، ومواجيد جديدة تظلّ شحنة قويّة تدفعهم بحيث يكونون هم أنفسهم على استعداد للتّصدّي لأعداء الدّعوة والمناهضين لها، فيقول ﷻ: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾،

فالمسألة لا تقف عند معركة انتصر فيها المؤمنون على الكافرين، فهناك في خلق الله ﷻ ما هو أعظم من ذلك، فلو سألتَهم: مَنْ خلق السّموات والأرض؟ يقولون: ٱللَّهُ، ولئن سألتهم: مَنْ خلقهم؟ يقولون: ٱللَّهُ، فهذه مسائل لا يستطيعون إنكارها، فكأنّ الحقّ ﷻ يقول لهم: آلله الّذي خلق السّموات والأرض وأنزل لكم من السّماء ماء.. خير أم ما تشركون؟ وما دام أنّ الله ﷻ ادَّعى مسألة الخَلْق لنفسه ﷻ، ولم يَقُمْ لهذه الدّعوى منازع، فقد ثبتتْ له ﷻ إلى أنْ يدَّعيها غيره: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، فإنْ كان هناك إله آخر خلق الخَلْق فأين هو؟!

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: السّماء: كلُّ ما علاك فأظلَّك، والماء معروف أنّه ينزل من السّحاب وهو ممّا علانا، فالسّماء أنزل ﷻ منها المطر، ومن الأرض أنبت الزّرع، فمن السّماء خير ونِعَم، ومن الأرض خير ونِعَم.

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾: للماء فوائد كثيرة في حياتنا، بل هو قِوَام الحياة لذلك اقتصرتْ الآية على ذكْر الحدائق؛ لأنّها قوام حياة الإنسان في الأكل والشّرب.

﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾: مع أنّنا لو نظرنا إلى القمح مثلاً، وهو عَصَب القوت، لوجدناه أقلّ جمالاً من الورد والياسمين والفُلّ، وكأنّ الله ﷻ يقول لنا: لقد تكفّلتُ لكم بالكماليّات والجماليّات، فمن باب أَوْلَى أوفّر لكم الضّروريّات، والحقّ ﷻ يريد أن يرتقي بِذَوْق عباده ومشاعرهم، فاقرأ مثلاً قوله ﷻ: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: من الآية ٩٩]، يعني: قبل أن تأكل من هذه الثّمار تأمّل في جمالها ومنظرها البديع، وكأنّها دعوة للرّقيّ بالذّوق العامّ،

والتّأمّل في بديع صُنْع الله ﷻ، فأعطانا الله ﷻ ضروريّات الحياة، وأعطانا كماليّاتها وجماليّاتها، فقال ﷻ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فالضّمير في: ﴿خَلَقَ﴾ ضمير الغائب (هو) يعود على الله ﷻ، وكذلك في: ﴿وَأَنزَلَ﴾، أمّا في: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ فقد عدل عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلّم الدّالّ على التّعظيم، فلماذا؟ قالوا: لأنّ نِعَم الله ﷻ فيها أشياء لا دخْل للإنسان فيها كالخَلْق وإنزال المطر، ومثل هذه المسائل لا شبهةَ لعدم اشتراك الإنسان فيها، وهناك أشياء للإنسان دَخْلٌ فيها كالزّرع والإنبات، فهو الّذي يحرث ويزرع ويسقي.. إلخ، ممّا يُوحِي بأنّ الإنسان هو الّذي يُنبت النّبات، فأراد الله ﷻ أنْ يُزيل هذا التّوهّم، فنسب الإنبات صراحة إليه ﷻ ليزيل هذه الشّبهة، فيقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة].

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾: العدل معلوم أنّه صفة مدح، فساعةَ تسمع: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ قد تظنّ أنّها صفة طيّبة فيهم، لكن لا بُدَّ في مثل هذا اللّفظ من تدقيق؛ لأنّه يحمل معاني كثيرة، نقول:

- عدلَ في كذا، يعني: أنصف.
- عدلَ إلى كذا، يعني: مال إليه.
- عدلَ عن كذا: يعني: تركه وانصرف عنه.
- عدلَ بكذا، يعني: سوَّى.

فالمعنى هنا ﴿يَعْدِلُونَ﴾ عنه، ويا ليتهم يعدلون عنه فحسب، إنّما يعدلون عنه إلى غيره، ويعبدون غيره، ويسوّون به الحجارة والأصنام.

(الآية ٦١) - ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾:

لمّا تكلّم الحقّ ﷻ في الآية السّابقة عن السّموات والأرض أتى بأشياء مشتركة بينهما، فالسّماء ينزل منها الماء، والأرض تستقبل الماء، وتنبت لنا الحدائق ذات البهجة، أمّا في هذه الآية، فالكلام عن الأرض، لذلك ذكر لنا مسائل من خصوصيّات الأرض:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾: معنى: قراراً؛ أي: استقراراً، حيث خلقها ﷻ على هيئة مريحة تصلح أنْ يستقرَّ عليها الإنسان.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾: الماء ينزل من السّماء وينتفع به مَنْ سقط عليه مباشرة، أمّا ما ينزل على الجبال فيجتمع في الوديان وتُصنع له السّدود لينتفع النّاس به عند القحط، ومن ماء المطر ما ينساب في مَجَارٍ تُسمَّى الأنهار.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾: الرّواسي: هي الجبال الثّابتة الرّاسية، وفي موضع آخر بيَّن ﷻ الحكمة من هذه الجبال، فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النّحل: من الآية ١٥]، فالحكمة من خَلْق الجبال تثبيت الأرض حتّى لا تضطرب، وجعل الجبال الرّواسي مخازن القوت من طعام وشراب، ولنا أن نتأمّل الأنهار كنهر الفرات، ونهر دجلة ونهر النّيل، كيف تكوَّن من الطّمي الّذي حملتْه المياه من أعالي الجبال هذه المنطقة الخِصْبة.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾: البحرين: أي: العَذْب والمالح؛ لأنّ الماء: منه العَذْب، ومنه المالح، ومن قدرته ﷻ وحكمته أنْ يحجز بينهما، وإنْ كان الماء المالح هو مصدر الماء العَذْب، لذلك جعل الله ﷻ مساحة السّطح للماء المالح ثلاثة أرباع الكرة الأرضيّة، وكلّما اتّسع سطح الماء اتّسع البَحْر الّذي يكوّن السّحاب، بحيث يسقط المطر الكافي لمعيشة أهل الأرض.

ولكي نعلم فضل الله ﷻ علينا في إنزال المطر وتوفير الماء العَذْب، لننظر إلى التّكلفة والمشقّة الّتي نعانيها لتقطير عدّة سنتميترات من الماء، في حين أنّنا لا ندري بعمليّة التّقطير الواسعة الّتي تسقي البلاد والعباد في كلّ أنحاء العالم، وقد مثّلْنا لمسألة اتّساع رقعة البَحْر بكوب الماء إذا أرقْناه على الأرض، فإنّه يجفُّ في عدّة دقائق، أمّا لو تركنا الماء في الكوب لعدّة أيّام، فإنّه لا ينقص منه إلّا القليل، ومن الماء العَذْب ما سلكه الله ﷻ ينابيع في الأرض ليخرجه الإنسان إذا أعوزه الماء على السّطح، أو سلكه ينابيع في الأرض بمعنى أن يسير العَذْب بجوار المالح، لا يختلط أحدهما بالآخر مع ما عُرِف عن الماء من خاصّيّة الاستطراق، وهذه من عجائب قدرة الله ﷻ الخالق، فمِنْ قَعْر البحر المالح تخرج عيون الماء العَذْب؛ لأنّ لكلّ منهما طريقاً ومسلكاً وشعيرات يسير فيها بحيث لا يبغي أحدهما على الآخر، كما قال ﷻ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرّحمن]، وكما أنّ الماء العَذْب يتسرّب إلى باطن الأرض ليكوّن الآبار والعيون، فكذلك الماء المالح يتسرّب في باطن الأرض ليكوّن من تفاعلاته الأحجار الكريمة، كالمرمر، والمعادن، كالحديد والمنجنيز والجرانيت.. إلخ.

وبعد أن ذكر لنا هذه الآيات الخاصّة بالأرض جاء بهذا الاستفهام:

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: يعني: خَلَق هذه الأشياء؟!

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: والّذين لا يعلمون أعلمناهم، وقطعنا حُجَّتهم بعدم العلم، ولو نظرنا إلى الأرض لوجدنا فيها آيات أخرى غير أنّها مُستقرٌّ وسَكَنٌ، فالأرض كثيفة، وفيها غبرة ليست صافية البياض؛ ذلك لأنّ الله ﷻ يريد لها أنْ تستقبل حرارة الشّمس وضوءها ليستفيد منها النّبات، ولو أنّ الأرض كانت شفّافة تعكس الضّوء والحرارة لما استفاد منها النّبات، لذلك نجد بعض المشروعات تنمو في الصّيف، وأخرى في الشّتاء، ولـمّا أجرَوْا بعض التّجارب على النّبات، فوضعوه في مكان مظلم، ثمّ جعلوا ثُقْباً في ناحية بحيث يدخل الضّوء، وجدوا أنّ النَّبْتة بما أودع الخالق فيها من غريزة تتّجه ناحية الضّوء لتأخذ حظّها من النّور والدّفء، فسبحان الّذي خلق فسوّى، والّذي قدَّر فهدى، ومن آيات الله ﷻ في خَلْق الأرض أنْ جعلها على هيئة الحركة والدّوران، لتأخذ مناطقها كلّها حظّها من الحرارة والبرودة، ويتنوّع فيها المناخ بين صيف وشتاء، وخريف وربيع، إنّها أدوار تتطلّبها مُقوِّمات الحياة، لذلك نجد علماء النّبات يُقسِّمون المناطق الزّراعيّة على الأرض، يقولون: هذا حزام القمح مثلاً، وهذا حزام الموز، وهذا حزام البطاطا، فتجد كلّ حزام منها يصلح لنوع خاصّ من المزروعات يناسب سكّان هذه المنطقة وبيئتها وجوّها، لذلك نجد أنّ كلّ نوع من المزروعات في مكانه المناسب لا تُصيبه الآفات، أمّا حين يُنقَل إلى مكان غير مكانه، وبيئة غير بيئته لا بُدَّ أنْ يُصاب، وفي الأرض خاصّيّة أخرى تتعلّق بالإنسان

تعلّقاً مباشراً، فمن خصائص الأرض أنّها من الطّين الّذي خُلِق منه الإنسان، فهي في الحقيقة أمّه الأولى، فإذا مات لا يسعه إلّا أحضان أمّه حين يتخلّى عنه أقرب النّاس إليه، وألصق النّاس به، عندها تستقبله الأمّ وتحتويه وتستر عليه، ومن خصائص الأرض أنّها تمتصّ فضلات الإنسان والحيوان ومخلّفاته وتُحوّلها بقدرة الله ﷻ إلى مُخصِّب تزدهر به المزروعات، ويزيد به المحصول، وفي الرّيف يحملون رَوَثَ الحيوانات ذا الرّائحة الكريهة إلى الحقول، فإذا به ينبت فيه الوردة الجميلة الّتي يتشوَّق الإنسان لرائحتها، إنّها عجائب في الخَلْق، لا يقدر عليها إلّا الله ﷻ.

وبعد أنْ حدَّثنا الحقّ ﷻ عن هذه المظاهر العامّة الّتي يحتاجها كلّ الخلق في السّماء والأرض والجبال والمطر.. إلخ، يُحدِّثنا ﷻ عن مسائل خاصّة يحتاجها إنسان دون آخر، وفي وقت دون آخر، فيقول ﷻ:

(الآية ٦٢) - ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾: الإجابة: هي تحقيق المطلوب لداعيه، والمضطرّ: هو الّذي استنفد الأسباب، وأخذ بها فلم تُجْدِ معه، فليس أمامه إلّا أنْ يلجأ إلى المسبِّب ﷻ؛ ذلك لأنّ الخالق ﷻ قبل أنْ يخلق الإنسان خلق له مُقوِّمات حياته وضروريّاتها وسخَّرها لخدمته، ثمّ خلق ﷻ لنا الطّاقة الّتي نستطيع أن نُسَخِّر بها هذه الأشياء، وضَمِنَ لنا القوت الضّروريّ من ماء ونبات، فإنْ أردنا أنْ نُرفِّه حياتنا فلنتحرّك في الحياة بالأسباب المخلوقة

لله ﷻ، وبالطّاقة الفاعلة فينا، ولنفكّر كيف نرتقي ونُثري حركة الحياة من حولنا؟ فالماء الّذي ينساب في داخل البيت حين نفتح الصّنبور، والضّوء الّذي ينبعث بمجرّد أن نضغط على زرّ الكهرباء، والسّيّارة الّتي تنقلنا في بضع دقائق.. كلّها ارتقاءات في حركة حياة النّاس لمّا أعملوا عقولهم فيما أعطاهم الله ﷻ من مادّة وعقل وفكر وأسباب، وهذه كلّها يد الله ﷻ الممدودة لعباده، الّتي لا ينبغي لنا ردّها، فإذا ما حاولنا ولم نفلح، ولم تثمر معنا الأسباب، فعلينا أنْ نلجأ مباشرة إلى المسبِّب ﷻ؛ لأنّه خالقنا والمتكفّل بنا، ولنقرأ قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: من الآية ١٢]، ويا ليته ساعةَ دعا ربّه ولجأ إليه فاستجاب له يجعل له عند ربّه رَجْعة، ويتوقّع أنْ يُصيبه الضُّرّ مرّة أخرى، لكن إنْ كشف الله ﷻ عنه سرعان ما يعود كما كان: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: من الآية ١٢].

فالمضطرّ لابدَّ أنْ يُجيبه الله ﷻ، فمَنْ قال: دعوتُ فلم يُستَجب لي، فاعلم أنّه غير مضطرّ، فليست كلّ ضائقة تمرُّ بالعبد تُعَدُّ من قبيل الاضطرار، كالّذي يدعو الله ﷻ أن يسكن في مسكن أفضل ممّا هو فيه، أو براتب ودَخْل أوفر ممّا يأخذه.. إلخ، كلّها مسائل لا اضطرارَ فيها، وربّما علم الله ﷻ أنّها الأفضل له، ولو زاده عن هذا القدر لطغى وتكبّر، كما قال الحقّ ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق]، فلقد طلب الخير من وجهة نظره، وربُّه يعلم أنّه لا خيرَ فيه: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء]، فالله يُصحّح له هذا الخطأ في فهمه للمسائل،

فيقول له: سأحقّق لك الخير، لكن بطريقة أخرى أنسب من هذه، فلو أجبتُك إلى ما تريد لحدث مَا لا تُحمد عقباه، وكأنّ الله ﷻ، وهو ربُّنا والمتولّي أمرنا، يجعل على دعائنا تقييداً، ولو كان الله ﷻ -وحاشاه ﷻ- موظّفاً يلبّي لكلٍّ مِنّا طلبه ما استحقّ أن يكون إلهاً، فالإنسان من طبيعته العجلة والتّسرّع، فلا بُدَّ للرّبّ أن يتدخّل في أقدار عبده بما يصلحه، وأنْ يختار له ما يُناسبه؛ لأنّه ﷻ الأعلم بعواقب الأشياء وبوقتها المناسب، ولكلّ شيء عنده ﷻ موعد وميلاد، قال الله ﷻ: ﴿*وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: من الآية ١١].

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾: فكما أنّه لا يُجيب المضطرّ إلّا الله ﷻ، فإنّه لا يكشف السّوء إلّا الله ﷻ، ولو كان هناك إلهٌ آخر يجيب المضطرّ، ويكشف السّوء لتوجَّه النّاسُ إليه بالدّعاء، لكن حينما يُصاب المرء لا يقول إلّا: يا ربّ، ولا يجد غير الله ﷻ يلجأ إليه؛ لأنّه لن يغشَّ نفسه في حال الضّائقة أو المصيبة الّتي ألمّت به، فالإنسان لا يكذب على نفسه، لذلك يقول كلّ مضطرّ وكلّ مَنْ أصابه سوء: يا ربّ، حتّى غير المؤمن.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾: أي: يخلفُ بعضكم بعضاً فيها، كما قال ﷻ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النّور: من الآية ٥٥]، فهل يملك هذه المسائل إلّا الله ﷻ؟

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: والاستفهام هنا ينكر وجودَ إله غير الله ﷻ يفعل هذا.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: يعني: لو تفكّرتُم وتذكّرتُم لعرفتم أنّه لا إله إلّا الله تبارك وتعالى.

(الآية ٦٣) - ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: هذه أيضاً من الأمور الخاصّة الّتي تخصُّ بعض النّاس دون بعض، حيث كانت النّجوم هي العلامات الّتي يهتدي بها الملّاحون في البحر والمسافرون في البرّ، قال ﷻ: ﴿وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النّحل]، وقد برع في علوم الفلك والنّجوم وفي علوم البحار علماء من العرب وضَعُوا أُسساً لهذه العلوم، لا عن علم عندهم، إنّما عن مشاهدة لظواهر الكون، وتوفيق وهداية من الله ﷻ، وحين نتأمّل ارتقاءات الإنسان في الحياة نجد أنّها نتيجة مشاهدة حدثتْ صدفة، أو حتّى بطريق الخطأ.

﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا﴾: أي: مُبشّرات بالمطر.

﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ﴾: والمطر مظهر من مظاهر رحمة الله ﷻ.

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ﴾: أي: لا إله إلّا الله يهديكم في ظلمات البرّ والبحر، ولا إله إلّا الله يُرسل الرّياح فتبشّركم بالمطر.

﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: تنزّه أن يكون له في كَوْنه شريك.

(الآية ٦٤) - ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾: مسألة الخَلْق هذه لا يستطيعون إنكارها، وقد سألهم الله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزّخرف: من الآية ٨٧]، وفي موضع آخر: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: من الآية ٢٥]؛ لأنّهم لا

يملكون إنكارها، وإنْ أنكروها فالرّدّ جاهز: على مَنْ خلق أوّلاً أن يُرينا شيئاً جديداً مِن خَلْقه.

﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾: يعني: الخلْق الأوّل من العدم.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: لأنّ الّذي خلقنا من عدم كتب علينا الموت، وأخبرنا بالغيب أنّنا سنُبعث يوم القيامة، وسيُعَاد هذا الخَلْق مرّة أخرى، فالّذين لم يملكوا إنكار الخلق أنكروا البعث، فقالوا كما حكى القرآن الكريم: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [ق]، فاستبعدوا البعث بعد الموت، وتحلّل الأجساد في التّراب، وهذه القضيّة خَاضَ فيها الفلاسفة بكلام طويل، وللرّدِّ عليهم نقول: أنتم في القوانين الوضعيّة تجعلون الثّواب لمن أحسن، والعقوبة لمن قصَّر، وتُجرّمون بعض الأعمال بعينها، وتضعون لها العقوبة المناسبة، وفي القانون: لا عقوبةَ إلّا بتجريم، ولا تجريمَ إلّا بنصٍّ، ولا نصَّ إلّا بإعلام، ولم نَرَ في القانون الوضعيّ جريمة تُرِكَت بلا عقوبة، فإذا كان البشر يضعون لمجتمعاتهم هذه القوانين الّتي تنظّم حياتهم، أليس ربّ البشر أوْلَى بقانون الثّواب والعقاب؟! وإذا كنتَ لا ترضى لنفسك أنْ يفلتَ المجرم من العقاب، فكيف ترضى ذلك لله ﷻ؟! ثمّ ألا تعلم أنّ كثيراً من المجرمين يرتكبون جرائمهم في غفلة من القانون، أو يُعمُّون على العدالة ويهربون من العقاب، ويُفلِتون من القوانين الوضعيّة في الدّنيا، ولو تركنا هؤلاء بلا عقاب أيضاً في الآخرة فهم الفائزون، وسوف نشجّع بذلك كلّ منحرف خارج عن القانون، أمّا إنْ علم أنّ له ربّاً قيّوماً عليه، وإنْ عمَّى على قضاء الأرض فلن يُعمِّي

على قضاء السّماء، وإنْ أفلتَ من عقاب الدّنيا فلن يُفلِتَ أبداً من عقاب الآخرة، إنْ علم ذلك استقام، لكن، ما وجه استبعادهم للبعث: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣﴾ [ق: من الآية ٣]، يقولون: هَبْ أنّ إنساناً مات ودُفِن وتحلّل جسده إلى عناصر امتصّتها الأرض، ثمّ غُرِسَت شجرة في هذا المكان وتغذَّت على هذه العناصر، وأكل من ثمارها عدّة أشخاص، وانتقلت جزئيّات الميّت إلى الثّمار ثمّ إلى مَن أكل منها، فحين يُبعث الخَلْق يوم القيامة فلأيِّهما تكون هذه الجزئيّات: للأوّل أم للثّاني؟ إذا بُعِثَت للأوّل كانت نقصاً في الثّاني، وإنْ بُعِثَت للثّاني كانت نقصاً في الأوّل، وهذا الكلام منهم على سبيل أنّ الشّخص مادّة فقط، لكنّ التّشخيصات مادّة ومعنى، هَبْ أنّ شخصاً بديناً يزن مثلاً مئة كيلو أصابه مرض أهزله حتّى قَلَّ وزنه إلى خمسين كيلو، ثمّ عُولج وتحسَّنت صحّته حتّى عاد كحالته الأولى، فهل الجزئيّات الّتي نقصت من وزنه هي نفسها الّتي دخلتْ فيه بالصّحّة والتّغذية؟ بالتّأكيد لا، أتغيّرتْ شخصيّته بهذا النّقص، أو بهذه الزّيادة؟ لا، بل هو ذاته، فللشّخص جزئيّات مختلفة التّكوين، وله معنى وروح، ساعةَ تتجمّع هذه الأشياء يأتي الشّخص المراد، لذلك يقول ﷻ ردّاً على هؤلاء المتفلسفين: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤﴾ [ق]، فلماذا تستبعدون الإعادة بعد الموت وقد أقررتُم بالخَلْق الأوّل، واعترفتم أنّ الله ﷻ هو الخالق، وأليست الإعادة من موجود أهونَ من الخَلْق بدايةً من العدم؟ ثمّ إنّ الإعادة تحتاج إلى قدرة على الإبراز وإلى علم، أمّا العلم، فالحقّ ﷻ يقول: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤﴾ [ق]، يعني: يعلم وزنك، ويعلم جزئيّاتك، لا يغيب منها ذرّة

واحدة، أمّا القدرة، فقد آمنتُم بها حين أقررتُم بقدرته ﷻ على الخَلْق من عدم، والإعادة أهون من الإنشاء الأوّل، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: من الرّوم ٢٧]، وإنْ كان الخالق ﷻ لا يُقَال في حقّه: هيّن وأهْون، لكنّها بعُرْفنا، وبما يُقرّب المسألة إلى أذهاننا، وفي القدرة أيضاً يقول الحقّ ﷻ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: من الآية ١٥].

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: الرّزق: كلُّ ما يُنتفع به، وهو إمّا من السّماء وإمّا من الأرض، وإمّا من التقائهما حين ينزل الماء من السّماء، ويختلط بتربة الأرض فيخرج النّبات.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: يكرّر الاستفهام السّابق نفسه لتأكيد أنّه لا إله إلّا الله يأتيكم بهذه النّعم.

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أي: هاتوا الدّليل على وجود إله آخر، يقول: أنا الّذي بدأتُ الخَلْق، وأنا الّذي أرزق من السّماء والأرض، فإذا لم يأْتِ مَنْ يقول هذا فقد ثبتتْ الدّعوة لصاحبها، حيث لم يَقُم معارض يدّعي هذه المسألة لنفسه، لكن، ما مناسبة الكلام عن الرّزق من السّماء والأرض بعد مسألة الإعادة؟ لا بُدَّ أن تكون هناك علاقة بينهما، فللرّزق الّذي يأتي عن طريق التقاء ماء السّماء بتربة الأرض وهو النّبات دورة مثل دورة الإنسان وإعادة كإعادته، حيث يتغذّى الإنسان على نبات الأرض، ويأخذ منه حاجته من الطّاقة والغذاء، وما تبقّى منه يخرج على صورة فضلات تتحلّل في الأرض، حتّى ما تبقّى منها في جسم الإنسان يتحلّل بعد موته إلى عناصر الأرض.

(الآية ٦٥) - ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾: كما قال الحقّ ﷻ: ﴿* وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأنعام: من الآية ٥٩]، والغيب: كلّ ما غاب عن إدراكنا وحِسّنا، والغيب:

- إمّا أن يكون غيباً إضافيّاً (جزئيّاً) يغيب عنّا، ولا يغيب عن غيرنا، فأنا أعرف مثلاً ما يجري في دمشق، وأمّا مَن في حلب فلا يعرف، فهذا غيب عن الموجود في حلب، لكنّه غيب جزئيّ، هناك من يعرفه.

- وإمّا أن يكون غيْباً مطلقاً، وهو ما غاب عنّا جميعاً، وهو قسمان:

١- قسم يغيب عنّا جميعاً، لكن قد نكتشفه ككلّ الاكتشافات الّتي اهتدى إليها البشر، وهذه يكون لها مقدّمات تُوصِل إليها، وهذا غيب نصف إضافيّ؛ لأنّه غيب اليوم، لكن نراه مُشَاهداً بعد ذلك، فلا يكون غيباً.

٢- الغيب المطلق وهو غَيْب حقيقيّ، لا يطّلع عليه ولا يعلمه إلّا الله ﷻ، فقد استقلّ ﷻ وتفرَّد بمعرفته، وهذا الغيب يقول ﷻ عنه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجنّ: الآية ٢٦-من الآية٢٧]، فإن شاء أطلع عليه بعض الأنبياء، ومن هذا الغيب المطلق قضيّة القيامة، فالقيامة لا يعلم وقتها إلّا الله ﷻ، إلّا أنّه جعل لها مُقدِّمات وعلامات تدلُّ عليها وتُنبِيء بقُرْبها، قال ﷻ عنها: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: من الآية ١٥]، بعضهم يظنّ أنّ: ﴿أُخْفِيهَا﴾ [طه: من الآية ١٥]، يعني: أداريها وأسترها، لكنّ

المعنى ليس كذلك، ﴿أُخۡفِيهَا﴾ [طه: من الآية ١٥]: يعني: أزيل خفاءها، ففرْق بين خَفى الشّيء وأخفاه، خَفَى الشّيء عنّي: ستره وداراه، أمّا أخفاه، فيعني: أظهره، وهذه تُسمَّى همزة الإزالة، مثل: أعجم الشّيء، يعني: أزال عُجْمته، وكما تكون الإزالة بالهمزة تكون بالتّضعيف، نقول: مرض فلان، يعني: أصابه المرض، و: مرَّض فلاناً، يعني: عالجه وأزال مرضه، ومنه: قشَّر البرتقالة: يعني: أزال قشرها، فالمعنى: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه: من الآية ١٥]؛ أي: أكاد أُظهِرها، ألَا ترى أنّ للسّاعة علامات كبرى وعلامات صغرى، تحدّثت عنها كتب السُّنّة، وتكشف لنا الأيّام علامة بعد أخرى، لكن يظلّ للقيامة وقتها الّذي لا يعلمه إلّا الله ﷻ، لذلك يقول ﷻ عنها: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأعراف: من الآية ١٨٧]، والنّبيّ ﷺ يفتخر بأنّه لا يعلم موعدها، فقال حين سُئِل عنها: «مَا المَسْؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(١)، فشَرفٌ لرسول الله ﷺ ألَّا يعلم شيئاً استأثر الله ﷻ بعلمه، والقيامة غَيْبٌ مطلق لم يُعْطِ الله ﷻ مفاتحه لأحد حتّى الرّسل، وقد يُكرِم الله ﷻ بعض خَلْقه، ويُطلِعه على شيء من الغيب، ومن ذلك الغيبيّات الّتي أخبر بها اللهُ ﷻ النّبيَّ ﷺ دون أن يكون لها مُقدِّمات توصل إليها، فلا بُدَّ أنّها أتته في وحي القرآن الكريم، كما في قوله ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الرّوم: الآيات: ١حتّى٣- ومن الآية ٤]، فكون الرّوم سيغلبون في بضع سنين هذا غيب مُطلَق، لكن عَلِمَ به النّبيّ ﷺ من خلال

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب سؤالِ جِبريلَ النَّبيَّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم السّاعة، الحديث رقم (٥٠).

ما أعلمه به الله ﷻ، بتحديد موعد انتصار الرّوم، وتشاء قدرة الله ﷻ أن يطلع النّبيّ ﷺ على بعض الأمور فيما يتعلّق بالكافرين في بدر، عندما قال: «هَذِهِ مَصَارِعُ الْقَوْمِ الْعَشِيَّةَ»[1]، وكثير من الأمور الّتي أطلع الله ﷻ نبيّه ﷺ من علم الغيب الّذي أخبره الله ﷻ به.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: أي: كما أنّنا لا نشعر بالموت ولا نعرف ميعاده، كذلك لا نشعر بالبعث، ولا متى سنُبعث.

(الآية ٦٦) - ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ٦٦﴾:

﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾: أي: تدارك، يعني: توالى وتتابع الحديث عنها عند كلّ الرّسل، ومنه قوله ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا﴾ [الأعراف: من الآية ٣٨]، يعني: جُمِع بعضهم على بعض، فقد تتابع الإعلام بالآخرة عند كلّ رسل الله ﷻ، فما منهم إلّا وقد دعا إلى الإيمان بالله ﷻ وباليوم الآخر، وأتى بالدّليل عليه، ومع متابعة التّذكير بالآخرة، قال الله ﷻ عنهم:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾: أي: من الآخرة، لماذا؟

﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾: أي: عميتْ أبصارهم وبصائرهم عنها، فلم يهتدوا، ولو تفتّحتْ عيونهم وقلوبهم لآمنوا بها، يقول ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحجّ: من الآية ٤٦]، فنحن تغافلنا عن هذه الحقائق بإرادتنا، فآيات البعث والقيامة موجودة ومُتداركة، لكنّ النّاس عَمُوا عنها فلم يَرَوْها.

---

(١) السّنن الكبرى للنّسائيّ: كتابُ عَمَلِ اليومِ واللَّيلةِ، الاسْتِنْصَارُ عندَ اللّقاءِ، الحديث رقم (١٠٣٦٧).

﴿عَمُونَ﴾: جمع عَمٍ، وهو الّذي عميتْ بصيرته عن دلائل القيامة الواضحة.

(الآية ٦٧) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧﴾:

يريدون أنْ يستدلّوا بعدم بعث الآباء على عدم بَعْثهم، لكن مَنْ قال لهم: إنّ الآخرة ستأتي مع الدّنيا، ما سُمِّيت بالآخرة إلّا لأنّها تأتي آخراً بعد انقضاء الدّنيا.

(الآية ٦٨) - ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾:

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾: أي: من لدن آدم عليه السلام والنّاس يموتون والأنبياء تذكّر بهذا اليوم الآخر، لكنّه لم يحدث.

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أي: كذِب وافتراء ونسج خيال كما في أساطير السّابقين، لكن ما الدّافع لهم أنْ يتّهموا الرّسل في بلاغهم عن الله سبحانه وتعالى هذا الاتّهام؟ قالوا: لأنّ نفس المرء عزيزة عليه، وكلّ مُسْرف على نفسه في المعاصي يريد أنْ يؤمّن نفسه، وأنْ يريحها، وليس له راحة إلّا أنْ يقول: هذا الكلام كذب، أو يتمنّى أن يكون كذباً، ولو اعترف بالقيامة والبعث والحساب فمصيبته عظيمة، فليس في جُعْبته إلّا كفر بالله عزّ وجلّ وعصيان لأوامره، فكيف يعترف بالبعث؟ لذلك نجد مِن هؤلاء مَنْ يقول في القدر: إذا كان الله سبحانه وتعالى قد كتب عليَّ المعصية، فلماذا يُعذِّبني بها؟ والمنطق يقتضي

إكمال الصّورة، فيقولون: وإذا كتب عليَّ الطّاعة، فلماذا يُثيبني عليها؟ فلماذا ذكرتُم الشّرّ وأغفلتم الخير؟ فهؤلاء يريدون المنفذ الّذي ينجون منه، ويهربون من عاقبة أعمالهم.

(الآية ٦٩) - ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يدعوهم الله ﷻ إلى السّير في مناكب الأرض للنّظر والتّأمّل لا فيمن بُعِث؛ لأنّ البعث لم يأتِ بَعْد، ولكن للنّظر في عاقبة المجرمين الّذين كذَّبوا رسلهم فيما أتَوا به، وكيف أنّ الله ﷻ هزمهم ودحرهم وكتب النّصر للرّسل، والبعث هو ممّا أخبر به الرّسل الكرام، فمَنْ كذَّب الرّسل كذَّب بالبعث مع أنّه واقع لا شكَّ فيه، لكنّ الحقّ ﷻ يُخفِيه لوقته، كما قال ﷻ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: من الآية ١٨٧]، ثمّ يُسلّي الله ﷻ رسوله ﷺ ليُخفِّف عنه ألم ما يلاقي في سبيل الدّعوة، فيقول ﷻ:

(الآية ٧٠) - ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: وقد خاطب الحقّ ﷻ رسوله بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف]، والمعنى: مُهلِك نفسَك من الحزن، والحقّ ﷻ يوضّح أنّ مهمّة الرّسول البلاغ عن الله ﷻ فقط، ولا عليه آمن مَنْ آمن، أو كفر مَنْ كفر، قال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية]، لكنّ النّبيّ ﷺ كان يحبّ أمّته ويحرص عليها، ويحزن ويألم إن خسر واحد من هذه الأمّة الجنّة، قال ﷻ:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التّوبة]، فلا تحزن عليهم.

﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾: كلّ أنواع المكر الّتي يمكرونها بك ويخطّطون لها في خفاء، لا تكن في ضيق منها؛ لأنّ الله ﷻ يقول لك: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: من الآية ٣٠]، والله ﷻ سيجعل لك بعد عسر يسراً، فلا تكن في ضيق يا محمّد؛ لأنّك منصور، وإيّاك أن تظنّ أنّك منصورٌ بهم، ولكنّهم منصورون بمحمّد ﷺ.

(الآية ٧١) - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: يقول المكذّبون بالبعث، متّى يأتي؟ وسمَّوْا إخبار الله ﷻ لهم بالبعث: وَعْداً، مع أنّه في حقّهم وعيد، وفَرْق بين وَعَد وأوعد: وَعَد للخير، وأوعد للشّرّ.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: في أنّ هناك بَعْثاً.

وهم قالوا وسيقولون اليوم وغداً هذا القول نفسه الّذي يتكرّر: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟!

(الآية ٧٢) - ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿قُلْ عَسَىٰٓ﴾: كلمة ﴿عَسَىٰٓ﴾ تُفيد الرّجاء، لكنّها من الله ﷻ تُفيد التّحقيق، فلو قُلْت مثلاً: عسى أن يعطيك فلان، فهو رجاء، قد يعطيك وقد لا يعطيك، أمّا عندما تقول: عسى الله ﷻ أن يعطيك، فالمعنى أنّ هذا الأمر قد تحقّق؛ لأنّ (عسى) بالنّسبة إلى الله ﷻ تأكيد وتحقيق في الرّجاء.

﴿أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾: أي: تبعكم وجاء بعدكم، مِن: أردفه، إذا أركبه

خلفه على الدّابّة، فهو خلفه مباشرة، وفعلاً أصابهم ما يستعجلون، فلم يمرّ طويلاً حتّى حاقت بهم الهزيمة في بدر، فصدَقْنا في الأولى حين قلنا: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]، وقد عاينتُم ذلك، فخذوه دليلاً على الغَيْب الّذي أخبرناكم به.

(الآية ٧٣) - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: فمن فضله ﷻ عليكم أنْ يُؤخِّر القيامة لعلّ النّاس يرعوون، وإلّا لفاجأتهم من أوّل تكذيب، وهذا يبيّن أنّ الله ﷻ يُمهل الخَلْق ليزداد فيهم أهل الهدى والإيمان، فالمؤمنون برسول الله ﷺ لم يأتُوا جميعاً مرّة واحدة في وقت واحد، إنّما على فترات زمنيّة واسعة، لذلك قلنا: إنّ المسلمين الأوائل كانوا في معاركهم مع الكفر يألمون إنْ فاتهم قَتْل واحد من رؤوس الكفر وقادته، مثل عكرمة وعمرو وخالد وغيرهم، ولو أطلعهم الله ﷻ على الغيب لَعلِموا أنّه ﷻ نجّاهم من أيديهم ليدّخرهم فيما بَعْد لنُصْرة الإسلام، وليكونوا قادة من قادته، وسيوفاً من سيوفه المشْهَرة في وجوه الكافرين.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾: ففي حياتنا كلّها نعيش في فضل الله ﷻ وفي نعمه وعطائه ﷻ، ولكن مع الأسف أكثر النّاس لا يشكرون، وفي قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ دليلٌ على أنّ بعضهم يشكرون، والشّكر لله ﷻ هو الطّاعة، والاعتراف بالفضل والمنّة.

(الآية ٧٤) - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: لنا أنْ نقول في هذه الآية: إذا كان الله ﷻ يعلم ما تُكنُّ صدورهم وما تخفيه، فمن باب أَوْلَى يعلم ما يُعلنون، فلماذا قال بعدها: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؟ نقول: لأنّ ما في الصّدور غَيْب، والله ﷻ غَيْب، وقد يقول قائل: ما دام أنّ الله ﷻ غيْب، فهو لا يعلم إلّا الغيب، فنردّ عليه بأنّ الله ﷻ يعلم الغيب ويعلم العلن.

(الآية ٧٥) - ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾:

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: معنى: ﴿غَآئِبَةٍ﴾ يعني: الشّيء الغائب، ولحقتْ به التّاء الدّالّة على المبالغة، كما نقول في المبالغة: راوٍ وراوية، ونسَّاب ونسَّابة، وعالم وعلّامة، كذلك غائب وغائبة، مبالغة في خفائها، ومِنْ هنا يرى بعضهم أنّها زائدة، لكنّ كلمة (زائدة) لا تليق بأسلوب القرآن الكريم وفصاحته، ونُنزّه كلام الله ﷻ عن الحشو واللّغو الّذي لا معنى له، وبعضهم تأدّب مع القرآن الكريم فقال: ﴿مِنْ﴾ هنا صلة، لكن صلة لأيّ شيء؟ فلا بدّ أنّ لها معنى، ولكي نوضّحه نقول: إذا أردتَ أنْ تنفي وجود مال معك، تقول: ما عندي مال، وهذا يعني أنّه لا مالَ معك يُعتَدّ به، ولا يمنع أن يكون معك مثلاً عدّة قروش لا يقال لها: مال، فإن أردتَ نفي المال على سبيل تأصيل العموم في النّفس، تقول: ما عندي من مال، يعني بداية ممَّا يُقال له: مال، مهما صَغُر، فمِنْ هنا ﴿مِنْ﴾ ليست زائدةً ولا صلةً، إنّما هي للغاية وتأصيل العموم في النّفي، فيكون معنى الآية أنّ الله ﷻ يحيط علمه

أزلاً بكلّ شيء، مهما كان صغيراً لا يُعتدُّ به، ولنقرأ قوله ﷻ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: من الآية ٥٩]، كما أنّ قدرته ﷻ لا تقف عند حدّ العلم، إنّما يسجّله:

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: أي: في أُمّ الكتاب الّذي سجَّل الله ﷻ فيه كلّ أحداث الكون، فإذا ما جاءتْ الأحداث نراها مُوافِقة لما سجّله الله ﷻ عنها أَزَلاً، فمثلاً لـمّا ذكر الحقّ ﷻ وسائل النّقلِ والمواصلات في زمن نزول القرآن الكريم قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النّحل]، فلولا تذييل الآية بقوله ﷻ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النّحل: من الآية ٨]، لكان فيها مأخذ على القرآن الكريم، وإلّا فأين السّيّارة والطّائرة والصّاروخ في وسائل المواصلات؟ فنستطيع الآن أنْ نُدخِل كلّ الوسائل الحديثة تحت قوله ﷻ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النّحل: من الآية ٨].

(الآية ٧٦) - ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

فَرْق بين أن تُخَاطِب خاليَ الذّهن، وأنْ تُخَاطِب مَنْ لديه فكرة مُسْبقة، فخالي الذّهن يقبل منك، أمّا صاحب الفكرة المسْبقة فيعارضك، كذلك جاء من الكفّار ومن اليهود من يعارض كتاب الله ﷻ وينكر ما جاء به، ومع أنّهم أعداء الإسلام وكارهون له لكْن إنْ سألتَهم عمّا أخبر به القرآن الكريم، يقولون: نعم نعرف هذا من كتبنا: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: من الآية ٨٩]، لذلك سيّدنا عبد الله بن سلام عندما

نظر إلى رسول الله ﷺ علم أنّه الرّسول الحقّ، فمالتْ نفسه إلى الإسلام وقال: والله إنّي لأعرف محمّداً كمعرفتي بابني، ومعرفتي بمحمّد أشدّ، وصدق الله ﷻ حين قال عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: من الآية ١٤٦].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: لماذا أتى على ذكر بني إسرائيل هنا؟ الجواب: لأنّ شعب بني إسرائيل هم أكثر الشّعوب الّتي نقضت العقود والمواثيق، وقتلت الرّسل، واعتدت وتظاهرت مع المشركين على عداء النّبيّ ﷺ.

(الآية ٧٧) - ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾:

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾: هذه هداية المعونة، كما قال ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: من الآية ٨٢]؛ أي: الّذين فرّقوا بين الكفر والإيمان، واتّخذوا طريق الإيمان، فيكون القرآن الكريم لهم هداية ورحمة وهي هداية المعونة، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمّد].

﴿وَرَحْمَةٌ﴾: العطف هنا يقتضي المغايرة، فالهدى: شفاء من الدّاء الّذي جاء القرآن الكريم ليعالجه، والرّحمة: ألّا يعاودك هذا الدّاء مرّة أخرى.

(الآية ٧٨) - ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٨﴾:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ﴾: هو الّذي سيقضي بينهم يوم القيامة.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾: هو العزيز الّذي لا يُغلَب، وهو العليم الّذي يعلم ما تُكِنّ النّفوس وما يصدر عنها، فلذلك جاءت هنا بعد الحديث عن بني إسرائيل، وما يتعلّق بصفاتهم.

(الآية ٧٩) - ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾: التّوكّل أن تستضعف نفسك في شيء، وأن تقوّي نفسك بالحقّ، ولا يكون ذلك إلّا بالتّوكّل على الله الحيّ الّذي لا يموت، والتّوكّل هو عمل القلب، والجوارح لها العمل، فبالجوارح تأخذ بالأسباب، ويطمئنّ القلب بالتّوكّل على الله ﷻ، والنّبيّ ﷺ قال: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»(١).

﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾: كأنّ السّير على الطّريق الحقّ يقتضي التّوكّل على الله ﷻ؛ لأنّ النّاصر هو الله ﷻ والطّاعة هي لله ﷻ، وما دمت تتوكّل على الله ﷻ وأنت على حالة طاعة، فلا بدّ أن يكون نصيرك ومعينك الله ﷻ، ثمّ يسلّي الحقّ ﷻ رسوله ﷺ ويعزّيه كي لا يقلق على مَن شردوا منهم فلم يؤمنوا.

(الآية ٨٠) - ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: المعنى: لا تحزن يا محمّد، ولا تُهلك نفسك على هؤلاء الّذين لم يؤمنوا من قومك، فما عليك إلّا البلاغ، والبلاغ كلام له أداة استقبال في السّامع هي الأُذُن، فأنت عليك أن تبلّغهم وأن توصل إليهم رسالة السّماء، لكن إذا تعطّلت هذه الأداة فهم كالموتى لا يسمعون أصابهم الصّمم، فكلّ هذه الآيات لا يرونها ولا يسمعونها، وليت الأمر يقف بهم عند حدّ الصّمم، وإنّما يولّون مدبرين عن سماع الدّعوة، وهذه مبالغة

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب صفة القيامة والرّقائق والورع، باب ٦٠، الحديث رقم (٢٥١٧).

منهم في الانصراف عن دعوة الحقّ؛ لأنّهم إن جلسوا فلن يسمعوا، فما بالك يا محمّد إذا ولّوا مدبرين يجرون بعيداً، وكأنّ الواحد منهم يخاف أن يزول عنه الصّمم وتلتقط أُذُنه نداء الله ﷻ، فيستميله النّداء، وعندها تكون مصيبته كبيرة -على حَدِّ زعمهم-، وهذا دليل على أنّهم يعلمون أنّه حقّ، وأنّهم لو صَغَوْا إليه لاتّبعوه، ألم يقولوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصّلت: من الآية ٢٦]؛ ذلك لأنّ للقرآن الكريم جلالاً وجمالاً يأسِرُ الألباب، لذلك نَهَوْا عن سماعه، ودَعَوْا إلى التّشويش عليه، حتّى لا ينفذ إلى القلوب.

(الآية ٨١) - ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ﴾: لأنّهم أعموا أنفسهم عن رؤية الحقائق ورؤية الآيات.

وفرْق بين سماع قضيّة الصّدق، وأنت خالي الذِّهْن، وبين أن تسمعها وأنت مشغول بنقيضها، فلكي يُثمِر السّماع ينبغي أنْ تستقبل الدّعوة بذهن خَالٍ، ثمّ تبحث بعقلك الدّعوة وما يناقضها، فما انجذبتَ إليه واطمأنّتْ إليه نفسك فأدخله، وهذه يُسمُّونها -حتّى في المادّيّات- نظريّة الحيّز؛ أي: أنّ الحيّز الواحد لا يتّسع لشيئين في الوقت نفسه، وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالقارورة حين تملؤها بالماء، فلا بُدَّ أنْ يخرج منها الهواء أوّلاً على شكل فقاعات؛ لأنّ الماء أكثفُ من الهواء.

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: ولقائل أن يقول: ما دام تُسمِع مَنْ يؤمن

بآياتنا، فما فائدة السّماع وهو مؤمن؟ نقول: الآيات ثلاثة مترتّبة بعضها على بعض، فأوّلها: الآيات الكونيّة العقديّة الّتي نشاهدها في الكون، ونستدلّ بها على وجود إله خالق قادر، فنسأل: مَنْ هذا الإله الخالق، فيأتي دور الرّسول الّذي يُبيّن لنا، ويحلّ هذا اللّغز، ولا بُدَّ له من آيات تدلّ على صِدْقه في البلاغ عن الله ﷻ هي المعجزة، فإنْ غفلنا عن الآيات الكونيّة ذكّرنا بها الرّسول، فقال: ومن آياته كذا وكذا، فإذا آمنّا بالآيات الكونيّة وآيات المعجزات، فعلينا أنْ نؤمن بآيات الأحكام الّتي جاءتْ بها معجزة النّبيّ ﷺ، فالحقيقة لا يمكن أن ينظر أو أن يسمع أو أن يرى الحقائق إلّا من آمن بهذه الآيات.

﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾: أي: هم اختاروا طريق الاستسلام لأوامر الله ﷻ.

(الآية ٨٢) - ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾: أي: سقط: كأنّه وبطبيعته يسقط لا يحتاج إلى مَنْ يُجبره على السّقوط، والسّقوط ﴿عَلَيْهِمْ﴾، كما في قوله ﷻ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: من الآية ٢٦]، والوقوع هنا يدلّ على أنّهم سيتعرّضون لشدائد ومتاعب، وبتتبّع هذه المادّة (وقع) في القرآن الكريم نجد أنّها جاءت كلّها في الشّدائد إلّا في موضع واحد هو قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النّساء: من الآية ١٠٠]، وما داموا لم يسمعوا الآيات، ولم يقبلوها، ولم يلتفتوا إلى منهج الله ﷻ، وصمُّوا عنه آذانهم، فلم يسمعوا كلام أمثالهم من البشر فسوف نُخرج لهم دابّة تكلّمهم.

﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ﴾: لأنّهم لم يسمعوا كلام الرّسل والأنبياء والصّالحين والمؤمنين، فمن سيكلّمهم؟! ستكون دابّة تخرج عليهم، وانظر إلى هذه الإهانة وهذا التّوبيخ: أنتم لم تسمعوا كلام أمثالكم من البشر، ولم تفهموا مَنْ يخاطبكم بلغتكم، فاسمعوا الآن من الأدنى، وافهموا عنها، وفسِّروا قولها، لكن ماذا ستقول الدّابّة لهم؟ وما نوع هذا الكلام؟ ستقول الدّابّة:

﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾: أي: بآياتنا السّابقة لا يؤمنون، وها أنا أُكلِّمهم، وعلى الماهر فيهم أن يقول لي: كيف أكلّمه؟!

وقد اختلف النّاس في هذه الدّابّة، وفي شكلها وأوصافها، وكيف يأتي القول من غير مألوف القول، وهو الدّابّة؟ لكن ما دام أنّ الله ﷻ أخبر بها فهي حقٌّ، لا ينبغي معارضتها، وعلينا أن نأخذ وقوع ما يحدّث عنه القرآن الكريم بأنّه واقع لا محالة، ولا نحتاج إلى دليل على صدق ما حدّث به القرآن الكريم، وقد قالوا عدّة أقوال في موضوع هذه الدّابّة، قال القرطبيّ في تفسيره: اختُلِف في تعيين هذه الدّابّة وصفتها، ومن أين تخرج اختلافاً كثيراً:

القول الأوّل: إنّها فصيل ناقة صالح عليه السلام، -والفصيل: كما يذكر علماء اللّغة: ولد النّاقة إذا فُصِلَ عن أمّه، واستغنى عن لبنها-، وهو الأصحّ لما ذكره أبو داوود الطّيالسيّ في مسنده عن حذيفة: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّابَّةَ فَقَالَ: «**لَهَا ثَلَاثُ خَرَجَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ فَتَخْرُجُ فِي أَقْصَى الْبَادِيَةِ وَلَا يَدْخُلُ ذِكْرُهَا الْقَرْيَةَ يَعْنِي مَكَّةَ ثُمَّ تَكْمُنُ زَمَاناً طَوِيلاً، ثُمَّ تَخْرُجُ خَرْجَةً**

أُخْرَى دُونَ ذَلِكَ فَيَعْلُو ذِكْرُهَا فِي أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَيَدْخُلُ ذِكْرُهَا الْقَرْيَةَ»، يَعْنِي مَكَّةَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثُمَّ بَيْنَمَا النَّاسُ فِي أَعْظَمِ الْمَسَاجِدِ عَلَى اللَّهِ حُرْمَةً خَيْرِهَا وَأَكْرَمِهَا الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لَمْ يَرُعْهُمْ إِلَّا وَهِيَ تَرْغُو بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ تَنْفُضُ عَنْ رَأْسِهَا التُّرَابَ، فَارْفَضَّ النَّاسُ مَعَهَا شَتَّى وَمَعاً، وَثَبَتَ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَنْ يُعْجِزُوا اللَّهَ، فَبَدَأَتْ بِهِمْ فَجَلَّتْ وُجُوهَهُمْ حَتَّى تَجْعَلَهَا كَأَنَّهَا الْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ، وَوَلَّتْ فِي الْأَرْضِ لَا يُدْرِكُهَا طَالِبٌ وَلَا يَنْجُو مِنْهَا هَارِبٌ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَعَوَّذُ مِنْهَا بِالصَّلَاةِ فَتَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِهِ فَتَقُولُ: يَا فُلَانُ، الآنَ تُصَلِّي، فَيُقْبِلُ عَلَيْهَا فَتَسِمُهُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ تَنْطَلِقُ..»[1].

القول الثّاني: روي أنّها دابّة مزغّبة شعراء، ذات قوائم طولها ستّون ذراعاً.

القول الثّالث: يقال: إنّها الجسّاسة، وهو قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

القول الرّابع: روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّها على خلقة الآدميّين، وهي في السّحاب وقوائمها في الأرض.

القول الخامس: روي أنّها جمعت من خلق كلّ حيوان.

قال القرطبيّ رحمه الله: قد رُفع الإشكال في هذه الدّابّة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليُعتَمد عليه؛ أي: أنّها فصيل ناقة صالح، والله أعلم.

المهمّ أنّها دابّة تكلّم النّاس: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

---

(١) مسند أبي داود الطّيالسيّ: ج٢، حُذَيْفَةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفَارِيّ، الحديث رقم (١١٦٥).

(الآية ٨٣) - ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾: الفوج: هم الجماعة والزّمرة من النّاس، وأوّل مَنْ يُجمع في هذا الموقف هم العتاة والجبابرة الّذين تولَّوْا تكذيب آيات الله ﷻ، يحشرهم الله ﷻ أوّلاً أمام العامّة يتقدّمونهم ويسبقونهم إلى النّار، كما قال ﷻ عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: من الآية ٩٨]، فكما تقدَّمهم في الضّلال في الدّنيا يتقدّمهم إلى النّار في الآخرة، وحين يرى الضّالّون إمامهم في الضّلال يقدمهم ينقطع أملهم في النّجاة، فربّما تعلَّقوا به في هذا الموقف ينتظرونه أنْ يُخلّصهم، لكن كيف وهو يسبقهم إلى هذا المصير؟!

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي: يُمنعون، والمراد يمنعون أن يسبق أوّلهم آخرهم بحيث يدخلون جميعاً، فالحقّ ﷻ يجمع أوّلهم على آخرهم ليشرفوا سويّاً في النّار: التّابع والمتبوع كلّهم سواء في الذّلّة والمهانة، فربّما حاول أحد العتاة أو الجبابرة أن يسبق حتّى لا يراه تابعوه، فيفتضح أمره، فيؤخّره الله ﷻ ليفضحه على رؤوس الأشهاد.

(الآية ٨٤) - ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾: الخطاب هنا لهم: أكذّبتم بآياتي الّتي نزلت عليكم في الدّنيا ولم تحيطوا بها علماً ولم تسمعوا بها،

أمّاذا كنتم تعملون في الحياة الدّنيا؟! وفي سورة الأعراف يُورِد الحقّ ﷻ مذكّرة تفصيليّة لهذا الموقف، ولهذا الحوار الّذي يدور في عَرَصات القيامة، فيقول ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف].

(الآية ٨٥) - ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾: أي: وجب عليهم العذاب.

﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾: وكأنّه شيء محسوس يسقط على رؤوسهم.

﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾: فقد خرستْ ألسنتهم من هَوْل ما رأوْا، فلا يجدون كلاماً ينطقون به.

(الآية ٨٦) - ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

ينتقل السّياق من الكلام عن الآخرة إلى آية كونيّة تدلّ على وحدانيّة الله وعظمته ﷻ، وهذه سِمَة من سمات أسلوب القرآن الكريم، لا يمكن لكتاب آخر أن تجد فيه هذه الطّريقة، يتحدّث عن موضوع الآخرة، وإذ بنا أمام آية من آيات خلق الله ﷻ؛ لأنّ الوظيفة الإيمانيّة هي الأساس في كلّ ما ورد في كتاب الله ﷻ، فيراوح القرآن الكريم بين الدّعوة إلى الإيمان وبين

بيان الآيات الكونيّة، فبعد أن حدّثنا عن الآخرة ذكر هذه الآية الكونيّة، وكأنّه يقول: لا عُذْر لمن يُكذِّب بآيات الله ﷻ؛ لأنّ الآيات موجودة مشاهدة، لذلك قال:

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾: أي: ألم يعلموا ويشاهدوا.

﴿أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾: أي: للنّوم والرّاحة.

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: أي: بما فيه من الأشعّة والضّوء الّذي يُسبّب الرّؤيا. وسبق أنْ بيَّنا دور العالِم المسلم ابن الهيثم في تصحيح نظريّة رؤية الأشياء، إذ كانوا يعتقدون أنّ الشّيء يُرى إذا خرج الشّعاع من العين إليه، والصّحيح أنّ الشّعاع يخرج من الشّيء المرئيّ إلى العين، فكأنّ الشّعاع هو الّذي يُبصر، فهو سبب الرّؤيا، ولولاه لا نرى الأشياء، بدليل أنّك لا ترى في الظّلام.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: فربّنا ﷻ نظَّم لنا حركة حياتنا بليل نسكن فيه ونخلد للرّاحة، ونهار نسعى فيه ونبتغي من فضل الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص]، ولن تستقيم لنا حركة الحياة إلّا إذا سِرْنا على هذا النّظام الّذي ارتضاه الله ﷻ لنا، فإنْ قلبَ النّاس هذه الطّبيعة فسهروا حتّى الفجر، فلا بُدَّ أنْ يلاقوا عاقبة هذه المخالفة في حركة حياتهم: تكاسلاً وتراخياً وقِلّة في الإنتاج والعمل والعلم.. إلخ، والله ﷻ يشرح لنا هذه القضيّة في موضع آخر: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص]، ففي

الكلام عن اللّيل، قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: من الآية ٧١]، وعن النّهار، قال: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: من الآية ٧٢]، لماذا؟ قال العلماء: لأنّ حاسّة الإدراك في اللّيل هي السّمع، وفي النّهار البصر، وفي هذا إشارة إلى طبيعة كلّ منهما حتّى لا نُغيّرها، فنسهر اللّيل، وننام النّهار، وفي قوله ﷻ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: من الآية ٧٣]، ما يسمّيه العلماء باللّفّ والنّشر؛ أي: لفّ المحكوم عليه وهو اللّيل والنّهار معاً، ثمّ نشر حكم كلّ منهما على وجه التّرتيب: لتسكنوا فيه، وهي تقابل اللّيل، ولتبتغوا من فضله، وهي تقابل النّهار، فبعد أنْ استدلّ الحقّ ﷻ بالموجود فعلاً من آيتي اللّيل والنّهار أراد أنْ يستدلّ بعدمهما في: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ [القصص: من الآية ٧١]، و﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ [القصص: من الآية ٧٢]، ثمّ يعود السّياق مرّة أخرى إلى الحديث عن القيامة:

(الآية ٨٧) - ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

وكأنّ الله ﷻ يقول لنا: التفتوا إلى العبرة في الآيات الكونيّة، حيث ستنفعكم في يوم آتٍ هو يوم القيامة.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾: وهو البوق.

﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾: الفزع: الخوف الشّديد الّذي يأخذ كلَّ مَنْ في السّموات، وكلّ مَنْ في الأرض.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: قالوا: هم الملائكة: إسرافيل الّذي ينفخ في الصّور، وجبريل، وميكائيل، وملك الموت، لذلك لـمّا تكلّم سيّدنا رسول الله ﷺ عن مسألة الصّعق هذه، قال: «**لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**»[1]؛ ذلك لأنّ موسى عليه السلام صعق في الدّنيا مرّة حين تجلّى ربّه للجبل، كما حكى القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٣]، وما كان الله ﷻ ليجمع على نبيّه موسى عليه السلام صعقتين، لذلك لم يُصعَق صعقة الآخرة.

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾: أي: صاغرين أذلّاء، لا يتأبّى على الله ﷻ منهم أحد، حيث لا قدرةَ له على ذلك؛ لأنّ القيامة أنهتْ الاختيار الّذي كان لهم في الدّنيا، وبه ملّكهم الله ﷻ شيئاً من المِلْك، أمّا في الآخرة فينزع من النّاس كلّ ما يملكونه، وكلّ قدرة لهم حتّى قدرتهم على الجوارح، فلا قدرة لهم عليها يوم القيامة، ولا إرادة لتنفعل معهم، بدليل أنّها ستشهد عليهم يومئذٍ، فعندما تكلّم الله ﷻ هنا في هذه الآية عن النّفخ في الصّور يعود ليتكلّم عن آية من الآيات الكونيّة.

---

(١) صحيح البخاريّ: كِتَابُ الدِّيَاتِ، بابُ إذا لطمَ المسلمُ يهودياً عند الغَضَبِ، الحديث رقم (٦٩١٧).

(الآية ٨٨) - ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾: أي: تظنّها ثابتة، وتحكم عليها بعدم الحركة، لذلك نسمّيها: الرّواسي والأوتاد.

﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾: أي: ليس الأمر كما تظنّون؛ لأنّها تتحرّك وتمرّ كما يمرّ السّحاب، لكنّكم لا تشعرون بهذه الحركة ولا تلاحظونها؛ لأنّكم تتحرّكون معها بحركتها نفسها، فلا نستطيع أن نلاحظ هذه الحركة إلّا إذا كنّا خارج الشّيء المتحرّك، مثلاً إذا كان الإنسان راكباً في القطار يرى أنّ أعمدة الهاتف هي الّتي تجري وهو ثابت، مع أنّ الحقيقة أنّ الّذي يجري هو القطار، ولأنّ هذه الظّاهرة عجيبة سيقف عندها الخَلْق، فيزيل الله ﷻ عنهم هذا العجب، فيقول:

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾: يعني: لا تتعجّب، فالمسألة من صُنع الله ﷻ وهندسته وبديع خَلْقه، واختار الله ﷻ هنا من صفاته ﷻ:

﴿ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾: يعني: كلّ خَلْق عنده بحساب دقيق مُتقَن.

بعضهم فهم الآية على أنّ مرَّ السّحاب سيكون في الآخرة، واستدلّ بقوله ﷻ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة]، وقد جانبه الصّواب؛ لأنّ معنى: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: من الآية ٥]، أنّها ستتفتّت وتتناثر، لا أنّها تمرّ وتسير، هذه واحدة، والأخرى أنّ الكلام هنا مبنيٌّ على الظّنّ: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾، وليس في القيامة ظنّ؛ لأنّها إذا قامتْ القيامة فكلُّ أحداثها

مُتيقّنةٌ، فأنت في الدّنيا تحسب الجبال جامدة، وهي تمرّ مرّ السّحاب، ثمّ إنّ السّحاب لا يتحرّك بذاته، وليس له ما يُحرِّكه، إنّما يُحرِّكه الهواء، كذلك الجبال حركتها ليست ذاتيّة فيها، فلم نَرَ جبلاً تحرَّك من مكانه، فحركة الجبال تابعة لحركة الأرض؛ لأنّها أوتاد عليها، فحركة الوتد تابعة للموتود فيه، لذلك لمّا تكلّم الحقّ ﷻ عن الجبال، قال ﷻ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النّحل: من الآية ١٥]، فالأرض هي الّتي تتحرّك وتدور فتدور الجبال، ولو خُلِقتْ الأرض على هيئة السُّكون ما احتاجتْ لما يُثبّتها، فلا بُدَّ أنّها مخلوقة على هيئة الحركة، واستطاع العلماء بحساب هذه الحركة أن يصعدوا الى سطح القمر، وأن يطلقوا مركبات الفضاء، وأن يسيّروها بدقّة، حتى إنَّ إحداها تلتحم بالأخرى في الفضاء الخارجيّ، كلّ هذه الظّواهر لو لم تكن مبنيّة على حقائق مُتيقَّنة لأدّتْ إلى نتائج خاطئة وتخلّفتْ، ومن الأدلّة الّتي تُثبت صحّة ما نقول في معنى حركة الجبال، أنّ الله ﷻ قال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، امتنان من الله ﷻ بصنعته، والله ﷻ لا يمتنُّ بصنعته يوم القيامة، إنّما الامتنان علينا الآن ونحن في الدّنيا.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾: أي: أنّ الله ﷻ عالم بأدقّ التّفاصيل، ما يفعل الإنسان وما يقوم به من أيّ حركة في هذه الحياة.

(الآية ٨٩) - ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾:

لهذه الآية صلة لطيفة بما قبلها: فكما أنّ الآيات الكونيّة الّتي أخبر بها الحقّ ﷻ حقيقة واقعة، وتأكّدنا من صِدْقها بالعلم والمشاهدة والحواسّ، فإنّه

يُخبِرنا بحقيقة أخرى ينبغي أن نُصدّقها، وأن نأخذ من صدْق ما شاهدناه دليلاً على صِدْق ما غاب عنّا، فربُّنا يُخبِرنا أنّه:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾: الحسنة: فعل الانفعال فيه يكون لمطلوب الله ﷺ؛ أي: أمر الله ﷻ، فإن فعلتَ الفعل على مراد الله ﷻ كانت لك حسنة، والحسنة عند الله ﷻ بعشر أمثالها، وتضاعف إلى سبعمئة ضِعْف على مقدار طاقة الفاعل من الإخلاص والتّجرُّد لله ﷻ في فعله، حتّى إماطة الأذى عن الطّريق هي حسنة؛ لأنّها شُعبة من شُعَب الإيمان، والمعنى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾؛ أي: في الدّنيا، ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾؛ أي: ناشىء عنها في الآخرة.

أو: يكون المعنى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ أنّ الجزاء على الحسنة خير من الحسنة؛ لأنّك تفعل الحسنة فِعْلاً موقوتاً، أمّا خيرها والثّواب عليها، فسيظلّ لك خالداً بلا نهاية.

(الآية ٩٠) - ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾:

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾: معنى: ﴿فَكُبَّتۡ﴾: ألقيت بعنف، وخصّ الوجه مع أنّ الأعضاء كلّها ستكبُّ في النّار؛ لأنّه أشرفها وأكرمها عند صاحبها، والوجه موضع العزّة والشّموخ، فالحقّ ﷻ يريد لهم الذّلّة والمهانة، وفي موضع آخر يُبيّن أنّ الأعضاء كلّها ستكبُّ في النّار، فيقول ﷻ: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ٩٤﴾ [الشّعراء]، وليس هذا المصير ظلماً لهم، ولا افتراءً عليهم:

﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: وكما يقول ﷻ: ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ [غافر: من الآية ١٧]، فلم نجامل صاحب الحسنة، ولم نظلم صاحب السّيّئة.

(الآية ٩١) - ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١﴾:

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾: فما دام الله ﷻ أعطانا هذه المعلومات الّتي تلفتنا إلى قدرته في آياته الكونيّة، وذكّرنا بالآخرة، وما فيها من الثّواب والعقاب، فما علينا إلّا أنْ نلتزم، (عرفت فالزم) ولنعلم أنّ مَنْ أبلغنا منهج الله ﷻ سيسبقنا إلى الالتزام به، فالشّرع كما أمرك أمرني، فإنْ طلبتُ منكم شيئاً من التّكاليف فقد طالبتُ نفسي به أوّلاً؛ لأنّني واثق بصدق تبليغي عن ربّي ﷻ، لذلك ألزمتُ نفسي به، والعبادة كما قلنا: طاعة العابد للمعبود فيما أمر ونهى؛ لأنّ ربّنا ﷻ خَلَقنا من عَدَم، وأمدّنا من عُدْم، ونظّم لنا حركة حياتنا، فإنْ كلّفنا فلنعلم أنّ التّكليف من أجلنا ولمصلحتنا؛ لأنّه ربّ مُتولٍّ لنا، فإنْ تركنا بلا منهج، وبلا افعل ولا تفعل، وبلا تربية، فسيكون هذا الأمر ناقصاً، وحاشا لله ﷻ، إلّا أن يكون الكمال والتّمام وأنّه أتمّ الدّين، قال ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، فقد تمّ الأمر من السّماء الى الأرض.

﴿أَنۡ أَعۡبُدَ﴾: لم يقُلْ: أُمِرت أن أطيع الله ﷻ؛ لأنّ الألوهيّة تكليف، أمّا الرّبوبيّة فعطاء وتربية، فالآية تُبيّن حيثيّة سماعنا للحكم من الله ﷻ، وهي أنّه ﷻ يُربّينا بهذه الأوامر والنّواهي، وسوف تعود علينا ثمرة هذه التّربية.

﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾: أي: مكّة، وخصّها بالذّكْر؛ لأنّ فيها بيته ﷻ، قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: من الآية ٩٦]، ثمّ يذكر ﷻ من صفات مكّة:

﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾: فهي مُحرَّمة يحرم فيها القتال، وهذه وسيلة لحماية العالم من فساد الحروب وفساد الخلاف الّذي يُفضي إلى القتال.

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾: لأنّ الله ﷻ حين يصطفي من الملائكة رسلاً، ومن النّاس رسلاً، ويصطفي من الأرض أمكنة، ومن الزّمان، يريد ﷻ أن يشيع الاصطفاء في كلّ شيء، فالحقّ ﷻ لا يُحابي أحداً، فحين يرسل رسولاً يُبلّغ رسالته للنّاس كافّة، يعود نفعه على الجميع، وكذلك في تحريم المكان أو الزّمان يعود نفعه على الجميع، لذلك عطف على: ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾، فقال: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ فالتّحريم جُعل من أجل هؤلاء.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: أي: النّبيّ ﷺ يقول: أمرت أن أكون من المنفّذين لمنهج الله ﷻ، يعني: لا أعتقد عقائد أُخبر بها ولا أُنفّذها، وقد قرن الله ﷻ بين الإيمان والعمل الصّالح؛ لأنّ فائدة الإيمان أنْ تعملَ به، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر]، فالله ﷻ يريد أن يُعدّي الإيمان والأحكام إلى أن تكون سلوكاً عمليّاً في حركة الحياة.

(الآية ٩٢) - ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝٩٢﴾:

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ﴾: أنت حين تقرأ القرآن الكريم في الحقيقة لا تقرأ إنّما

تسمع الله ﷻ يتكلّم، ومعنى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾: أي: أستديم أُنْسي بالقرآن الكريم الّذي كُلِّفت به، ليدلّ على أنّني أعشق التّكليف، وأعشق المكلّف، فأحبّ سماع القرآن الكريم، وتلاوته في ذاتها لذّة ومتعة وعطاء، فأنا سآخذ من تلاوته لذّة، وأستديم البلاغ بالقرآن الكريم للنّاس، وبعد ذلك أنا نموذج أمام أمّتي، كما قال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، فهو ﷺ الأسوة الّذي يُقتَدى به، وما دام الرّسول ﷺ قدوة، فكلّ مقام للرّسول غير الرّسالة مَنْ سار فيه فهو على قدم الرّسول ﷺ يأخذ منه، وكذلك مكان كلّ إنسان في التّقوى، على قَدْر اعتباره واقتدائه بالأُسْوة؛ أي: النّبيّ ﷺ.

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾: التّلاوة هو أن يقرأ ويتلو شيءٌ شيئاً، كهذه قراءة القرآن الكريم، فهي ليست كقراءة أيّ كتاب آخر، فلها تحضير للقراءة، فلا بدّ من أن تصفّي جهاز الاستقبال لديك لتسمع من ربّك، لذلك من المفروض أن تكون على طهارة ووضوء، وأن تكون جالساً بأدب، مستقبلاً القبلة، وأن تكون ساتراً العورة.. إلخ.

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾: لأنّ الهداية لن تعود على الله ﷻ، والهداية هنا هي هداية الدّلالة، وهي ستعطيك هداية المعونة وتزيدك هداية وتوفيقاً، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمّد]، فالهداية والتّقوى لا تنفع الله ﷻ إنّما تنفع العبد الّذي اهتدى.

﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾: أنا لا يعنيني إلّا أنّني من المنذرين، وأنت إنّما تضلّ على نفسك، وتتحمّل أيّها الإنسان عاقبة ضلالك.

(الآية ٩٣) - ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾:

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: أي: الحمد لله على نعمه وعلى ما هدانا، والحمد لله الّذي لا يُعذِّب أحداً إلّا بعد إنذاره وإقامة الحجّة عليه.

﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾: والله ﷻ سيريكم آياته في أنفسكم وفي غيركم، فتعرفون دلائل قدرته ﷻ ووحدانيّته في أنفسكم، وفي السّموات والأرض.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾: فهو مطَّلع على السّرّ وأخفى، وعلى أسرار النّاس في صدورهم وما يقومون به من أعمال.

سُورَةُ (القَصَص)

الآيات: (١-٨٨)

سورة القَصَص

سمّيت سورة القصص لوقوع لفظ القصص فيها عند قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ [القصص: من الآية ٢٥]، ولورود قصّة موسى عليه السلام مفصّلة موضّحة من حين ولادته إلى حين رسالته.

هذه السّورة هي السّورة الثّامنة والعشرون في ترتيب المصحف الشّريف، وعدد آياتها: (٨٨) آية، وهي سورة مكّيّة كلّها إلّا آية نزلت بين مكّة والمدينة، في منطقة الجحفة في وقت هجرة النّبيّ ﷺ إلى المدينة، وهي قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: من الآية ٨٥]، ونزلت هذه السّورة بعد سورة النّمل وقبل سورة الإسراء.

(الآية ١) - ﴿طسٓمٓ ۝١﴾:

الحروف المقطّعة في بدايات سور القرآن الكريم مرّة يأتي حرف واحد، مثل: ﴿قٓ﴾، ﴿نٓ﴾، أو حرفان، مثل: ﴿طسٓ﴾، ﴿حمٓ﴾، أو ثلاثة أحرف، مثل: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿طسٓمٓ﴾، أو أربعة أحرف، مثل: ﴿الٓمٓرٓ﴾، أو خمسة أحرف، مثل: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾، ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، وكلّ منها له مفتاح وأسرار، وما قلنا في معنى هذه الحروف مجرّد محاولات على الطّريق، ومنها أنّ مجموع هذه الأحرف هي نصف أحرف الأبجديّة، وهي أربعة عشر حرفاً مجموعة في عبارة: (نصّ حكيم له سرّ قاطع)، فهي أسرار لفتح القلوب والأرواح للتّلقّي عن الله ﷻ في كلامه المبين.

(الآية ٢) - ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾:

يعني: ما يأتي في هذه السّورة آيات الكتاب المبين.

﴿تِلْكَ﴾: عائدة على الآيات القرآنيّة.

﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الآيات الّتي ترد مفصّلة في كتاب الله ﷻ.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾: البيّن الواضح، المبين لنفسه، والمبين للنّاس جميعاً.

(الآية ٣) - ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾:

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾: أي: نقصّ عليك.

﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾: النّبأ: الخبر المهمّ الّذي يجب الالتفات إليه، وهل هناك أهمّ من إرسال موسى عليه السلام إلى مَن ادّعى الألوهيّة؟ لذلك أفرد الله ﷻ لهما هذه السّورة، فلم يَرِدْ فيها ذِكْر آخر إلّا لقارون؛ لأنّها تُعالج مسألة القمّة، مسألة التّوحيد، وتردّ على مَنِ ادّعى الألوهيّة، ونازع الله ﷻ في صفاته.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: لأنّ تلاوته وقصصه حقّ، كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: من الآية ٦٢]، والقصص مأخوذ من قصِّ الأثر وتتبّعه، وقد اشتُهِر به بعض العرب قديماً، ومهروا فيه، حتّى إنّهم ليعرفون أثر الرّجل من أثر المرأة.. إلخ، وقد اشتُهِرت عندهم قصّة الرّجل الّذي فقد جمله، وقابل أحد القصّاصين، وسأله عنه، فقال: جملك أبتر الذَّنَب؟ قال: نعم، قال: أعور؟ قال: نعم، قال: أعرج؟ عندها لم يشكّ صاحب الجمل أنّ هذا الرّجل

هو الّذي أخذ جمله، فأمسك به وقاضاه، وفي مجلس القضاء، قال الرّجل: والله ما أخذتُ جملك، لكنّي رأيتُ الجمل يبعثر بَعْره خلفه، أمّا هذا فيضع بَعْره مرّة واحدة، فعرفتُ أنّه مقطوع الذّنب، ورأيت أحد أخفافه لا يؤثّر في الرّمل فعرفتُ أنّه أعرج، ورأيته يأكل من ناحية ويترك الأخرى فعرفتُ أنّه أعور.

والحقّ ﷻ حين يقصُّ علينا يقصُّ الواقع، فقَصص القرآن الكريم لا يعرف الخيال كقصص البشر، لذلك يسمّيه القصص الحقّ، وأحسن القصص؛ لأنّه يروي الواقع طِبْق الأصل.

(الآية ٤) - ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾:

﴿عَلَا﴾: من العلوّ؛ أي: استعلى، والمستعلَى عليه هم رعيّته، بل علا على وزرائه والخاصّة من رعيّته، وعلا حتّى ادَّعى الألوهيّة، وقال: أنا ربّكم الأعلى، وهذا منتهى الاستعلاء، ومنتهى الطّغيان والتّكبُّر، وما دامت عنده هذه الصّفات وهو بشر وله هوىً، فلا بُدَّ أنْ يستخدمها في إذلال رعيّته.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾: قسّمهم أقسام، طوائف، لكلّ منها استقلالها الخاصّ، والمفروض في المُمَلَّك أنْ يُسوّي بين رعيّته، فلا تأخذ طبقة أو جماعة حظوة عن الأخرى، أمّا فرعون فقد جعل النّاس طوائف، ثمّ سلّط بعضها على بعض، وسخّر بعضها لبعض، ولا شكَّ أنّ جَعْل الأمّة الواحدة عدّة طوائف له مَلْحظ عند الفاعل، فمن مصلحته أن يزرع الخلاف

والشّحناء بينهم حتّى لا يهتزّ عرشه، ويظلّ مطلوباً من الجميع، لكن، ما السّبب في أنّ فرعون جعل النّاس طوائف، تستعبد كلٌّ منها الأخرى؟ قال العلماء: لأنّ بني إسرائيل كانوا في خدمة المستعمر الّذي أزاح حكم الفراعنة، وهم ملوك الرّعاة، فلمّا طُرِد ملوك الرّعاة من مصر كان طبيعيّاً فيمَنْ يحكم مصر أن يضطهد بني إسرائيل؛ لأنّهم كانوا موالين لأعدائه، ويسيرون في ركابهم، ومن هنا جاء اضطهاد فرعون لبني إسرائيل، والقرآن الكريم حينما يتحدّث عن ملوك مصر في القديم وفي الحديث يُسمّيهم فراعنة، ففرعون هو لقب الحاكم في مصر، كما في قوله ﷻ: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾ [الفجر]، وهنا في قصّة موسى عليه السلام قال أيضاً: ﴿فِرْعَوْنَ﴾، أمّا في قصّة يوسف عليه السلام فلم يأْتِ ذكْرٌ للفراعنة، إنّما قال: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ [يوسف: من الآية ٤٣]، وهذه من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم؛ لأنّ الحكم في مصر أيّام يوسف عليه السلام كان لملوك الرّعاة، ولم يكُنْ للفراعنة، حيث كانوا يحكمون مصر قبله وبعده، لمّا استردّوا مُلْكهم من ملوك الرُّعاة، لذلك في عهد يوسف عليه السلام بالذّات قال: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ [يوسف: من الآية ٤٣]، فلم يكُنْ للفرعون وجود في عصر يوسف عليه السلام.

وعندما يفرّق فرعون بينهم وبين الشّعب الموجود، فقد كان يقصد ذلك، وله غايات سياسيّة.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾: يعني: يستبدّ سكّان مصر ببني إسرائيل، ثمّ يُفسِّر الحقّ ﷻ هذا الاستضعاف، فيقول:

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾: ورد في عدّة مواضع في القرآن الكريم قتْل الذُّكْران واستحياء النّساء؛ لأنّ حياة النّاس لا تقوم إلّا باستبقاء النّوع،

فقتل الذّكْران يمنع استبقاء النّوع، واختار قَتْل الذّكْران؛ لأنّهم مصدر الشّرّ بالنّسبة إليه، أمّا النّساء فلا شوكة لهُنَّ، ولا خوفَ منهنّ، لذلك استبقاهُنَّ للخدمة والاستذلال، وحين نتتبّع هذه الآية نجد أنّها جاءت في مواضع ثلاثة من كتاب الله ﷻ، لكلّ منها أسلوب خاصّ، ففي الآية الأولى، يقول ﷻ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: من الآية ٤٩]، وفي موضع آخر، يقول ﷻ: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: من الآية ١٤١]، وهاتان الآيتان على لسان الحقّ ﷻ، أمّا الأخرى فحكاية من الله ﷻ على لسان موسى عليه السلام حين يُعدِّد نِعَم الله ﷻ على بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٦]، فالواو في: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [إبراهيم: من الآية ٦]، لم ترد في كلام الله ﷻ عن بني إسرائيل، إنّما وردتْ في كلام موسى عليه السلام؛ لأنّه في موقف تَعداد نِعَم الله ﷻ على قومه، وقصده أن يُضخِّم نِعَم الله ﷻ عليهم، ويُذكّرهم بالنّعم كلّها، فعطف على: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [إبراهيم: من الآية ٦]، قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [إبراهيم: من الآية ٦]، قال بعضهم: لماذا يقول مرّة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة: من الآية ٤٩]، ومرّة: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الأعراف: من الآية ١٤١]؟ أجاب المفسّرون: لأنّه يقوم مرّة بخنق الأطفال، ومرّة بذبحهم، ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: من السّوم، وهو أن تطلب الماشية المرعى فتتركها تطلبه في الخلاء وتلتقط رزقها بنفسها لا تقدّمه لها، هذه تُسمّى سائمة، أمّا الّتي نربطها ونقدّم لها الغذاء فلا تُسمّى سائمة، فمعنى يسومونكم سوء العذاب؛ أي: يطلبون لكم

سوء العذاب، وما داموا كذلك فلا بدّ أن يتفنّنوا لكم فيه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: فكلّ ما يفعله فرعون هو فساد وإفساد في الأرض، وكما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾ [القصص: من الآية ٧٧]، والله ﷻ خلق الأرض صالحة، وأراد من النّاس الصّلاح، فأفسدوا، وعندما أفسد البشر جاءت الرّسالات السّماويّة لتصلح ما أفسدوه.

(الآية ٥) - ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾:

فلن يدوم لفرعون هذا الظّلم؛ لأنّ الله ﷻ كتب ألّا يُفلح ظَلُوم، وألّا يموت ظلوم، حتّى ينتقم الله ﷻ للمظلوم منه، ويُريه فيه عاقبة ظلمه، حتّى إنّ المظلوم ربّما رحم الظّالم، والله ﷻ سيحاسبه على ظلمه للآخرين، وهنا في هذه الآية تُطالعنا غضبة الحقّ ﷻ للمؤمنين:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: المنّة: عطاء مُعوّض، دون مجهود من معطي المنّة، كأنّها هِبَة من الحقّ ﷻ، وغضبة لأوليائه وأهل طاعته؛ لأنّ الحقّ ﷻ كما قال الإمام عليّ كرم الله وجهه: إنّ الله لا يُسلِم الحقّ، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة النّاس عليه، فإذا لم يغاروا عليه غَارَ هو عليه، والحقّ ﷻ حينما يغَارُ على الّذين استُضعِفوا لا يرفع عنهم الظّلم فحسب، وإنّما أيضاً:

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾: أئمّة في الدّين وفي القيم، وأئمّة في سياسة الأمور والملك.

﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾: أي: يرثون مَنْ ظلمهم، ويكونون سادةً عليهم وأئمّةً لهم، فانظر على كم مرحلة تأتي غيرة الله ﷻ لأهل الحقّ، ولولا أنّ فرعون -الّذي قوي على المستضعفين وأذلَّهم- تأبَّى على الله ﷻ ورفض الانقياد لشملته رحمة الله ﷻ، ولعاشَ هو ورعيّته سواء؟ لذلك دائماً يأتي مَن يريد إنصاف النّاس ممّن ظلموهم، وممّن أفسدوا، والمفسد يُفسِد، ولا يحقّق العدالة في المجتمع، ولا يضمن الحقوق للنّاس، كما كان يفعل فرعون.

(الآية ٦) - ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦﴾:

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: نعرف أنّ الأرض مكان يحدث فيه الحدَث؛ لأنّ كلّ حَدَث يحتاج إلى زمان ومكان، فالمعنى: نجعل الأرض مكاناً لمكَّن فيها، والتّمكين يعني: يتصرّف فيها تسلّطاً، ويأخذ خيرها، وقد شرح الحقّ ﷻ لنا التّمكين في عدّة مواضع من القرآن الكريم، ففي قصّة يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف: من الآية ٥٤]، ﴿مَكِينٌ﴾ يعني: لك عندنا مكانة ومركز ثابت لا ينالُك أحد بشيء، ومنها قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: من الآية ٢١]، يعني: أعطيناه سلطة يأخذ بها خير المكان، ثمّ يُصرِّف هذا الخير للآخرين.

﴿وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾: هامان هو وزير فرعون.

﴿وَجُنُودَهُمَا﴾: ولا بدّ أنّه كان لكلّ منهما جنود خاصّة غير جنود الدّولة عامّة، كما نقول الآن مثلاً: الحرس الملكيّ، وهكذا، أو: أنّ هامان

يصنع من باطن فرعون، فالمِلك لا يزاول أموره إلّا بواسطة وزرائه، وفي هذه الحالة يأخذ الجنود الأوامر من هامان، أو: أنّ هامان كان له سلطة ومركز وقوّة لا تقلّ أهمّيّة عن سلطة فرعون.

﴿مِنْهُم﴾: الضّمير يعود على المستضعفين.

﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾: أي: سنُري فرعون وهامان وجنودهما الشّيء الّذي كانوا يخافون منه، والمراد النّبوءة الّتي جاءتهم، إمّا عن طريق الكهنة، أو عن طريق الرُّؤْيا، حيث رأى فرعون ناراً تأتي من بيت المقدس، وتتسلّط على أهل مصر، لكنّها لا تؤذي بني إسرائيل، فلمّا عبروا له هذه الرّؤيا، قال: لا بدّ أنّه سيأتي من هذه البلد مَن يسلب منّي مُلْكي، ويُرْوى أنّ الكهنة أخبروه أنّه سيُولد في هذه السّنة مولود يكون ذهاب مُلْكك على يديه، فسوف يرى فرعون وقومه هذه المسألة بأعينهم ويباشرونها بأنفسهم، وسيقع هذا الّذي يخافون منه، لذلك أمر فرعون بقتْل الذّكْران من بني إسرائيل ليحتاط لأمره، ويُبقِي على مُلْكه، لكنّ هذا الاحتياط لم يُغنِ عنه شيئاً.

(الآية ٧) - ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾:

عجيب أمر فرعون، فبعد أن أمر بقتل الأولاد من بني إسرائيل يأتيه في البحر تابوت به طفل رضيع، فلا يخطر على باله أنّ أهله ألقوه في البحر لينجو من فرعون، فكيف فاتتْه هذه المسألة وهو إله كما يدّعي؟ لم يعرفها بألوهيّته، ولا عرفها حتّى بذكائه وفِطْنته، وإذا كان الكهنة أخبروه بأنّ ذهاب

مُلْكه على يد وليد من هؤلاء الأولاد، وإذا كانت هذه النّبوءة صحيحة فلا بُدَّ أنّ الولد سينجو من القتل ويكبر، ويقضي على مُلْك فرعون، وما دام الأمر كذلك فسوف يقتل فرعون الأولاد غير الّذي سيكون ذهاب مُلْكه على يديه، وتشاء إرادة الله ﷻ أنْ يتربَّى موسى عليه السلام في قصر فرعون، وأنْ تأتي إليه أمّه السّيّدة الفقيرة لتعيش معه عيشة الثّراء، ويصير موسى عليه السلام بقدرة الله ﷻ قُرَّة عَيْن للملكة، فلننظر إلى هذا التّغفيل، تغفيل عقل وطمس على بصيرة فرعون الّذي ادَّعى الألوهيّة، وبذلك نفهم قول الله ﷻ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: من الآية ٢٤]، فقلبه يُغطِّي على بصيرته ويُعمِّيها.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾: سبق أنْ تكلّمنا في وحي الله ﷻ لأمّ موسى، وقلنا: إنّ الوحي في عموم اللّغة: إعلام بطريق خفيّ، أمّا الوَحْي الشّرعيّ فإعلام من الله ﷻ لرسوله بمنهج لخَلْقه، فالله ﷻ يوحي إلى الملائكة: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: من الآية ١٢]، ويُوحي إلى الرّسل: ﴿۞إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [النّساء: من الآية ١٦٣]، ويُوحي إلى المؤمنين الصّادقين: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المائدة: من الآية ١١١]، ويوحي إلى النّحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴿٦٨﴾﴾ [النّحل]، بل وإلى الجماد: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴿٥﴾﴾ [الزّلزلة]، فالوَحْي إلى أمّ موسى كان وَحْياً من المرتبة الرّابعة بطريق النَّفْث في الرّوع، أو

الإلهام، أو برؤيا، أو بمَلَك يُكلِّمها، هذا كلّه يصحّ، وهذا الوحي من الله ﷻ، وموضوعه: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، وهذا أمر، ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾، وهذا نهي، ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وهذه بشارة في خبرين، فهذه الآية جمعتْ لأمّ موسى أمرين، ونهيين، وبشارتين في إيجاز بليغ مُعْجز.

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾: يعني: مدّة أمانك عليه.

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾: فمَنْ مِنَ النّساء تقبل إنْ خافت على ولدها أنْ تُلقيه في اليمّ؟ مَنْ ترضى أَنْ تُنجيه من موت مظنون إلى موت محقّق؟ وقد جعل الحقّ ﷻ عاطفة الأمومة تتلاشى أمام وارد الرّحمن الّذي أتاها، والّذي لا يؤثّر فيه وارد الشّيطان، ثمّ يُهيّىء الحقّ ﷻ كذلك امرأة فرعون ليتمّ هذا التّدبير الإلهيّ لموسى عليه السلام فتقول: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: من الآية ٩]، فيردّ عليها فرعون: بل لك أنت وحدك، وكأنّه يستشعر ما سيحدث، ولكنّ إرادة الله ﷻ لا بُدَّ نافذة ولا بُدَّ أن يأخذ القدر مجراه لا يمنعه شيء؛ لأنّ الله ﷻ إذا أراد شيئاً فلا رادّ لإرادته، فمع ما علمه فرعون من أمر الرّؤيا أو النّبوءة رُبّي الوليد في بيته، لذلك النّبيّ ﷺ حينما قُرِئت هذه الآية قال: «**وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ قُرَّةَ عَيْنٍ كَمَا أَقَرَّتِ امْرَأَتُهُ لَهَدَاهُ اللهُ كَمَا هَدَاهَا، وَلَكِنَّ اللهَ حَرَمَهُ ذَلِكَ**»[1]، إنّما ردَّ الخير الّذي ساقه الله ﷻ إليه، لذلك أسلمتْ زوجته وماتت على الإيمان، وهي

(١) السّنن الكبرى للنّسائيّ: سورة طه، حديث الفتون، الحديث رقم (١١٢٦٣).

الّتي قالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التّحريم: من الآية ١١]، أمّا هو فمات على كفره شَرَّ ميتة.

﴿وَلَا تَخَافِي﴾: يراعي الحقّ ﷻ مشاعر الأمّ وقَلقها على ولدها، خاصّة إذا ألقتْه في البحر فيطمئنها؛ لأنّ الله ﷻ سيُيَسِّر له تربية خيراً من تربيتك في ظلّ بيت الغِنَى والمُلْك.

﴿وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ﴾: أي: لفراقه؛ لأنّ هذا الفراق سيُعوّض لك، في الدّنيا والآخرة.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾: ثمّ اعلمي بعد هذا أنّ الله ﷻ رادّه إليك، بل وجاعله من المرسلين، فأنا الّذي أحفظه، ليس من أجلك فحسب، إنّما أيضاً لأنّ له مهمّة عندي.

يقولون: ظلّت أمّ موسى تُرضِعه في بيتها طالما كانت آمنة عليه من أعين فرعون، إلى أنْ جاءها أحَد العسس يفتّش البيت فخافت على الولد فلفّته في خرقة ودسّته في فجوة بجوارها، كانت هذه الفجوة هي الفُرْن، ألقتْه فيه وهو مسجور دون أن تشعر -يعني من شدّة خوفها عليه- حتّى إذا ما انصرف العَسَس ذهبت إليه، فإذا به سالماً لم يُصِبْه سوء، وكأنّ الله ﷻ يريد لها أنْ تطمئنّ على حِفْظ الله ﷻ له.

وقد وردت مسألة وحي الله ﷻ لأمّ موسى في كتاب الله ﷻ مرّتين، ممّا دعا السّطحيّين من المستشرقين إلى اتّهام القرآن الكريم بالتّكرار الّذي لا فائدةَ منه، وذكروا قوله ﷻ: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه]،

لكن فَرْق بين الوحي الأوّل والوحي الآخر: الوحي الأوّل خاصّ بالرّضاعة في مدّة الأمان، أمّا الآخر فبعد أنْ خافت عليه أوحى إليها لتقذفه في اليمّ، ولنتأمّل: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [طه: من الآية ٣٩]، والقذف إلقاء بقوّة، لا أنْ تضعه بحنان ورفق؛ لأنّ عناية الله ﷻ ستحفظه على أيّ حال، ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: من الآية ٣٩]، وهذا أمر من الله ﷻ لليمّ أن يخرج الوليد سالماً إلى السّاحل، لذلك لم يأت في هذا الوحي ذِكْرٌ لعمليّة الرّضاعة، فكأنّ الوحي الأوّل جاء تمهيداً لما سيحدث لتستعدّ الأمّ نفسيّاً لهذا العمل، ثمّ جاء الوحي الثّاني للممارسة والتّنفيذ، لذلك يختلف أسلوب الكلام في الوحي الأوّل، فيأتي رتيباً مُطَمْئِناً: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، هكذا في نبرة هادئة؛ لأنّ المقام مقام نصح وتمهيد، لا مقام أحداث وتنفيذ، أمّا الوحي الثّاني فيأتي في سرعة، وبنبرة حادّة: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: من الآية ٣٩]، فالعَجلة في اللّفظ تدلُّ على أنّ المقام مقام مباشرة للحدث فعلاً، وفي الأولى قال: ﴿فَأَلْقِيهِ﴾، أمّا في الثّانية فقال: ﴿فَٱقْذِفِيهِ﴾ [طه: من الآية ٣٩]، والأمّ لا تقذف وليدها، بل تضعه بحنان وشفقة، لكنّ الوقت هنا ضيّق لا يتّسع لممارسة الحنان والشّفقة، والأمر لليمّ أن يُلقي التّابوت بالسّاحل له حكمة؛ لأنّ العمق موضع للحيوانات البحريّة المتوحّشة الّتي يُخاف منها، أمَّا بالقُرْب من السّاحل فلا يوجد إلّا صغار الأسماك الّتي لا خطورة منها، وكذلك ليكون على مَرْأى العين، فيطمئنّ عليه أهله، ويراه مَنْ ينقذه ليصل إلى البيت الّذي قُدِّر له أنْ يتربّى فيه، وفعلاً، وصل التّابوت إلى السّاحل،

وكان فرعون وزوجته آسية وابنته على الشّاطىء، فلمّا أُخرِج لهم التّابوت وجدوا فيه الطّفل الرّضيع، وكان موسى عليه السلام أسمر اللّون، مُجعَّد الشّعر، لذلك يمتنُّ الله سبحانه وتعالى عليه بقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: من الآية ٣٩]؛ أي: أدخل الله سبحانه وتعالى محبّة هذا الطّفل الرّضيع في قلب آسية زوجة فرعون؛ أي: ليس بذاتك أَحَبَّك مَن رآك، إنّما بمحبّة منّي، فتمسَّكت به آسية مع معارضة فرعون لذلك، كما أنّ ابنة فرعون، وكانت فتاة قد أصابها البرص، ورأت في الرّؤيا أنّ شفاءها سيكون على يد هذا الطّفل، فتضافرت الآيات كلّها لديهم لاحتضان هذا الطّفل الرّضيع، فاجتمع لموسى عليه السلام محبّة الزّوجة، ومحبّة البنت، وهما بالذّات أصحاب الكلمة المسموعة لدى فرعون، وقد انصاع فرعون لرغبة زوجته وابنته وضعف أمامهما وأخذ الطّفل، ليتربّى في حضنه.

(الآية ٨) - ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾:

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾: اللَّقطُ واللُّقطة: أن تجد شيئاً دون طلب له، ومنه اللّقيط، وهو الطّفل الرّضيع تجده في الطّريق دون قَصْد منك أو بحث، وكذلك كان الأمر مع التّابوت الّذي وُضِع فيه موسى عليه السلام، فقد جاءَ آلَ فرعون وهم جلوس لم يَسْعَوْا إليه، ولم يطلبوه، فما أنْ رأوه أخذوه، لكن ما علّة التقاطه؟ الزّوجة قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ [القصص: من الآية ٩]، وقالت في حيثيّة أخرى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: من الآية ٩]، فلم يكن لهم بنون، فأرادوه أخاً للبنت.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾: اللّام هنا في: ﴿لِيَكُونَ﴾ ليست لام التّعليل، إنّما لام العاقبة، يعني: كان يفكّر لشيء، فجاءت العاقبة بشيء آخر.

﴿وَحَزَنًا﴾: يعني حُزْن، مثل: عَدَم وعُدْم، وسَقَم وسُقْم، وبَخَل وبُخْل، فالمعنى يأتي بالصّيغتين.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾: هم خاطئون؛ لأنّ تصرّفاتهم لا تتناسب مع ما عرفوه من أمر الوليد، فلم يُقدِّروا المسائل، ولم يستنبطوا العواقب، وكان عليهم أن يشكُّوا في أمر طفل جاء على هذه الحالة، فلا بُدَّ أنّ أهله قصدوا نجاته من يد فرعون.

(الآية ٩) - ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾:

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾: مادّة قرَّ، تقول: قرَّ بالمكان، يعني: أقام وثبت به، ومنه: قرور، يعني: ثبات، وتأتي قرَّ بمعنى: البرد الشّديد، فقرّة العين: بمعنى: ثباتها وعدم حركتها، فتستقرّ العين على منظر أو شيء بحيث تكتفي وتقنع به، ويغنيها عن التّطلُّع لغيره، فالمراد هنا: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ يعني: يكون نعمة ومتعة لنا، نفرح به ونقنع، فلا ننظر إلى غيره.

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾: وقولها بعد ذلك: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يعني: أنّ جنود فرعون فعلاً هَمُّوا بقتله، ففي بالهم أنّ هلاك فرعون على يدي هذا الطّفل، وهم على يقين من ذلك، لكنّ امرأة فرعون رفضت ذلك.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: يعني: لا يشعرون بنفعه لهم أو عدم نفعه، وهل سيكون لهم ولداً أم عدوّاً؟

(الآية ١٠) - ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾:

﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾: الفؤاد: هو القلب، لكن لا يُسمّى القلب فؤاداً إلّا إذا كانت فيه قضايا تحكم حركة الإنسان، فالمعنى: أصبح فؤاد أمّ موسى فَارِغاً؛ أي: لا شيء فيه ممّا يضبط السّلوك، فحين ذهبتْ لترمي بالطّفل وتذكّرت فراقه وما سيتعرّض له من أخطار كادت مشاعر الأمومة عندها أن تكشف سِرَّها، وكادت أنْ تسرقها هذه العاطفة.

﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾: يعني: تكشف أمره؛ أي: قاربت من فراغ فؤادها أن تقول: إنّه ولدي.

﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾: كان فؤاد أمّ موسى فارغاً من القضيّة الّتي تُطمئنها على وليدها، بحيث لا تُفشي عواطفها هذا السّرّ، فثبَّتْناها ليكون الأمر عندها عقيدة راسخة لا تطفو على سطح العاطفة، ومن ذلك قوله تعالى عن أهل الكهف: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: من الآية ١٤]، فالله ﷻ ربط على قلبها، وجعل هذا القلب يحتفظ بهذه القضيّة، فألقته وسكتت ولم تنفعل.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: لأنّ الإيمان هو الّذي يجلب لك النّفع، ويمنعك من الضّارّ، وهو الّذي منعها من شهوة الأمومة في هذا الموقف،

ومن ممارسة العطف والحنان الطّبيعيّين في الأمّ؛ لأنّ هذه شهوة عاجلة يتبعها ضرر كبير، فإنْ أحسُّوا أنّه ولدها قتلوه.

(الآية ١١) - ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ﴾: قُصِّيه: يعني: تتبّعي أثره، وراقبي سيره إلى أين ذهب؟ وماذا فُعِل به؟

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾: حين سمعت الأخت أمر والدتها سارعتْ إلى التّنفيذ، لذلك استخدم القرآن الكريم الفاء الدّالّة على التّعقيب وسرعة الاستجابة: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾، ولم يقُلْ: فقصَّته؛ لأنّ البصر، وإنْ كان بمعنى الرّؤية، إلّا أنّه يدلّ على العناية والاهتمام بالمرئيّ.

﴿عَن جُنُبٍ﴾: من ناحية بحيث لا يراها أحد، ولا يشعر بتتبّعها له، واهتمامها به، ونلحظ هنا أنّ أخت موسى عليه السلام أخذتْ الأمر من أمّها: ﴿قُصِّيهِ ۖ﴾ فقط، ولم تلفت الأمّ نظرها إلى هذا الاحتياط: ﴿عَن جُنُبٍ﴾، بل فعلته الأخت من غير أن يُطلَب منها، ممّا يدلُّ على ذكاء الفتاة وقيامها بمهمّتها على أكمل وجه.

وقوله تعالى: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ يظنّ بعض النّاس أنّ ﴿جُنُبٍ﴾ يعني قريب منّي، وهذا غير صحيح؛ لأنّ معنى الجنب ألَّا تكون في مواجهتي، لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النّساء: من الآية ٣٦]، فالجار الجنب مقابل الجار القريب، فمعناه الجار البعيد، فكأنّ الفتاة حين ذهبت لتتبع سَيْر التّابوت الّذي فيه موسى عليه السلام، أخذتْ مكاناً بعيداً منه، حتّى لا

يفطن أحد إلى متابعتها له. ثمّ تتحدّث الآيات بعد ذلك عن تمهيدات الأقدار للأقدار، فتقول:

(الآية ١٢) - ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾:

﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾: التّحريم هنا لا يعني التّحريم بالنّسبة إلى المكلَّف: هذا حلال وهذا حرام، إنّما: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾: يعني: منعناه أنْ يرضع من المرضعات اللّائي يأتونَ بهنّ لتتقلّب عليه المراضع واحدة بعد الأخرى، إلى أن تأتيه أمّه.

﴿ٱلۡمَرَاضِعَ﴾: جمع مُرضِع، ونقول أيضاً: مرضعة، ولكلّ من اللّفظين مدلول، على خلاف ما يظنّه بعضهم أنّهما بمعنى واحد، ولنقرأ أوّل سورة الحجّ: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ [الحجّ: من الآية ٢]، المرضِع: الّتي من شأنها أنْ تُرضع، وتصلح لهذه العمليّة، لكنّ المرضعة الّتي تُرضع الآن فعلاً، وعلى حِجْرها طفل يلتقم ثديها، وفي موقف القيامة ستذهل هذه عن طفلها من هَوْل ما ترى، فالّتي تذهل هي المرضعة لا المرضع.

﴿فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾: الضّمير في: ﴿فَقَالَتۡ﴾ يعود على أخت موسى عليه السلام؛ لأنّها ما زالت في مهمّة تتبُّع الولد، وقد سمعها هامان تقول: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾، فهامان وجنود فرعون شكّوا بها، فقال لها: لا بدَّ أنّك من أهل هذا الولد؟ وتعرفين قصَّته، فقالت: بل ناصحون للملك مخلصون له، وفعلاً وافقوها على ما نصحتْ به؛ لأنّهم معذورون، فالولد يأبى الرّضاعة من الأخريات.

(الآية ١٣) - ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾: وسبق أنْ وعدها الله ﷻ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: من الآية ٧]، وها هو أوانُ تحقيق الوعد الأوّل، وهو بُشْرى بتحقُّق الوعد الثّاني، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: من الآية ٧]، لكن هذا في مستقبل الأيّام، وسوف يتحقّق أيضاً، وقوله ﷻ: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ يدلّ على أنّ الأسباب في يد المسبّب ﷻ، فنحن الّذين رددناه، لا أخته ولا فرعون؛ لأنّنا نُسيِّر الأمور على وَفْق مرادنا، ونُمهّد لها الطّريق حتّى أنّنا نحول بين المرء وقلبه، لينفذ قضاؤنا فيه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: يعني: لا يعلمون أنّ وَعْد الله ﷻ حقّ، وأنّ مراداته نافذة، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: من الآية ٢١]؛ لأنّهم يرون ظاهراً من الحياة الدّنيا، ولا يرون الأمور بمآلاتها، وإنّما يرونها بتسلسل زمانها، والله ﷻ لا يوجد بالنّسبة إليه زمن ماضٍ وحاضر، وإنّما يقول للشّيء: كن فيكون، فإرادة الله ﷻ هي الّتي تُخضِع الزّمان والمكان والبشر.

(الآية ١٤) - ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: الأشُدّ: يعني القوّة واكتمال النّموّ، وقد حدّدوا لذلك سِنَّ الثّامنة عشرة إلى العشرين.

﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾: الاستواء: هو بلوغُ العقلِ مرحلةَ النّضج الفكريّ، فلمّا اكتملت لموسى عليه السلام قوّة الجسم ونُضْج العقل:

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾: أعطاه الله سبحانه وتعالى من الحكمة ومن العلم وعلّمه ما لم يكن يعلم، وبلغ شأناً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: الله سبحانه وتعالى يُجازي كلّ إنسان من جنس عمله، وعندما يكون الإنسان محسناً يكون الجزاء كذلك بعطاء من غير أسباب، فنجاة موسى عليه السلام كانت عطاء من غير أسباب، وتربيته عليه السلام في قصر فرعون عطاء من غير أسباب، وحكمة موسى عليه السلام وعلمه عطاء من غير أسباب.

(الآية ١٥) - ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾:

﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾: أراد موسى عليه السلام أن يدخل قرية من قُرى فرعون في مصر على حين غفلة من أهلها؛ لأنّ بني إسرائيل كانوا مُضطهدين، وكان الفراعنة والمصريّون في بعض المدن ذات الكثافة العدديّة منهم يُحرّمون على بني إسرائيل دخول قراهم، لذلك اختار موسى عليه السلام وقت غفلة النّاس، لكنّه لم يدخل في اللّيل؛ لأنّه لا يهتدي إلى الطّريق، فقال العلماء: دخلها وقت القيلولة والنّاس في بيوتهم.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾: يعني: من بني إسرائيل.

﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾: يعني: من الفراعنة المصريّين؛ لأنّ شعب بني إسرائيل كان مُسْتَعبد في ذلك الوقت.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾: فاستغاثه الّذي هو من بني إسرائيل على المصريّ أو الفرعونيّ؛ أي: طلب منه العَوْن والنّجدة.

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾: يعني: ضربه بجُمْع يديه، فجاءت نهاية المصريّ أو الفرعونيّ وأجله مع هذه الضّربة.

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾: كان الفراعنة -كما قلنا- يكرهون بني إسرائيل ويُعذِّبونهم، فلمّا قتلَ موسى عليه السلام المصريّ أو الفرعونيّ زاد غضبهم وكراهيتهم لبني إسرائيل، لذلك أحسَّ موسى عليه السلام أنّ هذا العمل من الشّيطان، ليزيد هذه العداوة.

(الآية ١٦) - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾: يُعلّمنا موسى عليه السلام أنّ الإنسان ساعة يقترف الذّنب، ويعتقد أنّه أذنب فعليه ألّا يكابر، إنّما ينبغي عليه أنْ يعترف بذنبه وظلمه لنفسه، ثمّ يبادر بالتّوبة والاستغفار، وقول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ يعني: يا ربّ أنا معترف بذنبي وظلمي، ومن هنا كان الفَرْق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس: آدم عصى واعترف بذنبه وأقرَّ به، فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: من الآية ٢٣]، فقبل الله سبحانه وتعالى منه وغفر

له، أمّا إبليس فعلَّل عدم سجوده: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ [الإسراء: من الآية ٦١]، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: من الآية ٧٦]، فردَّ الحكم على الله ﷻ.

﴿فَغَفَرَ لَهُۥۚ﴾: فلمّا استغفر موسى عليه السلام ربّه ﷻ غفر له.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: يعرف الذّنب، ثمّ يغفره رحمة بنا؛ لأنّ الإنسان حين تصيبه غفلة فيقع في المعصية، وإذا لم يجد باباً للتّوبة والرّجوع يئس وفقد الأمل، وتمادى في معصيته، ونسمّيه: فاقد عنده سُعار للجريمة، ولا مانع لديه من ارتكاب الذّنوب كلّها، فمشروعيّة التّوبة والاستغفار تعطي المؤمن أملاً في أنّه لن يُطرَدَ من رحمة الله ﷻ؛ لأنّ رحمة الله جلّ جلاله واسعة تسَع ذنوبه كلّها مهما كثُرتْ: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزّمر]، لذلك يقول ﷻ في مشروعيّة التّوبة: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُواْۚ﴾ [التّوبة: من الآية ١١٨]، والمعنى: شرع لهم التّوبة، وحثَّهم عليها ليتوبوا بالفعل فيقبل منهم.

(الآية ١٧) - ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾:

﴿بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾: يعني: بالمغفرة، وعذرتني وتُبْت عليَّ.

﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾: أي: عهد الله ﷻ عليَّ ألَّا أكون مُعيناً للمجرمين، وألَّا أرتكب مثل هذا الذّنب مرّة أخرى، وذلك بنعمته ﷻ عليّ بالمغفرة والتّوبة والرّحمة، ولن أُظاهر أو أُساند أيّ مجرم بعد الآن، وأتحرّى في ذلك.

(الآية ١٨) - ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾:

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾: أي: بعد أن قتل موسى عليه السلام الفرعونيَّ صار خائفاً منهم.

﴿يَتَرَقَّبُ﴾: ينظر في وجوه النّاس، يرقب انفعالاتهم نحوه، فربّما جاؤوا ليأخذوه، كما يقولون: يكاد المريب أنْ يقول: خذوني.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: وهو على هذه الحال من الخوف والتّرقُّب إذ بالإسرائيليّ الّذي استغاث به بالأمس ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾، استصرخ: يعني: صرخ، ونادى على مَنْ يُخلّصه، وهو انفعال للاستنجاد للخلاص من مأزق، عندها قال موسى عليه السلام لصاحبه الّذي أوقعه في هذه الورطة بالأمس:

﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾: تريد أنْ تُغويَني بأنْ أفعل كما فعلت بالأمس، وما كان موسى عليه السلام ليقع في الخطأ نفسه الّذي وقع فيه، فلا يُلْدَغ المؤمن من جُحْر مرّتين، وهنا لم يكن سيّدنا موسى عليه السلام نبيّاً، فلم تأته الرّسالة بعد.

(الآية ١٩) - ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾:

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾: يعني: أنّ موسى عليه السلام حَنَّ مرّة أخرى للّذي من شيعته، وهو الإسرائيليّ، وناصره، ولكنّ الرّجل الفرعونيّ المصريّ هذه المرّة واجهه.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ﴾: فهو يعرف ما حدث من موسى عليه السلام، وما داموا قد عرفوا أنّه القاتل، فلا بُدَّ لهم أنْ يطلبوه، ويريدون أن ينتقموا منه.

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾: إنْ: هنا نافية، يعني: ما تريد يا موسى بهذا الفعل إلّا أن تكون جبّاراً في الأرض، فقد قتلتَ نفساً بالأمس، وتريد أنْ تقتلني اليوم، فمن سياق الآية نفهم أنّهم عرفوا أنّ موسى عليه السلام هو القاتل، وهناك لا بُدَّ مَنْ يسعى للإمساك به، وفي هذا الموقف لحق به الرّجل المؤمن.

(الآية ٢٠) - ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾:

وردت هذه الآية مرّتين، في سورة يس: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ [يس: من الآية ٢٠]، وهنا: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾، هناك تقديم وتأخير، هنا يريد القرآن الكريم أن يتحدّث عن الرّجل، وأنّه جاء لينصح موسى عليه السلام، بينما في سورة يس: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ [يس: من الآية ٢٠]، الالتفات على أقصى المدينة، على أطراف المدينة الّتي كان بها مؤمنون، ويقول العلماء: الرّجل هنا هو الرّجل المؤمن من آل فرعون، جاء لينصح موسى عليه السلام بالخروج والهرب قبل أنْ يُمسِكوا به فيقتلوه.

(الآية ٢١) - ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾:

لأنّهم يضطهدوننا ويعذّبوننا من غير ما جريرة، فما بالك بعد أنْ وجدوا فرصة وذريعة ليزدادوا ظلماً لنا؟

فخرج خائفاً ممّا يُحاك له، وهو يترقّب في أيّ لحظة أن يُطبقوا عليه، قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(الآية ٢٢) - ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾: لم يقل: (فلمّا)، بل: ﴿وَلَمَّا﴾؛ لأنّ هناك وقت حتّى وصل إلى مدين.

﴿مَدۡيَنَ﴾: مباني الأردن، شمال الجزيرة العربيّة.

﴿تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾: يعني: ناحيتها، وأراد أنْ يهرب من مصر كلّها، ولم يكُنْ يقصد مدين بالذّات، إنّما سار في طريق صادف أنْ يؤدّي إلى مدين بلد شعيب عليه السلام، ولو كانت مَدْين مقصودة له لما قال بعد توجّهه: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، فموسى عليه السلام حينما خرج من مصر خائفاً يريد الهرب لم يفكّر في وجهة معيّنة، فالّذي يُهمّه أنْ يخرج من هذه البلدة، وينجو بنفسه.

(الآية ٢٣) - ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾:

عرض القرآن الكريم هذه القصّة في إيجاز بليغ ورائع، ومع إيجازها فقد أوضحتْ كثيراً فيما يتعلّق بحشمة المرأة، ودور المرأة في المجتمع.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾: يعني: جاء عند الماء، ولا يقتضي الورود أن

يكون شَرِب منه، والورود بهذا المعنى حلَّ لنا الإشكال في قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم]، فليس المعنى دخول النّار، ومباشرة حَرّها، إنّما ذاهبون إليها، ونراها جميعنا، وقولهم: وردْنا العَيْن: يعني: جئنا عندها ورأيناها، لكنّ الشّرب منها شيء آخر.

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾: أي: على الماء.

﴿أُمَّةً﴾: جماعة.

﴿يَسْقُونَ﴾: أي: مواشيهم.

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾: يعني: بعيداً عن الماء.

﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾: أي: تكفّان الغنم وتمنعانها من الشُّرْب لكثرة الزّحام على الماء.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾: أي: ما شأنكما؟ وفي الاستفهام هنا معنى التّعجُّب، يعني: لماذا تمنعان الغنم أنْ تشربَ، وما أتيتُما إلّا للسُّقْيا؟!

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾: وقولهما: ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾؛ يعني: ينصرفون عن الماء، فصدر مقابل ورد، فالآتي للماء: وارد، والمنصرف عنه: صادر، نقول: صدر يَصْدُر؛ أي: بذاته، وأصدر يُصْدر؛ أي: غيره، فالمعنى: لا نَسْقي حتّى يسقي النّاس وينصرفوا.

﴿الرِّعَاءُ﴾: جمع رَاعٍ.

ثمّ يذكران العلَّة في خروجهما لِسقْي الغنم ومباشرة عمل الرّجال: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

(الآية ٢٤) - ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾:

عندما قالت المرأتان: ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾، وأنّ دخولهما بين الرّحام غير لائق، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾، فهذا ينظّم الحركة، ويُبيّن أنّ ما فعله موسى عليه السلام هو نخوة منه؛ لأنّ أباهما شيخٌ كبير، وهنا تدخّل موسى عليه السلام فسقى لهما.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾: فكان موسى عليه السلام طوال رحلته إلى مَدْين مسافراً بلا زاد حتّى أجهده الجوع، وأصابه الهزال، وأكل من بقل الأرض، وبعد أن سقى للمرأتين تولَّى إلى ظِلّ شجرة ليستريح، وعندها لَهَج بهذا الدّعاء: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، كأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يريد من الضّعيف أنْ يتّجه بطلب المعونة إلى القويّ، إلى الله جل جلاله، لذلك نلحظ أنّ موسى عليه السلام في ندائه قال: ﴿رَبِّ﴾، واختار صفة الرّبوبيّة، ولم يقُلْ: يا الله؛ لأنّ الألوهيّة تقتضي تنفيذ أوامر ونواهٍ، أمّا الرّبوبيّة فهي الرّعاية والعطاء، فقال: يا ربّ، أنا عبدك، وقد جئتك بهذا الطّلب.

﴿أَنزَلْتَ﴾: فالخير منك في الحقيقة، وإنْ جاءني على يد عبد مثلي؛ لأنّك أنت المنعِم الحقيقيّ، وأنت المسبّب الحقيقيّ، فأنا فقير إلى عطائك وإلى رحمتك، فالخير منك يا ربّ، وإنْ سُقْته إليَّ على يد عبدٍ من عبيدك، وفقري لا يكون إلّا إليك، وسؤالي لا يكون إلّا لك، ولم يكَدْ موسى عليه السلام ينتهي من مناجاته لربّه حتّى جاءه الفرج.

(الآية ٢٥) - ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾: أي: إحدى المرأتين.

﴿تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾: يعني: تمشي مِشْيةً فيها حياء، وهذا يُعطي علوّ المكانة للمرأة العفيفة.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾: لمّا جاءتْه هذه الدّعوة لم يتردّد في قبولها، فهو يعلم أنّها استجابة سريعة من ربّه ﷻ حين دعاه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، وهي سبب من الأسباب يَمُدُّه الله ﷻ به، ولم يرفض دعوة الأب.

ولم يذكر لنا السّياق هنا كيف سار موسى عليه السلام والفتاة إلى أبيها، لكن يُرْوَى أنّهما سارا وكان موسى عليه السلام في الأمام، وهي من خلفه، وهذا أدب آخر من آداب النّبوّة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾: قال العلماء: إنّ الرّجل الكبير هو سيّدنا شعيب عليه السلام، والقرآن الكريم لم يذكر لنا أنّه شعيب عليه السلام، بل قال: ﴿شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، وهو مؤمن؛ لأنّه عندما قصّ عليه موسى عليه السلام:

﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾: أي: ما كان بينه وبين المصريّ.

﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: يعني: طمأنه وهدَّأ من رَوْعه.

(الآية ٢٦) - ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ﴾: وهذا حكم من أروع الحِكَم، نستفيده من هذه الآيات، نأخذه من قول الفتاة: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ﴾، فالمرأة لها رأي، وهي الّتي اقترحت على أبيها، وهذا دليل على أنّ الإسلام يُعطي المرأة الحقوق الكاملة، حتّى في الرّأي والمشورة، فقالت له: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ﴾؛ أي: شغّله عندنا.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾: لنرى حكمة هذه الفتاة، هذان شرطان لا بُدَّ منهما في الأجير: قوّة على العمل، وأمانة في الأداء. وقد تسأل: ومن أين عرفتْ البنت أنّ موسى عليه السلام قويّ أمين؟ قالوا: لأنّه لـمّا ذهب ليسقي لهما لم يزاحم النّاس، وإنّما مال إلى ناحية أخرى وجد بها عُشْباً عرف أنّه لا ينبت إلّا عند ماء، وفي هذا المكان أزاح حجراً كبيراً لا يقدر على إزاحته إلّا عدّة رجال، ثمّ سقى لهما من تحت هذا الحجر، وعرفتْ أنّه أمين حينما رفض أن تسير أمامه، حتّى لا تظهر له مفاتن جسمها، فلا بدّ من ترافق الأمانة مع القوّة، فالأمانة مع الضّعف لا قيمة لها، فعندما يكون الإنسان ضعيفاً لن يستطيع أن يتحمّل الأمانة، ويأتي دور الأب، وما ينبغي له من الحزم في مثل هذه المواقف، فالرّجل سيكون أجيراً عنده، وفي بيته بنتان، سيتردّد عليهما ذهاباً وإياباً، ليلَ نهار، والحكمة تقتضي إيجاد علاقة شرعيّة لوجوده في بيته؛ لذلك رأى أن يُزوِّجه إحداهما ليخلقَ وَضْعاً، يستريح فيه الجميع.

(الآية ٢٧) - ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾:

كثيراً ما نرى أنّ كبرياء الأب يمنعه أنْ يعرض ابنته على شابّ فيه كلُّ صفات الزّوج الصّالح -وإنْ كان القلّة يفعلون ذلك- وهنا هذه الحكمة من الأب في أمر زواج ابنته تحلُّ لنا إشكالات كثيرة، فكثيراً ما نجد الشّابّ سويَّ الدّين، سويَّ الأخلاق، لكن قد لا يكون معه مال، أو يكون دون مستوى البنت وأهلها، فيتهيّب أنْ يتقدّم لها فيُرفَض، وهنا نرتقي إلى مستوى التّصريح لسيّدنا شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾، فهذا أدب عَالٍ من العارض، ومن المعروض عليه، وفي مجتمعاتنا كثير من الشّباب والفتيات ينتظرون هذه الجرأة وهذا التّشجيع من أولياء أمور البنات، ألَا نرى أنّ الله سبحانه وتعالى أباح لنا أن نُعرِّض بالزّواج مثلاً لمن تُوفِّي عنها زوجها، قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٣٥]، ولا تخفى علينا عبارات التّلميح الّتي تلفت نظر المرأة إلى الزّواج.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾: أي: تكون أجيراً عندي ثماني سنوات، وهذا مَهْر الفتاة، أراد به أن يُغلِي من قيمة ابنته، حتّى لا يقول زوجها: إنّها رخيصة، أو أنّ أباها رماها عليه.

﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: يعني: حينما تعايشني ستجدني طيّبَ المعاملة، وستعلم أنّك

مُوفّق في هذا النّسب، بل وستزيد هذه المدّة محبّة في البقاء معنا، فأجاب موسى عليه السلام:

(الآية ٢٨) - ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾: أي: أنا بالخيار، أقضي ثماني أو عشر سنوات.

﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾: وقد أخذ العلماء حُكْماً جديداً من هذه الآية، وهو أنّ المطلوب عند عقد الزّواج تسمية المهر، ولا يشترط قبضه عند العقد، فلَك أنْ تُؤجّله كلّه وتجعله مُؤخّراً، أو تُؤجّل بعضه، وتدفع بعضه، والمهر هو كهديّة للمرأة، بحيث إذا ماتت ذهب إلى تركتها، وإذا مات الزّوج يُؤخَذ من تركته، بدليل أنّ شعيباً عليه السلام استأجر موسى عليه السلام ثماني أو عشر سنين، وجعلها مهراً لابنته، ونلحظ أنّ السّياق هنا لم يذكر شيئاً عن الطّعام، مع أنّ موسى عليه السلام كان جائعاً ودعا ربّه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، لكن يروي أهل السّير أنّ شعيباً عليه السلام قدّم لموسى طعاماً، وطلب منه أن يأكل، فقال: أستغفر الله، يعني: أنْ آكل من طعام، كأنّه مقابل ما سقى الغنم للبنتين، لذلك قال: إنَّا أهل بيت لا نبيع عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً، فقال شعيب: كُلْ، فإنَّا أهل بيت نطعم الطّعام ونقري الضّيف، قال: الآن نأكل.

ثمّ يقول الحقّ سبحانه وتعالى:

(الآية ٢٩) - ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾: أي: الّذي اتّفق عليه مع شعيب عليه السلام أن يأجره ثماني أو عشر سنوات.

﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾: قلنا: إنّ الأهل تُطلق على الزّوجة، وفي لغتنا العامّيّة نقول: معي أهلي.

﴿ءَانَسَ﴾: يعني: أبصر ورأى، أو أحسَّ بشيء من الأُنْس.

﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾: الطّور: اسم الجبل في سيناء.

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾: انتظروا.

﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾: يخبر زوجته بوجود النّار، وهذا يعني أنّها لم تَرَها كما رآها هو، وهذا دليل على أنّها ليست ناراً مادّيّة يُوقِدها بشر، -هكذا قال العلماء- وإلّا لاستوى أهله معه في رؤيتها، فهذا أمر خاصّ به عليه السلام.

﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾: يعني: رجاءَ أنْ أجد مَنْ يُخبرنا عن الطّريق، ويهدينا إلى أين نتوجّه.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: الجذوة: قطعة من نار متوهّجة ليس لها لَهَب.

﴿تَصْطَلُونَ﴾: أي: تستدفئون بها.

وفي موضع آخر قال: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النّمل: من الآية ٧]، يعني: شعلة لها

لسان ولهب، فمأربهم على هذه الحال أمران: مَنْ يخبرهم بالطّريق حيث تاهَتْ بهم الخُطَا في مكان لا يعرفونه، ثمّ جذوة نار يستدفئون بها من البرد. وفي موضع آخر لهذه القصّة لم يذكر قوله ﷻ: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾، وهذا من المآخذ الّتي يأخذها السّطحيّون على أسلوب القرآن الكريم، لكن بتأمّل الموقف نرى أنّه أخذ صورة المحاورة بين موسى عليه السلام وأهله، فزوجة وزوجها ضَمَّهما الظّلام في مكانٍ موحش، لا يعرفون به شيئاً، ولا يهتدون إلى طريق، والجوّ شديد البرودة، فمن الطّبيعيّ حين يقول لها: إنّي رأيت ناراً سأذهب لأقتبس منها أن تقول له: كيف تتركني وحدي في هذا المكان؟ فربّما تضلّ أنت أو أضلّ أنا، فيقول لها: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾، فلا بُدَّ أنّ هذه العبارة تكرّرتْ على صيغتين كما حكاها القرآن الكريم، كذلك في قوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ [النّمل: من الآية ٧]، وفي مرّة أخرى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾، قال العلماء: لأنّه لمّا رأى النّار، قال: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ [النّمل: من الآية ٧]، على وجه اليقين، لكن لمّا راجع نفسه، فربّما طفئت قبل أن يصل إليها استدرك، فقال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾، على سبيل رجاء غير المتيقّن.

(الآية ٣٠) - ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾:

وكأنّ الحقّ ﷻ يريد أنْ يعطينا خريطة تفصيليّة للمكان، فهناك مَنْ قال: من جانب الطّور، والجانب الأيمن من الطّور، وهنا: ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، ومضمون النّداء: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، سمع موسى عليه السلام هذا النّداء يأتيه من كلّ نواحيه،

وينساب في كلّ اتّجاه؛ لأنّ الله ﷻ لا تحيّزه جهة، لذلك لا تقُلْ: من أين يأتي الصّوت؟ وليس له إِلْفٌ بأن يخاطبه الرّبّ ﷻ، ومع النّداء يرى النّار تشتعل في فرع من الشّجرة، النّار تزداد اشتعالاً، والشّجرة تزداد خضرة، فلا النّار تحرق الشّجرة بحرارتها، ولا الشّجرة تُطفِىء النّار برطوبتها، فهي مسألة عجيبة يحَارُ فيها الفكر، فهل يستقبل كُلَّ هذه العجائب بسهولة أم لا بُدَّ له من مراجعة؟! فحتماً استقبلها بتعجّب.

(الآية ٣١) - ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾:

وفي موضع آخر يسأله ربّه ليُؤنسه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه]، أطال عليه السلام في هذا الموقف ليطيل مُدَّة الأُنْس بربّه، فلمّا أحسَّ أنّه أسرف وأطال قال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: من الآية ١٨]، وهذا أدب مع الله ﷻ، أمّا هنا فيأتي الأمر مباشرة ليُوظِّف العصا: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾: لأنّه رأى عجيبة أخرى أعجب ممّا سبق، فلو سلَّمنا باشتعال النّار في خُضْرة الشّجرة، فكيف نُسلِّم بانقلاب العصا جانّاً يسعى ويتحرّك؟ وهنا كلام محذوف؛ لأنّ القرآن الكريم مبنيٌّ على الإيجاز، فالتّقدير: فألقى موسى عصاه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾، ذلك ليترك للعقل فرصة الاستنباط، ويُحرِّك الذِّهْن لمتابعة الأحداث، والجانُّ، -كما قُلْنا- هو فرخ الحيّة، وقد صُوِّرَتْ العصا في هذه القصّة بأنّها: جانٌّ، وثعبان، وحيّة، وهي صورة ثلاثة أشياء للشّيء الواحد، فهي في خفَّتِها جانٌّ، وفي طولها ثعبان، وفي غِلَظها حيّة.

﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾: يعني: انصرف خائفاً.

﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾: لم يلتفت إلى الوراء، فناداه ربّه:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ﴾: يعني: ارجع ولا تخَفْ من شيء، ثمّ يعطيه القضيّة الّتي يجب أن تصاحبه في كلّ تحرّكاته في دعوته:

﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾: فلم يقل: ارجع فسوف أؤمّنك في هذا الموقف، إنّما: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، يعني: هي قضيّة مستمرّة ملازمة لك؛ لأنّك في مَعيّة الله ﷻ، ومَنْ كان في معيّة الله ﷻ لا يخاف، وإلّا لو خِفْتَ الآن، فماذا ستفعل أمام فرعون، وهكذا يُعطي الحقّ ﷻ لموسى عليه السلام دُرْبة معه سبحانه، ودُرْبة حتّى يواجه فرعون وسَحرته والملأ جميعاً دون خوف ولا وَجَل، وليكون على ثقة من نصر الله ﷻ وتأييده في جولته الأخيرة أمام فرعون، وقد انتفع موسى عليه السلام بكلّ هذه المواقف، وتعلَّم من هذه العجائب الّتي رآها فزادتْه ثقةً وثباتاً، لذلك لمّا كاد فرعون أنْ يلحقَ بجنوده موسى وقومه، وقال أصحاب موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾ [الشّعراء: من الآية ٦١]، استعاد موسى عليه السلام قضيّة: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، فقال بملء فيه: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشّعراء]، فحيثيّة الثّقة عند موسى عليه السلام هي معيّة الله ﷻ له، وقد قُصَّ هذا كلّه على نبيّنا محمّد ﷺ، فانتفع به ووثق في نصر الله ﷻ، فلمّا قال له الصِّدّيق وهما في الغار: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»[1]، وسجّلها القرآن الكريم: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾

(١) صحيح مسلم: كتاب فضائلِ الصَّحابةِ ﷺ، بابُ مِنْ فضائلِ أبي بَكْرٍ الصِّدّيقِ ﷺ، الحديث رقم (٢٣٨١).

[التّوبة: من الآية ٤٠]، وما دُمْنا في معيَّة مَنْ لا تُدركه الأبصار، فلن تُدركنا الأبصار.

ثمّ ينقل الحقّ ﷻ موسى عليه السلام إلى آية أخرى تُضَافُ إلى معجزاته:

(الآية ٣٢) - ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿اسْلُكْ يَدَكَ﴾: يعني: أدخلها.

﴿فِي جَيْبِكَ﴾: الجيب: فتحة الثّوب من أعلى، وسَمَّوْها جَيْباً؛ لأنّهم كانوا يجعلون الجيوب مكان حِفْظ الأموال في داخل الثّياب حتّى لا تُسرق، فكان الواحد يُدخِل يده في قبَّة الثّوب لتصل إلى جيبه، ونلحظ هنا دقّة الأداء القرآنيّ:

﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾: ولم يقُلْ بصيغة الأمر: وأخرجها، كما قال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ﴾، وكأنّ العمليّة عمليّة آليّة منضبطة بدقّة، فبمجرّد أن يُدخِلها تخرج بيضاء، فكأنّ إرادته على جوارحه كانت في الإدخال، أمّا في الإخراج فهي لقدرة الله ﷻ.

﴿بَيْضَاءَ﴾: أي: مُنوّرة دون مرض، والبياض لا بُدَّ أن يكون عجيباً في موسى عليه السلام؛ لأنّه كان أسمر اللّون، لذلك قال:

﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: حتّى لا يظنّوا به بَرصاً مثلاً، فهو بياض طبيعيّ مُعْجِز.

﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾: الجناحان في الطّائر كاليدين في

الإنسان، وإذا أراد الإنسان أن يعوم مثلاً يفعل كما يفعل الطّائر حين يطير، فالمعنى: اضمُمْ إليك يديك يذهب عنك الخوف.

﴿فَذَٰنِكَ﴾: ذا: اسم إشارة للمفرد، ونقول: ذان اسم إشارة للمثنّى، والكاف للخطاب، والمراد: الإشارة لمعجزتي العصا واليد.

﴿بُرْهَٰنَانِ﴾: البرهان: هو الحجّة والدّليل على صِدْق المبرهَن عليه.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾: أي: ربّك الحقّ.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: الرّبّ الباطل، ولا يمكن أنْ يجتمع الحقّ والباطل، لا بدّ للباطل أنْ يزهق؛ لأنّه ضعيف لا يصمد أمام قوّة الحقّ، قال ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: من الآية ١٨].

﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: لأنّ فرعون ادَّعى الألوهيّة، واستخفّ قومه فأطاعوه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا﴾: أي: جميعاً فرعون والملأ.

﴿فَٰسِقِينَ﴾: أي: خارجين عن طاعة الله ﷻ، فسق: من قولنا: فسقتِ الرُّطَبة، يعني: خرجتْ من قشرتها، والمراد هنا: الحجاب الدّينيّ الّذي يُغلِّف الإنسان، ويحميه ويعصمه أنْ يتأثّر بعوامل المعصية، فإذا انسلخ من هذا الثّوب، ونزع هذا الحجاب، وتمرَّد على المنهج تكشّفتْ عورته، وبانتْ سَوْءَته.

(الآية ٣٣) - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾:

فما زال موسى عليه السلام خائفاً من مسألة قتْل الفرعونيّ، لذلك يطلب من ربّه ﷻ أنْ يؤيّده، ويعينه بأخيه.

(الآية ٣٤) - ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾: معنى الرِّدْء: المعين، وعرفنا من قصّة موسى عليه السلام وهو صغير في بيت فرعون أنّه أصابته لَثْغة في لسانه، فكان ثقيل النّطق لا ينطلق لسانه بسلاسة؛ لذلك أراد أنْ يستعين بفصاحة أخيه هارون ليؤيّده، ويُظهر حجّته، ويُزيل عنه الشّبهات، فقال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾، يعني: معيناً لي حتّى لا يُكذِّبني النّاس، فيكون رسولاً مِثْلي بتكليفٍ منك يا ربّ، لذلك نرى الآيات تتحدّث عن هارون على أنّه رسول شريك لموسى في رسالته، يقول سبحانه وتعالى في شأنهما: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه]، فإذا نظرنا إلى وحدة الرّسالة فَهُما رسول واحد، وهذا واضح في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشّعراء]، وجاء في قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشّعراء: من الآية ٢٧]، بصيغة المفرد، وقد ورد أيضاً: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: من الآية ٤٧]، فخاطبهم مرّة بالمفرد، ومرّة بالمثنّى، لذلك لمّا دعا موسى عليه السلام على قوم فرعون لمّا غرَّتهم الأموال، وفتنتهم زينة الحياة الدّنيا، قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: من الآية ٨٨]، المتكلّم هنا موسى عليه السلام وحده، ومع ذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: من الآية ٨٩]، فنظر إلى أنّهما رسول واحد، فموسى يدعو وهارون يُؤمّن على دعائه، والمؤمّن أحد الدَّاعِيَيْن.

(الآية ٣٥) - ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

أجابه ربّه ﷻ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ لأنّ موسى عليه السلام قال في موضع آخر: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه]، وقوله ﷻ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ تعبير بليغ يناسب المطلوب من موسى عليه السلام؛ لأنّ الإنسان يزاول أغلب أعماله أو كلّها تقريباً بيديه، والعضلة الفاعلة في الحمل والحركة هي العَضد، فالمعنى: سنُقوّيك بقوّة مادّيّة.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾: هذه هي القوّة المعنويّة، وهي قوّة الحجّة والمنطق والدّليل، فجمع الله ﷻ لهما: القوّة المادّيّة، والقوّة المعنويّة، لذلك قال بعدها:

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾: أي: نُنجيكم منهم، لكنّ معركة الحقّ والباطل لا تنتهي بنجاة أهل الحقّ، إنّما لا بُدَّ من نُصرْتهم على أهل الباطل، وفَرْق بين رجل يهاجمه عدوّه فيغلق دونه الباب، وتنتهي المسألة عند هذا الحدّ، وبين مَنْ يجرؤ على عدوّه ويغالبه حتّى ينتصر عليه، فيكون قد منع الضّرر عن نفسه، وألحق الضّرر بعدوّه، وهذا هو المراد بقوله ﷻ: ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾، وهكذا أزال الله ﷻ عنهم سلبيّة الضّرر، ومنحهم إيجابيّة الغَلَبة، ونلحظ توسّط كلمة: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ بين العبارتين: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ و﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾، فهي سبب فيهما: فبآياتنا ومعجزاتنا الباهرات ننجيكم، وبآياتنا ومعجزاتنا ننصركم، فهي كلمة واحدة تخدم المعنيين، وهذا

من وجوه بلاغة القرآن الكريم، ومن عجائب ألفاظ القرآن الكريم كلمة النّجم في قوله ﷻ: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ [الرّحمن]، فجاءت النّجم بين الشّمس والقمر، وهما آيتان سماويّتان، والشّجر وهو من نبات الأرض، لذلك صلحت النّجم بمعنى نجم السّماء، أو النّجم بمعنى النّبات الصّغير الّذي لا ساقَ له، مثل العُشْب الّذي ترعاه الماشية في الصّحراء.

(الآية ٣٦) - ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٦﴾:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾: أي: بمعجزاتنا واضحات باهرات، فلمّا بُهِتوا أمام آيات الله ﷻ، وحاروا كيف يخرجون من هذا المأزق، فقد جاءهم موسى عليه السلام ليهدم عرش الألوهيّة الباطلة عند فرعون، ولم يملكوا إلّا أنْ قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، لذلك يُعلِّم الحقّ ﷻ موسى عليه السلام مُحاجَّة هؤلاء، فكأنّه قال له: أنت مُقبل على أُنَاس متمسّكين بالباطل، حريصين عليه، منتفعين من ورائه، ولا بُدَّ أنْ يغضبوا إنْ قضيتَ على باطلهم، وصرفتهم عنه إلى الحقّ، فقد أَلِفُوا الباطل، فإنْ أخرجتَهم ممّا أَلِفوا إلى ما لا يألفون، فلا بُدَّ لك من أن تستخدم اللّين حتّى لا تجمع عليهم قسوة تَرْك ما أَلِفوه مع قسوة الدّعوة إلى ما لم يألفوه، ويكفي أنّك ستسلب فرعون سلطان الألوهيّة الّذي عاشوا في ظلّه، فإنْ زِدْتَ في القسوة عليهم ولّدْتَ عندهم لدداً وعناداً في الخصومة، لذلك قال

تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه]، يعني: لربّما بالنّسبة إليكما يلين ويتذكّر أو يخشى، وإنْ قابلوك هم بالقسوة حين قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ومع ذلك قابلهم أنت باللّين يا موسى.

(الآية ٣٧) - ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾:

لنلاحظ هنا اللّين وأدب الجدل عند موسى عليه السلام، فلم يردّ عليهم بالقسوة الّتي سمعها منهم، ولم يتّهمهم كما اتّهموه، إنّما ردّ بهذا الأسلوب اللّيّن، وبهذا الإيحاء: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، ولم يقُلْ: إنّي جئت بالهدى.

﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾: الدّار: يعني: الدّنيا، وعاقبتها: تعني: الآخرة.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: سواء كنّا نحن أم أنتم، ولم يقُلْ: أنتم الظّالمون، لقد أطلق القضيّة، وترك للعقول أنْ تميّز.

وهذا الأدب النّبويّ في الجدل والحوار رأيناه في سيرة سيّدنا رسول الله ﷺ مع كفّار مكّة والمعاندين له، وقد خاطبه ربّه عزّ وجلّ: ﴿* وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: من الآية ٤٦]، وقال جلّ جلاله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النّحل]، ونبيّنا ﷺ كان يقول: «**اللّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا**

يَعْلَمُونَ»[1]، ورحم الله أمير الشّعراء شوقي الّذي صاغ هذه المسألة في عبارة موجزة، فقال: النُّصْح ثقيل فلا ترسله جبلاً، ولا تجعله جدلاً، وقال آخر: الحقائق مرّة فاستعيروا لها خفّة البيان.

(الآية ٣٨) - ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾: خشي فرعون من كلام موسى عليه السلام على قومه، فأراد أن يُذكِّرهم بألوهيّته، وأنّه لم يتأثّر بما سمع من موسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، يعني: إيّاكم أنْ تصدّقوا كلام موسى، فأنا إلهكم، وليس لكم إله غيري، ثمّ يؤكّد هذه الألوهيّة، فيقول لهامان وزيره:

﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: وفي موضع آخر قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: الآية ٣٦- من الآية ٣٧]، وكأنّه يريد أن يُرضي قومه، فها هو يريد أنْ يبحث عن الإله الّذي يدَّعيه موسى، وكأنّه إنْ بنى صرحاً واعتلاه سيرى ربّ موسى، لكن هل بنى له هامان هذا الصّرح؟ لم يَبْن له شيئاً، ممّا يدلّ على أنّ المسألة هَزْل في هَزْل، وضحك على القوم الّذين استخفّهم ولعِب بعقولهم، وإلّا، فما حاجتهم لحرق الطّين

(١) شعب الإيمان: ج٣، ص٤٥، الحديث رقم (١٣٧٥).

ليصير هذه القوالب الّتي نراها ونبني بها الآن وعندهم الحجارة الّتي بنَوْا بها الأهرامات، وصنعوا منها التّماثيل؟ وعمليّة حَرْق الطّين تحتاج إلى كثير من الوقت والجهد، فالمسألة كسب الوقت من الخَصْم، وتخدير الملأ من قومه.

﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: وقبل أنْ يصل إلى حكم فيرى إله موسى أو لا يراه، يبادر بالحكم على موسى عليه السلام: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ليصرف ملأه عن كلام موسى عليه السلام.

(الآية ٣٩) - ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: تكبّروا دون حقّ، وبغير مبرّرات للكِبْر، فليس لديهم هذه المبرّرات؛ لأنّ الإنسان يتكبَّر حين تكون عظَمَته ذاتيّة فيه، أمّا العظمة المخلوقة له من غيره فلا يتكبّر بها، مَنْ يتكبّر يتكبَّر بشيء ذاتيّ فيه: الغِنَى، القوّة، الجاه، والسّلطان... إلخ، لذلك يكره الله سبحانه وتعالى المتكبّرين، ويقول في الحديث القدسيّ: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**»(١)، والمتكبّر في الحقيقة ناقصُ الإيمان؛ لأنّه لا يتكبَّر إلّا حين يرى النّاس جميعاً دونه، ولو أنّه استحضر كبرياء خالقه جل جلاله لاستحيا أنْ يتكبَّر أمامه، وهكذا كان استكبار فرعون وجنوده في الأرض بغير حقّ، أمّا إنْ كان الاستكبار من أجل حماية الضّعيف ليعيش في ظلاله فهو استكبار بحقّ، لذلك حين يصف

(١) سنن أبي داود: كِتَاب اللِّبَاسِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكِبْرِ، الحديث رقم (٤٠٩٠).

الحقّ ﷻ نفسه بأنّه العظيم المتكبّر، نقول: هذا حقّ؛ لأنّه حماية للنّاس جميعاً من أنْ يتكبَّر بعضهم على بعض.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾: فاستكبارهم في الأرض جاء نتيجة ظنّهم بأنّهم لن يرجعوا إلى الله ﷻ، وهكذا عبر الأزمان كلّها حتّى الآن، يعتقدون أنّه ﷻ لم يخلقهم ويرزقهم، ولن يعودوا إليه، لكن هيهات، لا بُدَّ لهم رَجْعة، كما نقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: من الآية ١٥٦].

(الآية ٤٠) - ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾:

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾: كأنّ الحقّ ﷻ لم يُمهلهم إلى أن يعودوا إليه يوم القيامة، إنّما عاجلهم بالعذاب في الدّنيا قبل عذاب الآخرة، ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾؛ أي: جميعاً في قبضة واحدة، التّابع والمتبوع.

﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾: ألقينا بهم في البحر.

وهذا الأخذ الّذي يشملهم جميعاً في قبضة واحدة يدلُّ على قدرة الآخذ، وهذه مسألة لا يقدر عليها إلّا الله القويّ العزيز، كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود].

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: نهايتهم، وقد جاءت عجيبة من عجائب الزّمن وآية من آيات الله ﷻ، فالبحر والماء جُنْد من جنود الله ﷻ، تنصر الحقّ وتهزم الباطل، وقد ذكرنا كيف أنجى الله ﷻ موسى عليه السلام وأهلك فرعون بالشّيء الواحد حين أمر الله ﷻ موسى عليه السلام

أنْ يضرب بعصاه البحر، فصار كلّ فِرْق كالطّود العظيم، فلمّا أنْ جاوزه موسى وقومه إلى النّاحية الأخرى أراد أنْ يضرب البحر مرّة أخرى ليعود الماء إلى سيولته واستطراقه فيُصَحِّح الله ﷻ له ويأمره أنْ يدَعَهُ على حاله، ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤﴾ [الدّخان]، فالحقّ ﷻ يتابع نبيّه موسى عليه السلام خُطْوة بخطوة، كما قال له: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: من الآية ٤٦]، وحاشا لله أن يُكلِّفه بأمر ثمّ يتركه، ولمّا رأى فرعون الطّريق اليابس أمامه عبر بجنوده، فأطبقه الله ﷻ عليهم، فصاروا آية وعبرة، كما قال ﷻ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ [يونس: من الآية ٩٢]، ولنتأمَّلْ قدرة الله ﷻ الّتي أنجَتْ موسى من الغرق، وقد ألقتْه أمّه بيديها في الماء، وأغرقتْ فرعون.

(الآية ٤١) - ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١﴾:

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾: أئمّة: جمع إمام، وهو مَنْ يُؤتَمّ به، والمأموم أسيرُ إمامه، فلو كنّا في الصّلاة لا نركع حتّى يركع، ولا نرفع حتّى يرفع، فمتابعتنا له واجبة، فإنْ أخطأ وجب على المأموم أنْ يُنبّهه وأن يُذكّره، يقول له: سبحان الله، فنحن مأمومون له في الحقّ فقط، فإنْ أخطأ عدَّلْنا له، والإمام أُسْوة وقدوة للمأمومين في الخير ومنهج الحقّ، كما قال ﷻ في حَقِّ نبيّه إبراهيم عليه السلام: ﴿۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة]، وقد تكون الإمامة في الشّرّ، كهذه الّتي نتحدّث عنها عن فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾،

فهم أُسْوة سيّئة وقدوة للشّرّ، وقد جاء في الحديث الشّريف عن سيّدنا رسول الله ﷺ أنّه قال: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[1]، ويقول ﷻ في أصحاب القُدوة السّيّئة: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النّحل: من الآية ٢٥]، فكان فرعون وملؤه أسوة في الشّرّ، وأسوة في الضّلال والإرهاب والجبروت، وكذلك سيكونون في الآخرة أئمّة وقادة، لكن إلى النّار.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾: هذا قانون إلهيّ.

(الآية ٤٢) - ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ۝٤٢﴾:

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ﴾: يعني: جعلنا من خلفهم.

﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ﴾: فكلّ مَنْ ذكرهم في الدّنيا يقول: لعنهم الله، فعليهم لعنة دائمة باقية ما بقيتْ الدّنيا، وهذا اللّعْن والطّرد من رحمة الله ليس فقط جزاء أعمالهم، إنّما هو مقدّمة لعذاب بَاقٍ وخالد في الآخرة، كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطّور: من الآية ٤٧].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: مادّة: قبح، تقول للشّرير: قبّحك

---

(١) صحيح مسلم: كتاب العِلْمِ، بَابُ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً وَمَنْ دعا إلى هُدىً أو ضلالةٍ، الحديث رقم (١٠١٧).

الله؛ أي: طردك وأبعدك عن الخير، ولها استعمال آخر: تقول: قَبَحْتُ الدُّمّل؛ أي: فتحته ونكأته قبل نُضْجه فيخرج منه الدّم مع الصّديد ويشوّه مكانه، ويكون المعنى: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾؛ أي: الّذين تشوَّهَتْ وجوههم بعد نعومة الجلد ونضارته، وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذا التّشويه بصور مختلفة.

(الآية ٤٣) - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾: قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، يعني: أنّ موسى عليه السلام جاء بَرْزخاً وواسطة بين رسل كذَّبتهم أممهم، فأخذهم الله عزّ وجلّ بالعذاب، ولم يُقَاتل الرّسل قبل موسى عليه السلام، إنّما كان الرّسول منهم يُبلِّغ الرّسالة ويُظهر الحجّة، وكانوا هم يقترحون الآيات، فإنْ أجابهم الله سبحانه وتعالى وكذَّبوا أوقع الله عزّ وجلّ بهم العذاب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]، وهذا كلّه عذاب استئصال، لا يُبقي من المكذّبين أحداً، ثمّ جاء موسى عليه السلام برزخاً بين عذاب الاستئصال من الله سبحانه وتعالى للمكذِّبين دون تدخُّل من الرّسل في مسألة العذاب، وبين رسالة محمّد صلى الله عليه وسلم، حيث أمره الله سبحانه وتعالى بقتال الكفّار والمكذّبين دون أن ينزل بهم عذاب الاستئصال؛ ذلك لأنّ رسالة النّبيّ صلى الله عليه وسلم عامّة في الزّمان وفي المكان إلى أن تقوم السّاعة، وهو صلى الله عليه وسلم مأمون على حياة الخَلْق أجمعين، لذلك يقول سبحانه وتعالى في

مسألة القتال في عهد موسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٦]، إنّما في عهده وعصره: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٦]، وقد ورد أنّ سيدنا رسول الله ﷺ قال: «مَا أَهْلَكَ اللَّهُ قَوْماً، وَلَا قَرْناً، وَلَا أُمَّةً، وَلَا أَهْلَ قَرْيَةٍ مُنْذُ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ غَيْرَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي مُسِخَتْ قِرَدَةً، أَلَمْ تَرَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص]؟»[1]، كأنّ عذاب الاستئصال انتهى بنزول التّوراة، ولم يستثْن من ذلك إلّا قرية واحدة هي أيلة الّتي بين مدين والأردن، والحقّ سبحانه وتعالى يُعطينا أوّل تجربة لمهمّة، وتدخّل الرّسل في قصّة موسى عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: أي: التّوراة.

﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾: أي: آتيناه الكتاب ليكون نوراً يهديهم، وبصيرة ترشدهم، وتُنير قلوبهم.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: هدى إلى طريق الخير، ورحمة تعصم المجتمع من فساد المناهج الباطلة، وتعصمهم أن يكونوا من أهل النّار.

---

(١) المستدرك على الصّحيحين للحاكم: كتاب التّفسير، تفسير سورة القصص، الحديث رقم (٣٥٣٤).

﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾: التّذكّر يعني: أنّه كان لدينا قضيّة، ثمّ نسيناها فاحتجْنا لمن يُذكّرنا بها، فهي ليست جديدة علينا، هذه القضيّة هي الفطرة: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الرّوم: من الآية ٣٠]، لكنّ هذه الفطرة السّليمة تنتابها شهوات النّفس ورغباتها، وتطرأ عليها الغفلة والنّسيان، لذلك يذكِّر الحقّ ﷻ النّاس بما غفلوا عنه من منهج الحقّ، ففي الفطرة السّليمة المركوزة في كلّ نفس مُقوِّمات الإيمان والهداية، لولا غفلة الإنسان.

(الآية ٤٤) - ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾: أي: الجانب الغربيّ من البقعة المباركة من الشّجرة، وهو المكان الّذي كلَّم الله ﷻ فيه موسى عليه السلام وأرسله.

﴿إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾: يعني: أمرناه به أمراً مقطوعاً به، وهو الرّسالة.

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: ولك أنْ تسأل: إذا لم يكُنْ رسول الله ﷺ شاهداً لهذه الأحداث، فمَنْ أخبره بها؟ نقول: أخبره الله ﷻ، فإنْ قال قائل: فربّما أخبره بها شخص آخر، أو قرأها في كتب السّابقين، نقول: لقد شهد له قومه بأنّه أُمّيٌّ، لا يقرأ ولا يكتب، ولم يُعْلَم عنه أنّه جلس في يوم من الأيّام إلى مُعلِّم، كذلك كانوا يعرفون سيرته ﷺ في حياته وسفريّاته ورحلاته، ولم يكُنْ فيها شيء من هذه الأحداث، لذلك لمّا اتّهموا رسول الله ﷺ أنّه جلس إلى مُعَلّم، وقالوا: كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النّحل: من الآية ١٠٣]، ردَّ القرآن الكريم عليهم في

بساطة: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ ١٠٣﴾ [النّحل: من الآية ١٠٣]، فالله ﷻ أرسل لأمّة أمّيّة رسولاً أمّيّاً، ولم تكن الأمّيّة صفة مذمومة عند رسول الله ﷺ، بل هي محمودة؛ لأنّه ﷺ تعلّم من ربّه ﷻ، قال ﷻ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾ [العلق]، والله ﷻ يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النّحل: من الآية ٧٨]، والله ﷻ هو الّذي علّمه، وهذه الأمّيّة عند رسول الله ﷺ شرف له؛ لأنّ قصارى المتعلِّم في أيّ أمّة من الأمم أنْ يأخذ بطرفٍ من العلم من أمثاله من البشر، فيكون مديناً له بهذا العلم، أمَّا رسول الله ﷺ فقد تعلّم من العليم الأعلى، فلم يتأثّر في علمه بأحد، وليس لأحد فضل عليه ولا منّة، لذلك تعجب الدّنيا كلّها من أمّة العرب، هذه الأمّة الأمّيّة المتبدّية الّتي لا يجمعها قانون، كيف سادتْ العالمَ، وغزتْ حضارتهم الدّنيا في نصف قرن من الزّمان، ولو أنّ العرب أمّة حضارة سابقاً لقالوا عن الإسلام: قفزة حضاريّة، كما قالوا في كثير من المواقف، لكن هذه هي الحقيقة الّتي أرادها الله ﷻ أن تكون ناصعة في كلّ زمان ومكان: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدّثّر: من الآية ٣١].

فقوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: حتّى يعلم النّبيّ ﷺ أنّ المعلّم هو الله ﷻ، وهو الّذي أخبر.

(الآية ٤٥) - ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٤٥﴾:

أهل مدين هم قوم شعيب عليه السلام، وكان لهم شُغُل بالقراءة، لذلك قال تعالى لنبيّه محمّد ﷺ:

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾: أي: مقيماً.

﴿فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾: أي: تلاوة المتعلّم كما يتلو التّلميذ على أستاذه ليُصحِّح له.

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾: أي: أنّ الرّسالات كلّها منّا: مَنْ كان يقرأ، ومن كان أمّيّاً.

(الآية ٤٦) - ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾: أي: نادينا موسى عليه السلام.

﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾: أي: أنّك يا محمّد ما شهدت هذه الأحداث، إنّما جاءتْك بالفضل من الله سبحانه وتعالى.

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتذكَّرون ما غفلوا عنه من الفطرة السّليمة الّتي فطر الله سبحانه وتعالى النّاس عليها.

وكلمة: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ في مواضع عدّة في القرآن الكريم تدلّ على أنّ رسول الله ﷺ جاء بأخبار لم يقرأها في كتاب، ولم يسمعها من مُعلِّم؛ لأنّه لا يقرأ، ولم يُعرف عنه أنّه جلس إلى مُعلِّم، وأهل الكتاب هم الّذين يعرفون صدْق هذه الأخبار؛ لأنّها ذُكِرت في كتبهم، لذلك قال القرآن الكريم عنهم: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۘ﴾ [الأنعام: من الآية ٢٠]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى]، ومن علامات النّبوّة أن يخرق الحقّ سبحانه لنبيّه ﷺ حُجُب الغيب، والشّيء يغيب عنّا إمّا لأنّه ماضٍ، ولا

وسيلةَ لنا إليه، وهذا هو حجاب الزّمن الماضي، وهو لا يُعرف إلّا بواسطة القراءة في كتاب أو التّعلّم من مُعلِّم، وقد نفى الله ﷻ هذا بالنّسبة إلى رسوله ﷺ، وإمّا أن يكون الحجابُ حجابَ الزّمن المستقبل والأحداث الّتي لم تأْتِ بعْد، ولا يستطيع أن يخبرك بها إلّا الّذي يعلمها أزَلاً، لذلك يقول تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى]، فكان النّجم من القرآن الكريم ينزل على رسول الله ﷺ، فلمّا يُسرّى عنه يُمليه على أصحابه، كلّ آية في مكانها وترتيبها من السّورة، ثمّ يقرؤها بعد ذلك كما أُنزلت، وكما أملاها، وهذه الآيات الّتي مرّت معنا: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، هي حجج وبراهين وأدلّة على صدق رسولنا ﷺ ببلاغه عن الله ﷻ، فأرح نفسك يا محمّد ولا تخشَ من شيء، فقد كشفنا لك حجب التّاريخ وحجب الماضي، كما كشفنا لك بعض حجب المستقبل.

(الآية ٤٧) - ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾:

المعنى: لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدَّمَتْ أيديهم لَعذَّبناهم فاحتجّوا قائلين: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فلو عذَّبهم الله ﷻ دون أن يرسل إليهم رسولاً لكانت حجّة لهم، وسبق أنْ قُلْنا: إنّه لا عقوبة إلّا بتجريم، ولا تجريم إلّا بنصٍّ ولا نصَّ إلّا بإعلام، لذلك تُنشر الأحكام في الوقائع الرّسميّة ليعرفها الجميع، فتلزمهم الحجّة، ولا يُعْذَر أحد

بالجهل بالقانون، ولا يُعفى من العقاب، فقطع الله ﷻ عليهم الحجّة، حين بعث إليهم رسول الله ﷺ بمنهج الحقّ الّذي يدلّهم على الخير والثّواب عليه في الجنّة، ويحذّرهم من الشّرّ والعقاب عليه في النّار، قال ﷻ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النّساء: من الآية ١٦٥].

﴿وَلَوْلَا﴾: تأتي بأحد معنيين: إنْ دخلتْ على الجملة الاسميّة فهي حرف امتناع لوجود، كما لو قلت: لولا زيد عندك لَزرتُكَ، فامتنعتْ الزّيارة لوجود زيد، ومن هذه قوله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾، والتّقدير: لولا إصابتهم، فإنْ دخلتْ لولا على الجملة الفعليّة أفادتْ الحثَّ والحضَّ، كما تقول لولدك: لولا ذاكرتَ دروسك، وكذلك لولا الثّانية في الآية: ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(الآية ٤٨) - ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾: أي: الرّسول الّذي طلبوه.

﴿قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾: سبحان الله، لقد طلبتم مجرّد الرّسول ولم تطلبوا معه معجزة معيّنة فقلتم: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [القصص: من الآية ٤٧]، فأرسل ﷻ الرّسول، والآن تطلبون آيات حِسّيّة كالّتي أرسل بها موسى عليه السلام من قبل، والمتأمّل يجد أنّ المعجزات قبل النّبيّ محمّد ﷺ كانت آيات حِسّيّة كونيّة، مثل سفينة نوح عليه السلام، وناقة صالح عليه السلام، وعصا موسى عليه السلام،

وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ﷻ بالنّسبة إلى سيّدنا عيسى عليه السلام، وهذه كلّها معجزات حسّيّة تنتهي بانتهاء وقتها، فهي مناسبة للرّسل المحدوديّ الزّمن، والمحدوديّ المكان، أمّا الرّسول الّذي أُرسِلَ للنّاس كافَّة في الزّمان والمكان، فلا تناسبه الآية الحسّيّة الوَقتيّة؛ لأنّها ستكون معجزة لزمانها، وتظلّ العصور فيما بعد بلا معجزة، لذلك جاء الحقّ ﷻ على يد سيّدنا محمّد ﷺ بمعجزة باقية خالدة محفوظة بحِفْظ الله ﷻ إلى يوم القيامة، وهي القرآن الكريم، وهي الّتي تحاكي وتخاطب العقل في أيّ زمان وأيّ مكان، وهذا تكريم للإنسان وعقله، وقلنا: إنّ الرّسل قبل محمّد ﷺ كان الرّسول منهم يأتي بمعجزة تُثبت صِدْق بلاغه عن الله ﷻ، ومعه كتاب يحمل منهجه، فالكتاب غير المعجزة، فسيّدنا موسى عليه السلام معجزته العصا وكتابه التّوراة، وسيّدنا عيسى عليه السلام معجزته إحياء الموتى وشفاء النّاس وكتابه الإنجيل، أمّا النّبيّ محمّد ﷺ فجاءت معجزته هي عَيْن الكتاب والمنهج الّذي أُرسِل به، ليظلّ الدّليل على صِدْقه باقياً مع المنهج الّذي يطالب النّاس به، وإلى أن تقوم السّاعة نظلّ نقول: محمّد رسول الله ﷺ وهذه معجزته وهي عين الكتاب والمنهج الّذي أُرسل به.

ثمّ يردّ الله ﷻ عليهم:

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾: ثمّ يحكي ما قالوه عن معجزة موسى عليه السلام، وعن معجزة محمّد ﷺ:

﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾: قال بعض المفسّرين: أي: أنّ موسى جاء بسحر، ومحمّد جاء بسحر آخر، وقد تَظَاهَرَا علينا: يعني: تعاونا، وهي

مأخوذة من الظّهر، وهو محلُّ الحمل، كأنّك قُلْت: أعطني ظهرك مع ظهري لنحمل الحِمْل معاً، والرّدّ على هذا الاتّهام يسير، فمعجزة موسى عليه السلام وإنْ كانت من جنس السّحر إلّا أنّها ليست سِحْراً، فالسّحر يُخيِّل للنّاس أنّ الحبال حيّة تسعى، أمّا ما فعله موسى عليه السلام فكان قلب العصا إلى حيّة حقيقيّة تسعى وتبتلع سحرهم، لذلك أُلقي السّحرة ساجدين؛ لأنّهم رأوا معجزة ليستْ من جنس ما نبغوا فيه فآمنوا من فورهم، أمّا الّذين قالوا عن سيّدنا محمّد ﷺ: إنّه ساحر، فالرّدُّ عليهم بسيط: فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً كما سحر المؤمنين به؟ ثمّ يؤكّدون كفرهم بكلّ من الرّسولين: موسى ومحمّد: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾.

(الآية ٤٩) - ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٩﴾:

﴿قُلۡ﴾: أي: في الرّدّ عليهم.

﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾: أي: أهدى من التّوراة الّتي جاء بها موسى عليه السلام، وأهدى من القرآن الكريم الّذي جاء به محمّد ﷺ ما دام أنّهما لم يُعجباكم.

﴿أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: يعني: لو جئتمُ به لاتّبعته، وهذا يعني منهجين: منهج حقّ جاء به محمّد، ومنهج باطل يُصرّون عليه، وهذا التّحدّي من سيّدنا رسول الله ﷺ للكفّار يعني أنّه لا يوجد كتاب أهدى ممّا جاء به، لا عند القوم، ولا عند مَنْ سيأتي من بعدهم إلى أن تقوم السّاعة،

فيقول لهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهو يعلم أنّهم غير صادقين؛ لأنّ الله ﷻ جعل محمّداً ﷺ خاتَم الرّسل، فلن يأتي رُسُل بعده، بحيث يأتي الرّسول فتستدركوا عليه فيأتي آخر بكتاب جديد، وأنتم لن تستطيعوا أنْ تأتوا بكتاب من عند أنفسكم فلا يستطيع البشر أن يُقنّنوا؛ لأنّه ينبغي في المقنِّن ويُشترط فيه:

أوّلاً: أن يكون على علم واسع، بحيث لا يُسْتدرَك عليه فيما بعد، وهذه لا تتوفّر في أحد من البشر، بدليل أنّ القوانين الّتي وُضِعت في الماضي لم تَعُدْ صالحة والآن ينادي النّاس كثيراً بتعديلها، حيث طرأتْ عليهم مسائل جديدة غابتْ عن ذِهْن المشرّع الأوّل، فلمّا جدَّتْ هذه المسائل أتعبت البشر بالتّجربة، فَطالبوا بتعديلها.

ثانياً: يشترط في المشرّع ألّا يكون له هوى فيما يُشرّع للنّاس، ونحن نرى الرّأسماليّين والغرب وغيرهم، كُلٌّ يشرّع بما يخدم مذهبه الاقتصاديّ وطريقته في الحياة، لذلك يجب ألّا يُسند التّشريع لأحد من النّاس؛ لأنّه لا يخلو من هوى.

ثالثاً: يُشتَرط فيه ألّا يكون منتفعاً بشيء ممّا يشرّع، وإذا اقتضتْ مسائل الحياة وتنظيماتها أنْ نُقنّن لها، فلا يُقنِّن لنا من البشر إلّا أصحاب العقل النّاضج والفكر المستقيم، والتّاريخ النّاصع، بحيث يتوفّر لهم نُضْج التّقنين.

فإنْ حدثتْ فجوة في التّشريع عاش النّاس بلا قانون، وإلّا فما الّذي قنَّنَ لأوّل مُقنِّن؟ الّذي قنّن لأوّل مُقنِّن هو الّذي خلق أوّل مَن خُلِق.

(الآية ٥٠) - ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ﴾: وهذا يعني أنّ الله ﷻ لم يطاوعهم إلى ما أرادوا، فلم يأْتِهم بكتاب آخر، لكن كيف كان سيأتيهم هذا الكتاب؟ يجيب الحقّ ﷻ على هذا السّؤال بقوله ﷻ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزّخرف: من الآية ٣١]، فالكلام عندهم ليس في الكتاب، إنّما فيمن أُنزِل عليه الكتاب، وهذا معنى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ﴾.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾: يعني لا أضلّ.

﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾: أي: اتّبع هوى نفسه، أمّا إنْ وافق هواه هوى المشرّع، فهذا أمر محمود أوضحه رسول الله ﷺ في الحديث الشّريف: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ**»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: هذه تحلّ الإشكالات كلّها، وفي مواضع أخرى: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [المائدة: من الآية ١٠٨]، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: من الآية ٢٦٤]، وكلّها دلَّتْ على أنّ الله ﷻ لا يصنع عدم الهداية لأحد إلّا بسبق شيء منه، والمراد بالهداية هنا -أي: هداية الإيمان والمعونة- وإلَّا فقد هدى الله ﷻ الجميع هداية الدّلالة والإرشاد فلم يأخذ بها هؤلاء فحُرِموا هداية الإيمان والمعونة.

---

(١) السّنّة لابن أبي عاصم: بَابُ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَوَى الْمَرْءِ تَبَعاً لِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، الحديث رقم (١٥).

(الآية ٥١) - ﴿*وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾:

﴿*وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾: كلمة: ﴿وَصَّلْنَا﴾ تُشعر بأشياء انفصل بعضها عن بعض، ونريد أنْ نُوصِلها، فقوله ﷻ: ﴿*وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: وصَّلنا لهم الرّسالات، فكلّما انقضى عهد رسول وكفر النّاس، أتاهم الله ﷻ برسالة أخرى ليظلَّ الخَلْق مُتّصلِين بهدي الخالق وبمنهجه، أو: أنّ الأمر خاصٌّ برسول الله ﷺ، والمعنى وصَّلنا له الآيات، فكلّما نزل عليه نجم من القرآن الكريم وصَّلنا بنجم آخر حسب الأحداث، لذلك كانت هذه المسألة من الشّبهات الّتي أثارها خصوم رسول الله ﷺ، حين قالوا كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: من الآية ٣٢]، فردَّ عليهم القرآن الكريم ليبيّن لهم حكمة نزوله مُنجَّماً: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: من الآية ٣٢]؛ أي: أنزلناه كذلك مُنجَّماً: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: من الآية ٣٢]، فلو نزل القرآن الكريم جملة واحدة لكان التّثبيت لرسول الله ﷺ مرّة واحدة، وحكمة أخرى في قوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: من الآية ٣٢]، فكلّما نزل قِسْط من القرآن الكريم سَهُلَ عليهم حفظه وترتيبه والعمل به، ثمّ تختم الآية بحكمة أخرى:

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: فكلّما نزل نجمٌ من القرآن الكريم ذكَّرهم بما غفلوا عنه من منهج الله ﷻ.

(الآية ٥٢) - ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

كأنّ الحقّ ﷻ يقول لنبيّه محمّد ﷺ: سأجعل خصومك من أهل الكتاب هم الّذين يشهدون بصِدْقك؛ لأنّهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم،

وما جاء في كتابك ذُكرَ في كتبهم وذكِرت صورتك وأوصافك عندهم، لذلك نجد آيات كثيرة من كتاب الله ﷻ تُعوِّل على أهل الكتاب في معرفة الحقّ الّذي جاء به القرآن الكريم، يقول ﷻ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرّعد]، فهم أيضاً شهداء على صدق رسول الله ﷺ بما عندهم من الكتب السّابقة فاسألوهم، وإلّا، فلماذا أسلم عبد الله بن سلام وغيره من علماء اليهود؟.

(الآية ٥٣) - ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾: هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب إذا يُتْلَى عليهم القرآن الكريم قالوا: آمنّا به، وشَهِدوا له أنّه الحقّ من عند الله ﷻ، فهم كانوا من قبله مسلمين؛ لأنّ الإسلام هو استسلام لأوامر الله ﷻ، فقد آمنوا أوّلاً بكتبهم، وآمنوا كذلك بالقرآن الكريم.

(الآية ٥٤) - ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾: آمنوا به؛ لأنّهم وجدوا نَعْته، ووجدوا العقائد الّتي لا تتغيّر موجودة في هذا القرآن الكريم، والنّبيّ ﷺ أُميٌّ لم يعرف شيئاً من هذا، فأخذوا من أمّيّته دليلاً على صِدْقه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: أي: أهل الكتاب الّذين يؤمنون بالقرآن الكريم وهم خاشعون لله ﷻ، والّذين سبق وصفهم.

﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾: أجر لإيمانهم بكتبهم ورسلهم، وأجر لإيمانهم بمحمّد ﷺ، لذلك جاء في الحديث الشّريف: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَّاهَا، فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا، ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ»[1]، وهؤلاء الّذين آمنوا برسلهم، ثمّ آمنوا برسول الله ﷺ استحقّوا هذه المنزلة، ونالوا هذين الأجرين؛ لأنّهم تعرّضوا للإيذاء ممَّنْ لم يؤمن في الإيمان الأوّل، ثمّ تعرَّضوا للإيذاء في الإيمان الثّاني، فصبروا على الإيذاءين، وهذه هي حيثيّة: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

وهناك القصّة الّتي كان لها مدلول كبير، وهي قصّة الدّرع الّذي أودعه اليهوديّ زيد بن السّمين أمانة عند طعمة بن أبيرق المسلم، وكان الدّرع قد سُرِق من قتادة بن النّعمان، فلمّا افتقده قتادة ذهب يبحث عنه، وكان قد وضعه في كيس من الدّقيق، فتتبّع أثر الدّقيق حتّى ذهب إلى بيت زيد بن السّمين اليهوديّ فاتّهمه بسرقته، وأذاع أمره بين النّاس، فقصَّ اليهوديّ ما كان من أمر طُعْمة بن أبيرق، وأنّه أودع الدّرع عنده على سبيل الأمانة؛ لأنّه يخشى عليه أنْ يُسرق من بيته، وهنا أحبّ المسلمون تبرئة صاحبهم؛ لأنّه حديث عهد بإسلام، وكيف ستكون صورتهم لو شاع بين النّاس أنّ

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب ٧٠، الحديث رقم (١٥٤).

أحدهم يسرق، ومالوا إلى إدانة اليهوديّ، وفعلاً عرضوا وجهة نظرهم هذه على رسول الله ﷺ ليرى فيه حلّاً يُخرجه من هذا المأزق، مع أنّهم لا يستبعدون أنْ يسرق ابن أبيرق، وجلس رسول الله ﷺ يفكّر في هذا الأمر، لكن سرعان ما نزل عليه الوحي، فيقول له: هذه المسألة لا تحتاج إلى تفكير ولا بحث: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النّساء]، فأدانت الآية المسلم ابن أبيرق، ودلَّتْ على أنّ هذه ليست الحادثة الأولى في حقِّه، ووصفتْه بأنّه خوّان؛ أي: كثير الخيانة، وبرَّأتْ اليهوديّ، وصحّحتْ وجهة نظر المسلمين الّذين يخافون من فضيحة المسلم بالسّرقة، وغفلوا عن الأثر السّيّء لو قلبوا الحقائق، وأدانوا اليهوديّ، فالآية وإنْ أدانت المسلم، إلّا أنّها رفعتْ شأن الإسلام في نظر الجميع: كلّ من عاصر هذه القصّة بل وكلّ من قرأ هذه الآية، ولو انحاز رسول الله ﷺ وتعصَّب للمسلم لاهتزّتْ صورة الإسلام في نظر الجميع، ولو حدث هذا ماذا سيكون موقف اليهود الّذين يراودهم الإسلام، وقد أسلموا فعلاً بعد ما حدث؟!

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: هذه أيضاً من خصالهم أن يدفعوا السّيّئة بالحسنة، فمن صفاتهم العفو والصّفح، كما قال ﷻ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشّورى].

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾: النّفقة الواجبة على نفسه وعلى آله، والنّفقة الواجبة للفقراء وهي الزكاة، ثمّ نفقة المروءات للمساكين وأهل الخصاصة.

(الآية ٥٥) - ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾:

هذه صفة أخرى من صفات المؤمنين:

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾: واللّغو: هو الكلام الّذي لا فائدة منه، فلا ينفعك إنْ سمعتَه، ولا يضرّك عدم سماعه، وينبغي على العاقل أنْ يتركه، فهو حقيق أنْ يُترك وأنْ يُلْغى، ولذلك كان من صفات عباد الرّحمن: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ [الفرقان: من الآية ٧٢]؛ أي: لا يلتفتون إليه.

وسبب نزول هذه الآية: لمّا استقبل رسول الله ﷺ رُسُل النّجاشيّ وكانوا جماعة من القساوسة، فلمّا جلسوا أسمعهم سورة يس، فتأثّروا بها حتّى بكَوْا جميعاً، ثمّ آمنوا برسول الله ﷺ، ولمّا انصرفوا تعرَّض لهم أبو جهل ونهرهم وقال: خيَّبكم الله من رَكْب، أرسلكم مَن خلفي -يعني: النّجاشيّ- لتعلموا له أخبار الرّجل، فسمعتموه فبكيتُم وأسلمتُم، والله ما رأينا رَكْباً أحمق منكم، فما كان منهم إلّا أنْ أعرضوا عنه، هذا معنى قول الحقّ ﷻ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾، وهؤلاء مرُّوا باللّغو مرورَ الكرام، وأعرضوا عنه، فلم يلتفتوا إليه، وزادوا على ذلك أنّهم لم يسكتوا على اللّغو، إنّما قالوا: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، لنا أعمالنا الخيِّرة الّتي يجب أنْ نُقبل عليها، ولكم أعمالكم الباطلة الّتي ينبغي أنْ تُترك، فكلٌّ مِنَّا له شَأْن يشغله.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾: والسّلام إمّا سلام تحيّة كما هو شائع بيننا، وإمّا سلام للمتاركة كما لو دخلتَ مع صاحبك في جدل، فلمّا رأيتَ أنّه

سيطول وربّما تعدَّيْتَ عليه، فتقول له تاركاً: سلام عليكم، وتعني: ليس لديَّ ما أقوله لمفارقتك إلّا هذه الكلمة، ومن ذلك ما دار بين سيّدنا إبراهيم الخليل -عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسّلام- وبين عمّه، فبعد أنْ ناقشه ولم يَصل معه إلى نتيجة قال له: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ﴾ [مريم: من الآية ٤٧].

(الآية ٥٦) - ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: هذا خطاب لسيّدنا رسول الله ﷺ، لكن يجب أن نقف عند معنى الهداية؛ لأنّه يثير بعض الإشكالات، يقولون: إن كان الله يهدي من يشاء، فما ذنبي أنا إن لم أكن من المهتدين؟ الجواب: الهداية -كما ذكرنا سابقاً- تأتي بأحد المعنيين في القرآن الكريم، هداية الدّلالة والإرشاد العامّ، وهذه للنّاس كلّهم، وبمعنى المعونة لمن يؤمن بالدّلالة، لذلك يقول ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمّد]، فالّذين اهتدوا بالدّلالة زادهم هدى بالمعونة، سمعوا الهداية وأطاعوها فزادهم الله ﷻ هداية أخرى هي هداية الإيمان والمعونة، قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصّلت]؛ أي: دللناهم، هديناهم هداية دلالة، فعندما استحبّوا العمى على الهدى حُرِموا هداية المعونة، وهنا، الهداية المنفيّة عن سيّدنا رسول الله ﷺ بقوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، هداية المعونة والتّوفيق، لكنّه يهدي النّاس جميعاً، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢]؛ أي: هداية الدّلالة، يدلّ

الجميع على الطّريق المستقيم، لكنّه لا يدخل إلى قلب الجميع ليختاروا الإيمان؛ لأنّ الإيمان اختيار، هداية الدّلالة صدرت أوّلاً عن الله ﷻ، ثمّ بالبلاغ عن سيّدنا رسول الله ﷺ ثانياً.

(الآية ٥٧) - ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾: هذه المقولة قالها الحارث ابن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، فقد ذهب إلى سيّدنا رسول الله ﷺ، وقال: إنّنا نعلم أنّك جئتَ بالحقّ، ولكن نخاف إنْ آمنّا بك واتّبعنا هواك أنْ نُتخطّف من أرضنا، ولا بُدَّ أنّه كان يتكلّم بلسان قومه الّذين ائتمروا على هذا القول. والخطْف: هو الأخْذ بشدّة وسرعة، فهم يُقرُّون للرّسول ﷺ بأنّه جاء بالحقّ، وأنّه على الهدى، لكن علّة امتناعهم أنْ يُتخطَّفوا، وكان عليهم أنْ يقارنوا بعقولهم بين أن يكونوا مع رسول الله ﷺ على الحقّ وعلى الهدى ويُتخطَّفوا وبين أنْ يظلُّوا على كفرهم، فقصارى ما يُصيبهم إنْ اتّبعوا رسول الله ﷺ أن يتخطّفهم النّاس في أموالهم أو في أنفسهم -على فرض أنّ هذا صحيح- قصارى ما يُصيبهم خسارة عَرَض فانٍ من الدّنيا لو استمرّ لهم لتمتّعوا به مدّة بقائهم فيها، وهذا الخير الّذي سيفوتهم من الدّنيا محدود على مقتضى قوّة البشر، ولا يضير هذا إنْ كان الإنسان من أهل الآخرة، حيث سيذهب إلى خير بَاقٍ دائم، خير يناسب قدرة المنعم ﷻ، أمّا إنْ ظلُّوا على

كفرهم، فمتاع قليل في الدّنيا الفانية، ولا نصيبَ لهم في الآخرة الباقية، فأيُّ الطّريق أهدى؟ إنّ المقارنة العقليّة ترجّح طريق الهدى واتّباع الحقّ الّذي جاء به رسول الله ﷺ، هذه واحدة، أمّا الثّانية فمَنْ قال إنّكم إن اتّبعتم الهدى مع رسول الله ﷺ تُتخطَّفوا وتُضطهدوا؟ لذلك يردّ الله ﷻ عليهم: قُلْ لهم يا محمّد: كذبتم، فلن يتخطّفكم أحد بسبب إسلامكم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾، فقد أنعم الله ﷻ عليكم وأنتم مشركون به، تعبدون الأصنام في جاهليّة، ومكَّن لكم حياة آمنة في رحاب بيته الحرام، ووفّر لكم رَغَد العيش وأنتم بوادٍ غير ذي زرع حيث يُجْبى إليه الثّمرات من كلّ مكان، فالّذي صنع معكم هذا الصّنيع أيترككم ويتخلّى عنكم بعد أنْ تؤمنوا به، وتهتدوا إلى الحقّ؟ كيف يكون منكم هذا القياس؟

﴿أَوَلَمْ﴾: استفهام للتّقرير.

﴿نُمَكِّن لَّهُمْ﴾: نجعلهم مكينين فيه، كما في قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: من الآية ٢١]، والتّمكين يدلّ على الثّبات؛ لأنّ ظرف المكان ثابت على خلاف ظرف الزّمان.

﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾: مع أنّ الأمن لمن في المكان، لكن أراد ﷻ أن يُؤمِّن المكان نفسه، فيكون كلّ ما فيه آمناً، حتّى القاتل لا يُقتصّ منه في الحرم، والحيوان لا يُثار فيه ولا يُصَاد، والنّبات لا يُعضد، حتّى الحجر في هذا المكان آمن، ألَا تراهم يرجمون حجراً في رمي الجمرات، في حين يُكرِّمون الحجر الأسود ويُقبّلونه، وحينما نتأمّل الحرم منذ أيّام الخليل إبراهيم عليه السلام

نجد أنّ له خطّة، وأنّ الحقّ ﷻ يُعدُّه ليكون حرماً آمناً، فلمّا جاءه إبراهيم عليه السلام قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٧]، ونلحظ أنّ إبراهيم عليه السلام دعا بالأمن للحرم مرّتين: مرّة في قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: من الآية ١٢٦]، ثمّ مرّة أخرى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٥]، بعد أن أصبحتْ مكّة بلداً آمناً يطلب لها مزيداً من الأمن، وقد وقف بعضهم عند قوله ﷻ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: من الآية ٩٧]، وقالوا: أين هذا الأمن، وقد حدث في الحرم الاعتداء والقتل وترويع الآمنين، كما حدث في أيّام القرامطة لـمّا دخلوا الحرم، وقتلوا النّاس فيه، وأخذوا الحجر؟ الجواب: هذه الآية: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: من الآية ٩٧]، جملة خبريّة غرضها الأمر والحثّ، كأنّه ﷻ قال: أمّنوا من دخل الحرم، وهذه ليست قضيّة كونيّة، إنّما قضيّة شرعيّة، وفرْق بين القضيّتين: الكونيّة لا بُدَّ أن تحدث، أمّا الشّرعيّة فأمر ينفّذه بعض النّاس، ويخرج عليه بعضهم، فمَنْ أطاع الأمر الشّرعيّ لله ﷻ وأراد أنْ يجعل أمر الله ﷻ صادقاً يُؤمّن أهل الحرم، ومَنْ أراد أنْ يكذِّب ربّه يهيّج النّاس ويروّعهم فيه، ومن الآيات الّتي كثيراً ما يُسأل عنها في هذا الصّدد قوله ﷻ: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النّور: من الآية ٢٦]، يقولون: كثيراً ما يتزوّج خبيث من طيّبة، أو طيّبة من خبيث، فالواقع لا يتّفق مع الآية، نقول أيضاً هنا: هذه قضيّة شرعيّة تحمل أمراً قد يُطاع وقد يُعْصَى، وليست قضيّة كونيّة لا بُدَّ أنْ تحدث، فالقضيّة الكونيّة تحدث كما أخبر الله ﷻ عنها، أمّا القضيّة الشّرعيّة فهو يكلّفك

أنت، فالمعنى في الآية: إن زوجّتُم فزوِّجوا الخبيث للخبيثة، والطّيّب للطّيّبة؛ ليتحقّق التّكافؤ بين الزّوجين ويحدث بينهما الوفاق، حتّى إنْ عيَّر الخبيث زوجته كانت مثله تستطيع أنْ تردّ عليه، لا بُدَّ من وجود التّكافؤ حتّى في القباحة، وإلّا فكيف تفعل الطّيّبة مع الخبيث، أو الخبيث مع الطّيّبة؟ فالآية وأمثالها قضيّة شرعيّة في صيغة الخبر، وإنْ كانت تعني الأمر، كما تقول عن الميّت: رحمه الله، بصيغة الماضي، وأنت لا تدري رحمه الله، أو لم يرحمه، فلا بُدَّ أنّ المعنى دعاء: فليرحمه الله، قلتها أنت بصيغة الماضي، رجاء أن تكون له الرّحمة.

نعود إلى قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾، ونلحظ هذا التّمكين وهذا الأمن من قصّة الفيل، حيث جاء أبرهة ليهدم الكعبة، ويتقدّم الجيش فيل ضخم، فلمّا قالوا في أُذُنه: ابرُكْ فإنّك ببلد الله الحرام، برك الفيل، ثمّ جاءت معركة الطّير الأبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، هذا كلّه من الأمن الّذي جعله الله ﷻ لقريش سكّان حرمه، لتظلّ الكعبة مسكونة بهم، وما داموا هم سكّان الحرم والنّاس تأتيهم من كلّ الأنحاء للحجّ كلّ عام، فسوف يظلّ لهم الأمن بين القبائل، ولا يجرؤ أحد على الاعتداء عليهم، أو التّعرُّض لقوافلهم في رحلة الشّتاء والصّيف، وأيُّ أمن، وأيُّ مهابة بعد هذا؟ ومع الحجيج يُجلب الطّعام وتُجلب الأرزاق، وصدق الله العظيم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾ [قريش]، وكيف بعد هذا الأمن والأمان يخاف مَنْ يؤمن بمحمّد ﷺ أنْ يُتخطَّف من أرضه؟ إنّها مقولة لا مدلولَ لها.

(الآية ٥٨) - ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾: كم هنا خبريّة تُفيد الكثرة، كأنّك تركتَ الجواب ليدلّ بنفسه على الكثرة، كما تقول لمن ينكر جميلك، ولا تريد أنْ تُعدّد أياديك عليه: كم أحسنتُ إليك.

﴿مِن قَرْيَةٍ﴾: مِن: للعموم؛ أي: من بداية ما يُقال له: قرية؛ أي: تجمّع سكنيّ.

﴿بَطِرَتْ﴾: البطر: أن تنسى شُكْر المُنعِم على نِعمه، تتقلَّب في نِعمه، وتكون جاحداً بها، أو يكون البطر باستخدام النّعمة في معصية المنعم ﷻ، ومن البطر أن يتعالى المرء على النّعمة، أو يستقلّها ويراها أقلّ من مستواه، كما نقول في العامّيّة: أنت تتبطّر على نعمة ربّنا؟ فمن البطر أنْ تتجبَّر، أو تتكبّر، أو تتعالى على نعمة الله ﷻ، فلا ترضى بها، وتطلب أعلى منها.

﴿مَعِيشَتَهَا﴾: أي: أسباب معيشتها.

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾: فما داموا قد بطروا نعمة الله ﷻ فلا بُدَّ أن يسلبها من أيديهم، وإنْ سُلبتْ نِعم الله ﷻ من بلد هلكوا، أو رحلوا عنها.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: هم الّذين يُقيمون بعد هلاك ديارهم.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: نرثهم؛ لأنّهم لم يتركوا مَنْ يرثهم، وإذا تُرِك مكان بلا خليفة يرثه آل ميراثه إلى الله ﷻ، وفي آية أخرى يُعالج الحقّ ﷻ هذه

القضيّة بصورة أوسع، يقول ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النّحل: من الآية ١١٢]، ومعنى الكفر بالله: سَتْر وجود الله ﷻ، والسَّتْر يقتضي مستوراً، فكأنّ الأصل أنّ الله ﷻ موجود، لكنّ الكافر يستر هذا الوجود، وهكذا يكون الكفر نفسه دليلاً على الإيمان، فالإيمان هو الأصل والكفر طارئ عليه، ففي قوله ﷻ: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: من الآية ١١٢]، دليل على وجود النّعم، ومع ذلك كفروا بها؛ أي: ستروها، إمّا بعدم البحث في أسبابها، والتّكاسل عن استخراجها، أو ستروها عن المستحقّ لها وضنُّوا بها على العاجز الّذي لا يستطيع الكسب، لذلك يسلبهم الله ﷻ هذه النّعم ويحرمهم منها مع قدرتهم.

ثمّ يذكر العقاب على الكفر بنعمة الله ﷻ: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النّحل: من الآية ١١٢]، والجوع له مظهران: أنْ تطلبه البطن في أوّل الأمر، فإنْ زاد الجوع ضعُفَتْ الجوارح، وتألّمتْ الأعضاء كلّها، وذاقتْ ألم الجوع، والله ﷻ يريد أنْ يُرينا إحاطة هذا الألم، فشبَّهه باللّباس الّذي يُحيط بالجسم كلّه، ويلفّه من كلّ نواحيه، وهذه سُنَّة الله ﷻ في القُرى الظّالمة، كما قال ﷻ:

(الآية ٥٩) - ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾: فلا بُدَّ أن نُعْلِم بالمنهج، ويأتي رسول يقول: افعل كذا، ولا تفعل كذا، حتّى إذا حَلَّ العذاب

بالكافرين يكون بالعدْل، وبعد إلزامهم الحجّة، لا أنْ نترك النّاس يذنبون، ثمّ نقول لهم: هذا حرام.

والقرية هي تجمّع سكنيّ، وهي في القرآن الكريم المدينة، المكان الّذي تسكنه الأُسَر في الحَضَر، وأمّ القرى هي العاصمة، وقد نزل القرآن الكريم في أمّة مُتبدّية، تعيش على التّرحال، وتُقيم في الخيام تتنقّل بها بين منابت الكلأ، فقالوا: أمّ القرى للمكان الّذي توجد به القرى، وتتوفّر فيه من مقوّمات الحياة مَا لا يوجد في القرى الصّغيرة.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَآ﴾: الآيات الّتي تحمل الحجّة والبرهان والدّليل للإيمان.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾: لا يأتي الإهلاك إلّا بعد ظلم، عندما يظلم الإنسان نفسه ويظلم غيره، وأوّل ظلم للنّفس أنّك لا تؤمن بالإله ﷻ، وأنّك قدّمت لها شهوات عاجلة، وحرمتها من نعيم مقيم وهو الآخرة.

(الآية ٦٠) - ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾: من أيّ شيء من مُقوّمات الحياة وكماليّاتها.

﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ﴾: فمهما بلغ هذا من السُّموّ، فإنّه متاع عمره قليل، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النّساء: من الآية ٧٧]، لذلك طلب الله ﷻ منّا ألَّا ننشغل بهذا المتاع، وألَّا نجعله غايةً؛ لأنّ بقاءنا فيها مظنون، ومتاعنا فيها على قَدْر نشاطنا وحركتنا، وسبق أنْ قلنا: إنّ آفة النّعيم في

الدّنيا أنّه إمّا أن يتركك أو تتركه، وأنّ عمرك في الدّنيا ليس هو عمر الدّنيا، إنّما مدّة بقائك أنت فيها، ومهما بلغتَ من الدّنيا فلا بُدَّ من الموت، لذلك يدلُّنا ربّنا تبارك وتعالى على حياة أخرى باقية مُتيقَّنة لا يفارقنا نعيمها ولا نفارقه.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾: لأنّ النّعيم فيها ليس على قَدْر نشاطنا، إنّما على قَدْر عطاء ربّنا وكرمه ﷻ.

﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾: لأنّه دائم لا ينقطع، فلو قارن العاقل بين متاع الدّنيا ومتاع الآخرة لاختار الآخرة، لذلك، فإنّ الصّحابيّ الّذي حدَّثه رسول الله ﷺ عن أجر الشّهيد، وتيقَّن أنّه ليس بينه وبين الجنّة إلّا أنْ يُقتل في سبيل الله ﷻ، وكان في يده تمرات يأكلها ألقاها، ورأى أنّ مدّة شغله بمضغها طويلة؛ لأنّها تحول بينه وبين هذه الغاية، ألقاها وأسرع إلى الجهاد لينال الشّهادة، لماذا؟ لأنّه أجرى مقارنة بين متاع الدّنيا ومتاع الآخرة، والحقّ ﷻ حين يُجري هذه المقارنة بين الكفّار وبين المؤمنين يقول: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ [التّوبة: من الآية ٥٢]، إمّا أن ننتصر عليكم، وإمّا ننال الشّهادة فنذهب إلى خير ممّا تركنا، ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ [التّوبة: من الآية ٥٢]، وإنّه لجهاد نصر أو استشهاد، وفي موضع آخر قال ﷻ: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى]، لذلك ذيَّل الآية هنا بقوله ﷻ: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: لأنّ العقل لو قارن بين الدّنيا والآخرة لا بُدَّ أنْ يختار الآخرة.

(الآية ٦١) - ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾:

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾: تُعَدّ هذه الآية شرحاً وتأكيداً لما قبلها، والوعد: بشارة بخير، وإذا بشَّرك مُساوٍ لك بخير أتى خيره على قدر إمكاناته، وربّما حالت الأسباب دون الوفاء بوعده، فإنْ كان الوعد من الله ﷻ جاء الوفاء على قدر إمكاناته ﷻ في العطاء، ثمّ إنَّ وعده ﷻ لا يتخلّف، قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: من الآية ١١١]، لذلك قال ﷻ: ﴿وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾؛ أي: حتماً.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾: أي: للعذاب، وهذه الكلمة: ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ لا تُستعمل في القرآن الكريم إلّا للعذاب، وربّما الّذي وضع كلمة: (مُحضر) قصد هذا المعنى؛ لأنّ المُحضَر لا يأتي أبداً بخير، ويقول ﷻ في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصّافّات: من الآية ١٥٨]، وقال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصّافّات]، ثمّ يقول ﷻ مُؤكِّداً هذا الإحضار يوم القيامة حتّى لا يظنّ الكافر أنّ بإمكانه الهرب:

(الآية ٦٢) - ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

والسّؤال هنا للّذين أشركوا، لا لمن أُشرك بهم.

﴿وَيَوْمَ﴾: منصوبة على الظّرفيّة، لا بُدَّ أن نُقدِّر لها فعلاً يناسبها، فالتّقدير: واذكر يوم يناديهم، والأمر لرسول الله ﷺ، لكن لمن يذكره رسول

الله ﷺ؟ يذكره للكافرين بهذا اليوم يوم القيامة، والآية تعطينا لقطة من لقطات هذا اليوم الّذي هو يوم الواقعة الّتي لا واقعةَ بعدها، ويوم الحاقَّة؛ أي: الثّابتة الّتي لا تَزَحْزُحَ عنها، ويوم الصَّاخّة؛ أي: الّتي تصخّ الآذان الّتي انصرفتْ عنها في الدّنيا، ويوم الطّامّة الّتي تطمُّ، ويوم الدّين؛ أي: الّذي ينفع فيه الدّين.

والحقّ ﷻ يذكر هذه اللّقطة لأمرين: الأوّل: أنّ رسول الله ﷺ عُودِي وأُوذِي وهزِيء به وسُخِر منه، واجتمعت عليه كلّ وسائل النّكال من خصومة فبيَّتوا له بمكر، وصنعوا له سحراً.. إلخ، وحين نجد دعوة تُقابل بهذه الشّراسة، فلنعلم أنّها ما قُوبلت هذه المقابلة إلّا لأنّها ستهدم فساداً ينتفع به قوم ترهبهم كلمة الإصلاح؛ لأنّها تُصيبهم في مصالحهم وفي شهواتهم وفي جاههم وعنجهيّتهم وطغيانهم، فطبيعيّ أن يقفوا في وجهها، فالحقّ ﷻ يأمر رسوله ﷺ أنْ يذكر ذلك اليوم، يذكره لنفسه، ويذكره لقومه ليعتبروا، فربّما إذا سمعوا ما في هذا اليوم من القسوة والخزي والنّكال ربّما راجعوا أنفسهم فتابوا إلى الله ﷻ.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾: وقد ناداهم في الدّنيا: يا أيّها النّاس، يا بني آدم، فصمُّوا آذانهم، وأعرضوا عن نداء الله ﷻ، واليوم يناديهم نداءً لا يملكون أنْ يصمُّوا آذانهم عنه؛ لأنّه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: من الآية ١٦]، فكأنّ الحقّ ﷻ يُذكِّرهم بهذا اليوم، لعلّهم يرجعون، الأمر الثّاني: أنّ الآية جاءت تسلية لسيّدنا رسول الله ﷺ، يقول له ربّه: لا تيأس ممّا يصنعون معك، ولا يحزنك كيدهم وعنادهم؛ لأنّني سأصنع بهم كذا وكذا، ومضمون

النّداء: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، فلم يقُلْ: شركائي، ويسكت، إنّما وصفهم: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ لأنّه ﷻ واحد لا شريك له، وهؤلاء شركاء في زعمهم فقط، والزّعم كما يقولون: مطيّة الكذب، لذلك لن يجدوا جواباً لهذا السّؤال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، ولو كان أمامهم شركاء، لقالوا: ها هم الّذين أضلُّونا، فأذِقْهم يا ربّ العذاب ضِعْفين، لكنّهم لم يجيبوا، فهذا دليل على أنّهم غَير موجودين، لقد وقفوا حائرين، لا يدرون جواباً، كما قال جلّ وعلا: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ [القصص: من الآية ٦٦].

(الآية ٦٣) - ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

والكلام هنا للشّركاء الّذين أضلّوا المشركين وأغوَوْهم.

﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ﴾: أي: ثبت ووقع، فهو أمر لا محالة منه، ولم يعد هناك مجال لزحزحته عنهم، كما قال ﷻ في موضع آخر: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الصّافّات]، وقال الحقّ ﷻ: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النّمل]، لكن، ما هو القول الّذي وقع وثبت لهم وحَقَّ عليهم؟ القول: أنّ كلَّ واحد له مكان عندي في الجنّة على فَرْض أنّكم جميعاً آمنتم، وكلّ واحد له مكان في النّار على فَرْض أنّكم جميعاً كفرتم، وماذا قالوا؟ قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾: سبحان الله، الآن تقولون: ربّنا، وتعترفون بربوبيّته ﷻ، كما قال ﷻ في شأن فرعون: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس].

ومعنى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾؛ المشركون.

ولنا وقفة مع: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: وهي اسم إشارة للجمع بنوعيه، تقول: هؤلاء الرّجال، وهؤلاء النّساء، وهي عبارة عن: الهاء للتّنبيه، وأولاء اسم إشارة، وكذلك في هذا، هذه، هذان، هاتان، فالهاء فيها للتّنبيه، لتنبّه السّامع أنّك ستتكلّم ليعطيك سمعه، ويهتمّ بما تقول، فلا يفوته من كلامك شيء، هذا حين تخاطب مثلك؛ لأنّه يحتاج إلى تنبيه، أمّا إذا خاطبتَ ربّك ﷻ فمن سوء الأدب أنْ تستخدم في خطابه أداة التّنبيه، كما استخدمها المشركون، فما داموا قد قالوا: ﴿رَبَّنَا﴾، فليس من الأدب أن يقولوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أيُنبِّهون الله ﷻ؟ لذلك نلحظ هذا الأدب في خطاب نبيّ الله موسى عليه السلام فيما حكاه عنه القرآن الكريم: ﴿*وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه]، فقال: ﴿أُوْلَآءِ﴾ دون هاء التّنبيه تأدُّباً مع ربّه ﷻ، ونلحظ أنّنا لا نجد خطاباً من الكفّار إلّا باستخدام هؤلاء: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: من الآية ٣٨]، ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ [النّحل: من الآية ٨٦]، أمّا المؤمن فلا يليق به أبداً أن يُنبّه الله ﷻ، بل ولا تصدر من مؤمن لمؤمن؛ لأنّه دائماً منتبه.

﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا﴾: أي: لنكون سواء، هذه عِلَّة غوايتهم، أن يكونوا في الخُسْران سواء، وإلّا فأهل الباطل يسعون جاهدين للإيقاع بأهل الحقّ ليشاركوهم باطلهم، وليكونوا أمثالهم، وهذه المسألة تُعطينا السّيّال النّفسيّ لكلّ منحرف حين يرى ملتزماً مستقيماً، لا يشاركه فساده وانحرافه، فيعزّ عليه أنْ يكون في الهاوية وحده، ولماذا يمتاز عنه الآخرون؟ لذلك يريد

أن يُغويه، واقرأ قوله ﷻ: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النّساء: من الآية ٨٩]، فنرى أهل الباطل والفساد والفجور يهزؤون من أهل الحقّ ويسخرون منهم، ليُزهّدوهم في الخير والصّلاح، وليغروهم بما هم فيه، حتّى أصبح الإنسان الملتزم بدينه وشرع ربّه لا يسلَم من ألسنتهم، كما يقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطفّفين]، إذن: ﴿أَغْوَيْتَنَا لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: من الآية ١٦]، وبعضهم يفهم قوله ﷻ: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأعراف]، أنّ الله ﷻ أجاب إبليس إلى ما طلب، لكنّ قوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأعراف: من الآية ١٥]، ليست إجابةً، إنّما تقرير لشيء حادث بالفعل قبل أن يطلب، فالمعنى أنّ سؤالك ليس له معنى؛ لأنّك من المنظرين فعلاً، لماذا؟ قالوا: لأنّ الله ﷻ يريد أنْ يظلَّ إبليس الّذي أغوى آدم وأخرجه من الجنّة باقياً أمام ذرّيّته ليُذكّرهم دائماً: هذا الّذي أغوى أباكم آدم.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾: الآن ينكُصون كما قالوا من قبل: ﴿رَبَّنَا﴾، يقولون الآن: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾، لكن هيهات تنفعهم هذه البراءة، لقد انتهى وقتها، ومضى زمن التّكليف والاختيار، والآن وقت الحساب وسَلْب الإرادة والاختيار، وما أشبههم بفرعون حين قال الله ﷻ له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس].

﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾: يقول الشّركاء: ما كان معنا قوّة قهر نحملكم بها على عبادتنا، ولا قوّة سلطان أو حجّة نقنعكم بها، إنّما كنتم في انتظار إشارة منّا، كما قال كبيرهم إبليس: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٢]، هؤلاء المشركون كانوا يعبدون أنفسهم وذواتهم: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾، بل ويعبدون شهواتهم ورغباتهم، وما أسهل أن يعبد الإنسان آلهة لا تُلزِمه بشيء، فيسير في حياته على هواه، وهذه هي الّتي روّجَتْ لعبادة هذه الآلهة، لذلك فإنّ الحقّ ﷻ يريد أنْ يُلزم الإنسان حجّة أنّ نفسه هي الوسيلة الأولى لشهواته، وإلّا فلو أنّ المسألة كلّها وسوسة شيطان، فمَن أغوى إبليس بالعصيان أوّلاً على حَدِّ قَوْل الشّاعر: إبليسُ لـمّا عَصى مَنْ كانَ إِبْليسُهُ؟

فهي كبرياء النّفس ورغباتها، وليس للشّيطان إلّا أنْ يُلوِّح لها فتقع، لذلك جاء في الحديث الشّريف: «**إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ**»[1]، وما دامت الشّياطين

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ بَدْءِ الخَلْقِ، بَابُ صفةِ إبليسَ وجنودِهِ، الحديث رقم (٣٢٧٧).

سُلسلت، فليس لها حركة مع الإنس؛ لأنّ الله ﷻ يعلم منّا أنَّا نُعلِّق كلّ معاصينا على الشّيطان، فكأنّه ﷻ يقول: ها هي الشّياطين صُفِّدت وسُلْسِلت، فمَنْ أغواكم وزيَّن لكم حال سَلْسلتها في رمضان؟ هي نفوسكم الّتي تَوسوس لكم، لذلك نقول: كلّ معصية تقع في رمضان ليس للشّيطان فيها نصيب، إنّما هي شهوة النّفس، وسبق أنْ بيَّنا كيف نُفرِّق بين المعصية متى تكون من الشّيطان؟ ومتى تكون شهوة نفس؟ إنْ كانت المعصية تُوقفك عندها لا تتزحزح عنها إلى غيرها، فاعلم أنّها من نفسك، أمّا إنْ عزَّتْ عليك معصية ففكَّرْتَ في غيرها، فهي من الشّيطان؛ لأنّه والعياذ بالله يريدنا أن نكون عصاة على أيّ وجه وبأيّ طريقة، فينقلنا إلى معصية أخرى، فإن لم يستطع أنْ يُغريك بالخمر يُغريك بالزّنى، وإن لم يستطع بالزّنى أغراك بالسّرقة، على خلاف شهوة النّفس، فهي تريد شيئاً بذاته لا تريد غيره.

(الآية ٦٤) - ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾: وسبق أن ناداهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أي: في زعمكم؛ لأنّه ﷻ ليس له شركاء، وهنا يقول لهم: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾، ولم يقُلْ: شركائي، مع أنّهم اتّخذوهم شركاء لله ﷻ، فمعنى: ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي دعوى الألوهيّة؟ لا؛ لأنّهم تابعون لهم، فما معنى: ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾؟ قالوا: الإضافة تأتي بمعَانٍ ثلاثة: إمّا بمعنى: من مثل: كيلو قمح؛ أي: من قمح، أو بمعنى: في مثل: مكر اللّيل؛ أي: مكر في اللّيل، أو بمعنى: لام الملكيّة، مثل: قلم زيد؛

أي: قلم لزيد، فالمعنى هنا: ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم، أو فيكم، يعني: لا يتميّز عنكم بشيء، والإله لا بُدَّ أن يكون من جنس أعلى، فإنْ كان من جنسكم، فهو مُسَاوٍ لكم، لا يصلح أن تتّخذوه إلهاً.

﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾: يعني: نادوهم لينصروكم، ويشفعوا لكم، كما قلتم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: من الآية ١٨]، وقلتم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزّمر: من الآية ٣].

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾: يا شركاءنا، يا مَنْ قُلْتم لنا كذا وكذا أدركونا.

﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾: لأنّهم مشغولون بأنفسهم.

﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾: يعني: لو كانوا يهتدون بهَدْي الله ﷻ، وهَدْي رسوله ﷺ، ويروْن العذاب الّذي أنذرهم به حقيقة وواقعاً لا يتخلّفون عنه لَمَا حدث لهم هذا، ولما واجهوا هذه العاقبة، أو: أنّهم لمّا رأوا العذاب حقيقة في الآخرة تمنَّوا لو أنّهم كانوا مهتدين.

(الآية ٦٥-٦٦) - ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾: قال هنا أيضاً: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾، فما الغرض من هذه النّداءات كلّها؟ الجواب: إنّها للتّقريع والسّخرية منهم، وممَّنْ عبدوهم واتّبعوهم من دون الله ﷻ.

﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: هذا الاستفهام للتّعجيز؛ لأنّهم إنْ حاولوا الإجابة فلن يجدوا إجابة فيخزون ويخجلون، لذلك يقول بعدها:

﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾: أي: خفِيَتْ عليهم الحجج والأعذار، وعموا عنها فلم يرَوْهَا.

﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: لا يملكون إلّا السّكوت، كما قالوا: جواب ما يكره السّكوت، وكما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠﴾ [المعارج]، وهؤلاء لا يتساءلون؛ لأنّهم في الجهل سواء، وفي الضّلال شركاء، وكلّ منهم مشغول بنفسه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس]، وكما سُئِل المشركون: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، في موضع آخر يسأل الرّسل: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ [المائدة: من الآية ١٠٩]؛ أي: فيما علمتم من العلم، وأوّله: علم اليقين الأعلى، وثانيه: علم الأحكام، فبماذا أجابكم النّاس؟ وتأمّل هنا أدب الرّسل ومدى فهمهم في مقام الجواب لله ﷻ، وهم يعلمون تماماً بماذا أجاب أقوامهم، وأنّ منهم مَنْ آمن بهم، وتفانى في خدمة دعوتهم وضحّى واستشهد، ومنهم مَنْ كفر وعاند، ومع ذلك يقولون: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة: من الآية ١٠٩]، فكيف يقولون: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآۖ﴾ [المائدة: من الآية ١٠٩]، وهم يعلمون؟ قالوا: لأنّهم غير واثقين أنّ مَنْ آمنَ آمن عن عقيدة أم لا، فهم بشر يأخذون بظواهر النّاس، أمّا بواطنهم فلا يعلمها إلّا الله ﷻ، كأنّهم يقولون: أنت يا ربّنا تسأل عن إجابة الحقّ لا عن إجابة النّفاق، وإجابة الحقّ نحن لا نعرفها، وأنت سبحانك علّام الغيوب، فجعلوا الله ﷻ هو السُّلْطة التّشريعيّة، والسّلطة القضائيّة، والسّلطة التّنفيذيّة في محكمة العدل الإلهيّ الّتي سيُعلن فيها على رؤوس الأشهاد: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: من الآية ١٦].

(الآية ٦٧) - ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

لماذا استخدم هنا: (عسى) الدّالّة على الرّجاء بعد أنْ قال: ﴿مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؟ فنحن نعلم أنّ التّوبة هي إقلاع عن الذّنب، والإقرار بالذّنب، والعزم على عدم العودة، والعمل الصّالح، فلماذا قال: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾؟ لماذا لم يقطع لهم بالفلاح؟ قال العلماء: لأنّه ربّما تاب، لكن عسى أن يستمرّ على توبته ليستديم الفلاح، أو قال العلماء: إنّ عسى من الله ﷻ تدلّ على التّحقيق، وسبق أنْ قُلْنا: إنّ الرّجاءات على درجات: فالرّجاء في المتكلّم أقوى من الرّجاء في الغائب، فإنْ كان الرّجاء في الله ﷻ فهو أقوى الرّجاءات كلّها، لذلك يقول ﷻ في خطابه لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: من الآية ٧٩]، فأيُّ رجاء أقوى من الرّجاء في الله ﷻ؟ فـ (عسى) رجاء حين تصدر ممّن لا يملك إنفاذ المرجوّ، وتحقيق ويقين حين تصدر ممَّنْ يملك إنفاذ المرجوّ، وهو الحقّ ﷻ.

(الآية ٦٨) - ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ﴾: كنا ننتظر أنْ يُخبرنا السّياق القرآنيّ بما سيقع على المشركين من العذاب، لكن تأتي الآية: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ﴾، وكأنّ الحقّ ﷻ يقول: أنا الّذي أعرف أين المصلحة، وأعرف كيف أُريحكم من شرّهم، فأخلق ما أشاء، وأختار ما أشاء، فأنا الرّبّ،

والمربَّى قسمان: إمّا مؤمن وإمّا كافر، ولا بُدَّ أنْ يشقى المؤمن بفعل الكافر، وأنْ يمتدّ هذا الشّقاء إنْ بقي الكافر على كفره، لذلك شَرعتُ له التّوبة، وقَبِلْتُ منه الرّجوع، وهذا أوّل ما يريح المؤمنين.

﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾: يعني: لا خيارَ لكم، فدعوني لأختار لكم، ثمّ نفِّذوا ما أختاره أنا، أو: أنّ هذه الآية: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ قيلت للرّدِّ على قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزّخرف: من الآية ٣١]، يقصدون الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثّقفيّ، فردَّ الله ﷻ عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزّخرف: من الآية ٣٢]، فكيف يطمعون في أنْ يختاروا وسائل الرّحمة، ونحن الّذين قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدّنيا، فجعلنا هذا غنيّاً، وهذا فقيراً، وهذا قويّاً، وهذا ضعيفاً؟ فمسائل الدّنيا بيد الله ﷻ، وهو المتحكّم فيها، ومسائل الآخرة أيضاً بيد الله ﷻ، فرحمة الله ﷻ لا يوجّهها إلّا الله تعالى، ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: الاختيار في مثل هذه المسائل، وقال بعض العلماء: يجوز ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: المؤمنون ما كان لهم أنْ يعترضوا على قبول توبة الله ﷻ على المشركين الّذين آذوهم، يقولون: لماذا تقبل منهم التّوبة وقد فعلوا بنا كذا وكذا، وقد كنّا نودّ أن نراهم يتقلّبون في العذاب؟ والحقّ ﷻ يختار ما يشاء، ويفعل ما يريد، وحين يقبل التّوبة من المشرك لا يرحمه وحده، ولكن يرحمكم أنتم أيضاً حين يُريحكم من شرّه.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: تعالى الله وتنزَّه عمّا يريدون من أنْ يُنزِلوا الحقّ ﷻ على مرادات أصحاب الأهواء من البشر، ولو أنّ الحقّ ﷻ

نزل على مرادات أصحاب الأهواء من البشر -وأهواؤهم مختلفة- لفسدتْ حياتهم جميعاً.

(الآية ٦٩) - ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: أي: السّرّ، فهو ﷻ: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: من الآية ٧]، والسّرّ: ما تركتَه في نفسك محبوساً، وأسررْتَه عن الخَلْق لا يعرفه إلّا أنت، أو السّرّ: ما أسررتَ به إلى غيرك، وساعتها لن يبقى سِرّاً، وإذا ضاق صدرك بسرّك، فصدر غيرك أضيق، وإذا كان الله ﷻ يمتنُّ علينا بأنّ علمه واسع يعلم السّرّ، فهو يعلم الجهر من باب أَوْلَى؛ لأنّ الجهر يشترك فيه جميع النّاس ويعرفونه، أمّا الأخفى من السّرّ؛ فلأنّه ﷻ يعلم ما تُسِرّه في نفسك قبل أنْ يوجد في صدرك، وهو وحده الّذي يعلم الأشياء قبل أن توجد، ولك أن تسأل: إذا كان من صفاته ﷻ أنّه يعلم السّرّ وما هو أخفى من السّرّ، فماذا عن الجهر وهو شيء معلوم للجميع؟ وهذه المسألة استوقَفَتْ بعض المستشرقين وأتباعهم من المسلمين الّذين يجارونهم، وحين نستقرئ آيات القرآن الكريم نجد أنّ الله ﷻ سوَّى في علمه ﷻ بين السّرّ والجهر، فقال ﷻ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرّعد: من الآية ١٠]، وقال ﷻ: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ [الملك: من الآية ١٣]، والآية الّتي معنا: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾، وفي هذه الآيات قدّم السّرّ على الجهر، أمّا في قوله ﷻ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الأعلى]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا

﴿تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾ [الأنبياء]، فقدَّم العلم بالجهر على العلم بالسّرِ، ولا يقدّم الجهر إلّا إذا كان له ملحظيّة خفاء عن السّرّ، وهذه الملحظيّة غفل عنها السّطحيّون، فأخطؤوا في فهم الآية، فأنت مثلاً لو أسررتَ في نفسك شيئاً، فربّما ظهر في سقطات لسانك أو على ملامح وجهك، وربّما خانك التّعبير فدلَّ على ما أسررتْه، ألم يقل الحقّ ﷻ: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمّد: من الآية ٣٠]، فهناك قرائن وعلامات نعرف بها السّرّ، أمّا الجهر وهو من الجماعة ليس جهراً واحداً؛ لأنّه مقابل بالجمع: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾ [الأنبياء]، فالمعنى: ويعلم ما تجهرون وما تكتمون، ولك أن تتابع مظاهرة لجمع غفير من النّاس، يهتف كلّ منهم هتافاً، أتستطيع أن تميّز بين هذه الهتافات، وأنْ تُرجع كلّاً منها إلى صاحبها؟ هذا هو اللّغز في الجهر والملحظ الّذي فاتهم تدبُّره، لذلك امتنّ الله ﷻ علينا بعلمه للجهر من القول الّذي لا نعلمه نحن مهما أوتينا من آلات فَرْز الأصوات وتمييزها، لذلك يقولون: لا تستطيع أنْ تُحدِّد جريمة في جمهور من النّاس؛ لأنّ الأصوات والأفعال مختلطة، يستتر كلٌّ منها في الآخر، كما يقولون: الفرد بالجمع يُعْصَم، فَعِلْم الجهر هنا ميْزة تستحقّ أنْ يمتنَّ الله ﷻ بها، كما يمتنُّ ﷻ بعلم السّرّ، وقال ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ﴾؛ ليُطمئن رسول الله ﷺ؛ لأنّه ﷻ ربّه، والمتولّي لتربيته والعناية به، يقول له: لا تحزن ممّا يقولون، فأنا أعلم سِرَّهم وجهرهم، فإنْ كنتَ لا تعرف ما يقولون فأنا أعرفه، وسوف أخبرك به، ألم يقل ﷻ لنبيّه ﷺ: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: من الآية ٨]، فأخبره ربّه ﷻ بما يدور حتّى في النّفوس، كأنّه ﷻ يقول لرسوله ﷺ: إيّاك

أن تظنّ أنّني سأؤاخذهم بما عرفتَ من أفعالهم فحسب، بل بما لا تعلم ممّا فعلوه، ليطمئنّ رسول الله ﷺ أنّه ﷻ يُحصي عليهم كلّ شيء.

وهذه الآيات من قوله ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ﴾ تتعلّق بصفات الله ﷻ، ومعرفته بالسّرّ وأخفى وبالجهر، فتنزّه الله ﷻ عن الشّبيه بالذّات والصّفات والأفعال، وكلّ ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك.

(الآية ٧٠) - ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾: هو المعبود بحقٍّ، وله صفات الكمال كلّها.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾: وما دام هو وحده ﷻ، فلا أحدَ يستدرك عليه بشيء، وسبق أن قال لهم: هاتوا شركاءكم لنفصل في مسألة العبادة علانية؛ أي: يوم القيامة، فقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾، قامت عليها السّموات والأرض، قال ﷻ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمّد: من الآية ١٩]، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ﴾ [آل عمران: من الآية ١٨]، فهي شهادة الذّات للذّات، وبعد ذلك شهادة الملائكة، وبعد ذلك شهادة أولي العلم.

﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ﴾: الأولى؛ أي: الخَلْق الّذي خلقه الله ﷻ، والكون الّذي أعدَّه لاستقبال خليفته في الأرض: الشّمس والقمر والنّجوم والشّجر والجبال والماء والهواء والأرض، فقبل أنْ يأتي الإنسان أعدَّ الله ﷻ الكونَ لاستقباله، لذلك حينما يتكلّم الحقّ ﷻ عن آدم عليه السلام لا يقول: إنّه أوّل

الخَلْق، إنّما أوّل بشر، فقد سبقه في الخلق عوالم كثيرة، لذلك يقول ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان]؛ أي: لم يكن له وجود، وإعداد الكون لاستقبال الإنسان جميل يستوجب الحمد والثّناء، فقد خلق الله ﷻ لنا الكون كلّه، ثمّ جعلنا ننتفع به مع عدم قدرتنا عليه أو وصولنا إليه، فمثلاً الشّمس تخدمنا، ونحن لا نقدر عليها ولا نملكها، وهي تعمل لنا دون صيانة منّا، ودون أن تحتاج قطعة غيار، وكذلك الكون كلّه يسير في خدمة الإنسان وقضاء مصالحه، وهذا كلّه يستحقّ الحمد.

﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾: يعني: له الحمد في القيامة، كما قال ﷻ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: من الآية ١٠]، فيحمد الله ﷻ في الآخرة؛ لأنّه أعطانا ومنحنا ورحمنا ونبّهنا للآخرة، وفي الآخرة يُعطينا على قَدْر إمكاناته ﷻ، فحين نرى هذا النّعيم لا نملك إلّا أنْ نقول: الحمد لله، وهكذا اجتمع لله ﷻ الحمد في الأولى، والحمد في الآخرة.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾: لأنّ الآخرة ما كانت إلّا للحكم والفصل في الخصومات، حيث يعرف كلٌّ منّا ما له وما عليه، فلا تظنّ أنّ الّذين آذوْك وظلموك سيُفلِتون من قبضتنا.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أي: للحساب، وفي قراءة: (تَرْجعون)؛ لأنّهم سيرجعون إلى الله ﷻ ويأتون بأنفسهم، كأنّهم مضبوطون على ذلك، فالنّاس إذا جاء موعدهم جاؤونا من تلقاء أنفسهم، دون أن يسوقهم أحد.

وعلى قراءة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾، إيّاكم أن تظنّوا أنّه بإمكانكم أن تتأبَّوْا على الله ﷻ، كما تأبّيتُم على الرّسل في الدّنيا؛ لأنّ الدّاعي في الدّنيا كان

يأخذكم بالرّفق واللّين، أمّا داعي الآخرة فيجمع النّاس قَسْراً ورَغْماً عنهم، ولا يستطيعون منه فكاكاً، قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطّور].

(الآية ٧١) - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۚ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾:

يُعدِّد المولى ﷻ نعمه على عبيده في شيئين يتعلّقان بحركة الحياة وسكونها، فالحركة تأتي بالخير للنّاس، والسّكون يأتي بالرّاحة للمتعَب من الحركة، والإنسان بطبيعته لا يستطيع أنْ يعطي ويتعب إلّا بعد راحة، ومَن يتحدَّى هذه الطّبيعة فيسهر اللّيل ويعمل بالنّهار لا بُدَّ أنْ ينقطع، وأن تُنهَك قواه فلا يستمرّ، لذلك يقول ﷻ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [اللّيل]، فكلٌّ من اللّيل والنّهار له مهمّة، وكذلك الرّجل والمرأة، فإيّاكم أنْ تخلطوا هذه المهامّ، وإلّا فسدت الحياة وأتعبتكم الأحداث، والله ﷻ في معرض تعداد نعمه علينا يقول:

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: يعني: أخبروني ماذا تفعلون؟

﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: السّرمد: الدّائم المستمرّ، يعني: طوال حياتكم.

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾: قال: ﴿بِضِيَآءٍ﴾، ولم يقل: (بنور)؛ لأنّ النّور قد يأتي من النّجوم، وقد يأتي من القمر، أمّا الضّياء وهو نور وأشعة وحرارة، فلا يأتي إلّا من الشّمس، لذلك يقول ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: من الآية ٥]، وقال هنا: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾، ولم

يقُلْ: (مَنْ يأتيكم بضياء)، ليلفت نظرنا إلى أنّ هذه المسألة لا يقدر عليها إلّا إله، ولا إله إلّا الله، وفي الضّياء تبصرون الأشياء، وتسيرون على هُدىً، فتؤدّون حركات حياتكم دون اصطدام أو اضطراب، وبالضّياء نُعايش الأشياء في سلامة لنا ولها، وإلَّا لو سرْنا في الظّلام لتحطّمنا أو حطّمنا ما حولنا، وكما يكون الضّياء في المادّيّات يكون كذلك له دور في المعنويّات، وضياء المعنويّات القيم الّتي تحكم حركة الحياة وتعدلها، وتحمينا أنْ نحطِّم مَنْ هو أضعف منّا، أو أنْ يُحطّمنا الأقوى منّا، لذلك يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: من الآية ٤٣]، والمراد: من ظلمات المعاني إلى نور القيم، لا ظلمات المادّة، لذلك يقول ﷻ في وصفه لنوره ﷻ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النّور: من الآية ٣٥]، نور مادّيّ تُبصرون به الأشياء من حولكم، فلا تتخبّطون بها، فتسلَم حركتكم، وهذا النّور المادّيّ يشترك فيه المؤمن والكافر، وينتفع به المطيع والعاصي، فلم يضِنّ به على أحد من خَلْقه، أمّا النّور المعنويّ نور الهداية ونور اليقين والقيم، فهذا يرسله الله ﷻ على يدَيْ رسُله، فإذا أخذ المؤمن النّورين انتفع بهما في الدّنيا، وامتدّ نفعه بهما إلى يوم القيامة، لذلك قال بعدها: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ﴾ [النّور: من الآية ٣٥]، ولأنّ الآية الكريمة بدأت بـ: ﴿قُلْ﴾، فمن المناسب أنْ تختم بقوله ﷻ:

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾: يعني: اسمعوا ما أقوله لكم، وتدبّروه.

ثمّ يمتنُّ الله ﷻ بالآية المقابلة للّيل، وهي آية النّهار:

(الآية ٧٢) - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: يعني: دائم لا نهاية له.

﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: نلحظ أنّ هاتين الآيتين على نَسَق واحد، لكن تذيلهما مختلف، ممّا يدلُّ على بلاغة وإعجاز القرآن الكريم، فلكلٍّ معنىً ما يناسبه، ففي آية اللّيل قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وفي آية النّهار قال: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ ذلك لأنّ العين لا عملَ لها في اللّيل إنّما للأُذُن، فأنت تسمع دون أنْ ترى، وبالأُذن يتمُّ الاستدعاء، أمّا في النّهار وفي وجود الضّوء، فالعمل للعين حيث تبصر، فهو ختام حكيم للآيات يضع المعنى فيما يناسبه.

ثمّ يُجمل الله ﷻ هاتين الآيتين في قوله ﷻ:

(الآية ٧٣) - ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

بعد أنْ فصَّل الله ﷻ القولَ في اللّيل والنّهار كلّ على حدة جمعهما؛ لأنّهما معاً مظهر من مظاهر رحمته ﷻ، وفي الآية ملمح بلاغيّ يسمّونه: "اللّفّ والنّشر"، فبعد أن جمع الله ﷻ اللّيل والنّهار، أخبر عنهما بقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، ثقة منه ﷻ بفطْنة السّامع، وأنّه سيردُّ كلّاً منهما إلى ما يناسبه، فاللّيل يقابل: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، والنّهار يقابل:

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فاللّفُّ؛ أي: جَمْع المحكوم عليه معاً في جانب والحكم في جانب آخر، والنّشرْ: ردّ كلِّ حكم إلى صاحبه، واللّيل والنّهار آيتان متكاملتان، وبهما تنتظم حركة الحياة؛ لأنّنا إنْ لم نسترح لن نقوى على العمل؛ لأنّ لنا طاقة، وفي جسمنا مُولِّدات للطّاقة، فساعةَ نتعب نجد أنّ أعضاءنا تراخَتْ وأُجهدَتْ، وهذا إنذار لنا، ولا بُدَّ لنا من الرّاحة لنستعيد نشاطنا من جديد، والرّاحة تكون بقدر التّعب، فربّما ترتاح حين تقف مثلاً في حالة السّير، فإنْ لم يُرِحْك الوقوف تجلس أو تضطجع، فإنْ زاد التّعب غلبك النّوم، وهو الرَّدْع الذّاتيّ الّذي يكبح جماح صاحبه إنْ تمرّد على الطّبيعة الّتي خلقها الله ﷻ فيه، لذلك يقولون: النّوم ضيف إنْ طلبك أراحك، وإنْ طلبته أعْنتَك، وحتّى الآن، ومع تقدُّم العلوم لم يصلوا إلى سرِّ النّوم، وكيف يأخذ الإنسان في هدوء ولُطْف دون أنْ يشعر ماهيّته، ولا يعرف أحد منّا كيف ينام؛ لذلك جعل الله ﷻ النّوم آية من آياته ﷻ، مثل اللّيل والنّهار والشّمس والقمر، فقال ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الرّوم: من الآية ٢٣].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: هذه النّعم كلّها يجب أن تُقابَل بالشّكر، وليس بالجحود، والشّكر للمولى ﷻ يكون بقدر الامتثال والطّاعة.

(الآية ٧٤) - ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

تقدّمت المناداة قبل ذلك مرّتين، ومع ذلك لا يوجد تكرار؛ لأنّ كلَّ نداء له مقصوده الخاصّ، فالنّداء في الأولى خاصّ بمَنْ أشركوهم مع الله ﷻ

وما قالوه أمام الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ [القصص: من الآية ٦٣]، أمّا الثّانية، فالنّداء فيها للمشركين: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ [القصص: من الآية ٦٥]، أمّا هنا، فيهتمّ النّداء بمسألة الشّهادة عليهم، فكلمة: ﴿أَيۡنَ﴾ و﴿شُرَكَآءِيَ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ قَدْر مشترك بين الآيات الثّلاثة، لكنّ المطلوب في كلّ قَدْر غير المطلوب في القَدْر الآخر، فليس في الأمر تكرار، إنّما توكيد في الكلّ.

(الآية ٧٥) - ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٧٥﴾:

﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾: أي: أخرجنا من كلّ أمّة نبيّها، وأحضرناه ليكون شاهداً عليها.

﴿فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾: أرونا شركاءكم الّذين اتّخذتموهم من دون الله ﷻ، أين هم ليدافعوا عنكم؟ لكن هيهات، فقد ضلّوا عنهم، وهربوا منهم، ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦﴾ [القصص]، فغاب شركاؤكم، وغاب شهودكم، لكنّ شهودنا موجودون: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ يشهد أنّه بلّغهم منهج الله ﷻ، فإنْ قُلْتم: لقد أغوانا الشّيطان وأغوانا المضلّون من الإنس، نردّ عليكم بأنّنا ما تركناكم لإغوائهم، فيكون لكم عذر، إنّما أرسلنا إليكم رسلاً لهدايتكم، وقد بلّغكم الرّسل، وفي موضع آخر، يقول ﷻ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النّساء]، فماذا يكون موقفهم يوم تشهد أنت عليهم بأنّك بلّغت، وأعذرتَ في البلاغ،

وأنّك اضطُهِدت منهم، وأوذيت، وقد ضلَّ عنهم شركاؤهم، ولم يجدوا مَنْ يشهد لهم أو يدافع عنهم؟ عندها تسقط أعذارهم وتكون المحكمة قد انتهت، ثمّ يقول ﷻ: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾؛ أي: قولوا: إنّ رسلنا لم يُبلِّغوكم منهجنا، وهاتوا حجّة تدفع عنكم، فلمّا تحيَّروا وأُسقِط في أيديهم حيث غاب شهداؤهم وحضر الشّهداء عليهم.

﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾: كما قال ﷻ عنهم: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النّور: من الآية ٣٩]، وقال: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: من الآية ٤٩]، فوجئوا بما لم يُصدِّقوا به، ولم يؤمنوا به في الدّنيا، لكن ما وجه هذه المفاجأة، وقد أخبرناهم بها في الدّنيا وأعطيناهم مناعة كان من الواجب أنْ يأخذوا بها، وأنْ يستعدّوا لهذا الموقف؟ فالعاقل حين تُحذّره من وعورة الطّريق الّذي سيسلكه وما فيه من مخاطر وأهوال ينبغي عليه أنْ ينصرفَ عنه، إنْ كان النّاصح له صادقاً، ولا عليه حين يحتاط لنفسه أنْ يكون ناصحه كاذباً، على حَدِّ قول الشّاعر:

زَعَم المنجِّمُ والطّبيبُ كِلاهُما ... لا تُبعَثُ الأجسَادُ قُلْتُ: إليكُما

إن صَحَّ قولكُمَا فلسْتُ بخاسِرٍ ... أوْ صَحَّ قَوْلي فالخسَار عليكُما

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: أي: غاب.

﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾: من ادّعاء الشّركاء.

بعد أن أعطانا الحقّ ﷻ لقطة من لقطات يوم القيامة، والقيامة لا تُخيف إلّا مَنْ يؤمن بها، أمّا مَنْ لا يؤمن بالآخرة والقيامة، فلا بُدَّ له من رادع آخر؛ لأنّ الحقّ ﷻ يريد أنْ يحمي صلاح الكون وحركة الحياة، ولو

اقتصر الجزاء على القيامة لعربد غير المؤمنين، واستشرى فسادهم، ولَشقي النّاس بهم، والله ﷻ يريد أنْ يحمي حركة الحياة من المفسدين من غير المؤمنين بالآخرة، فيجعل لهم عذاباً في الدّنيا قبل عذاب الآخرة، فالّذي يقع للكفّار في الدّنيا رَدْع لكلّ ظالم يحاول أنْ يعتدي، لذلك يعطينا ربّنا ﷻ صورة لهذا العذاب الدّنيويّ للمفسدين في الأرض، فيقول ﷻ:

(الآية ٧٦) - ﴿*إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

لم يتكلّم عن قارون وجزائه في الآخرة، إنّما يجعله مثَلاً وعِبرة واضحة في الدّنيا لكلّ مَنْ لم يؤمن بيوم القيامة لعلَّه يرتدع ويخاف من عذاب الله ﷻ، والعبرة هنا بقارون رأس من رؤوس القوم، وأغنى أغنيائهم، له قوّة جسديّة، فحين يأخذه الله ﷻ يكون في أَخذه عبرة لمن دونه، ومن هذا المنطلق أخذ الله ﷻ قارون، بكلّ ما يملك من غِنى وجاه وفتوّة بين قومه، فقال ﷻ:

﴿*إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾: حينما نتأمّل حياة موسى عليه السلام نجده قد مُني بصناديد الكفر، فقد واجه فرعون الّذي ادَّعى الألوهيّة، وواجه هامان، ثمّ موسى السّامريّ الّذي خانه في قومه في غيبته، فدعاهم إلى عبادة العجل، ومُني من قومه بسلطان المال؛ قارون، ومعنى: من قومه؛ إمّا لأنّه كان من رحمه من بني إسرائيل، أو من قومه، يعني: الّذين يعيشون معه، والقرآن الكريم لم يتعرّض لهذه المسألة بأكثر من هذا، لكنّ المفسّرين يقولون: إنّه ابن

عمّه، وللمؤرّخين كلام في العداوة بين موسى عليه السلام وقارون، قالوا: حينما سأل موسى عليه السلام ربّه أنْ يشدَّ عضده بأخيه هارون، أجابه سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ۝٣٦﴾ [طه]، وليست هذه أوّل مرّة، بل: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۝٣٧﴾ [طه]، وأرسل الله عزّ وجلّ معه أخاه هارون عليه السلام؛ لأنّه أفصح من موسى عليه السلام لساناً، وجعلهما شريكين في الرّسالة، وخاطبهما معاً: ﴿اذْهَبَا﴾ [طه: من الآية ٤٣]، ليؤكّد أنَّ الرّسالة ليست من باطن موسى، وإنْ رأيت الخطاب في القرآن الكريم لموسى عليه السلام بمفرده، فاعلم أنّ هارون عليه السلام مُلاحَظ فيه، ولمّا ذهب موسى عليه السلام لميقات ربّه، قال لأخيه: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٢]، وفي غيبة موسى عليه السلام حدثتْ مسألة العجل، وغضب موسى عليه السلام من أخيه هارون، فلمّا هدأتْ بينهما الأمور حدث تخصيص في رسالة كلّ منهما، فأعطي هارون عليه السلام الحبورة، والحَبْر: هو العالم الّذي يُعَدّ مرجعاً، كما أُعطِي القربان؛ أي: التّقرّب إلى الله سبحانه وتعالى، وعندها غضب قارون؛ لأنّه خرج من هذه المسألة صُفْر اليدين، وامتاز عنه أولاد عمومته بالرّسالة والمنزلة، مع ما كان عنده من أموال كثيرة، ثمّ إنّ موسى عليه السلام طلب من قارون زكاة ماله، دينار في كلّ ألف دينار، ودرهم في كلّ ألف درهم، فرفض قارون وامتنع، بل وألَّبَ النّاس ضدّ موسى عليه السلام، ثمّ دبَّر له فضيحة ليصرف النّاس عنه، حيث أغرى امرأة بغيّاً فأعطاها طِسْتاً مليئاً بالذّهب، على أن تدَّعي على موسى عليه السلام وتتّهمه، فجاء موسى عليه السلام ليخطب في النّاس، ويُبيّن لهم الأحكام، فقال: مَنْ يسرق نقطع يده، ومَنْ يزني نجلده إن كان غير محصن، ونرجمه إنْ كان محصناً، فقام له قارون وقال:

فإن كنتَ أنت يا موسى؟ فقال: وإنْ كنتُ أنا، وهنا قامت المرأة البغيُّ، وقالت: هو راودني عن نفسي، فقال لها: والّذي فلق البحر لَتقُولِنّ الصّدق، فارتعدتْ المرأة، واعترفت بما دبَّره قارون، فانفضح أمره، وبدأت العداوة بينه وبين موسى عليه السلام، وبدأ قارون في البَغْي والطّغيان حتّى أخذه الله عزّ وجلّ، وهذه رواية لا نعرف صحّتها، والّذي يهمّنا ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشّريف، وقد قال عزّ وجلّ في حقّه هذه الآيات:

﴿*إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾: البغي: تجاوز الحدّ في الظّلم، خاصّة وقد كان عنده من المال ما يُعينه على الظّلم، وما يُسخِّر به النّاس لخدمة أهدافه، وكأنّه يمثّل مركز قوّة بين قومه، والبغي إمّا بالاستيلاء على حقوق الآخرين، أو باحتقارهم وازدرائهم، وإمّا بالبطر.

ثمّ يذكر حيثيّة هذا البغي:

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾: كلمة مفاتح كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿*وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنعام: من الآية ٥٩]، ولو قلنا: مفاتح جمع، فما مفردها؟ لا تقُلْ: مفتاح؛ لأنّ مفتاح جمعها مفاتيح، أمّا مفاتح، فمفردها مَفْتح، وهي آلة الفتح، كالمفتاح، فالمعنى: أنّ مفاتيح خزائنه لو حملتْها عصبة لناءت بها، وهذه كناية عن كثرة أمواله، نقول: ناء به الحِمْل، أو ناء بالحمل، إذا ثقُل عليه.

﴿بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾: العُصْبة: هم القوم الّذين يتعصَّبون لمبدأ من المبادئ دون هَوىً بينهم، ومنه قول إخوة يوسف عليه السلام: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ [يوسف: من الآية ٨].

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾: والنّهي هنا عن الفرح المحظور، فالفرح: انبساط النّفس لأمر يسرُّ الإنسان، وفَرْقٌ بين أمر يسرُّك؛ لأنّه يُمتعك، وأمر يسرُّك؛ لأنّه ينفعك، فالمتعة غير المنفعة، فمثلاً، مريض السّكّر قد يأكل الموادّ السّكّريّة؛ لأنّها تُحدِث له متعة، مع أنّها مضرّة بالنّسبة إليه، فالفرح ينبغي أن يكون بالشّيء النّافع؛ لأنّ الله ﷻ لم يجعل المتعة إلّا في النّافع، فحينما يقولون له: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾؛ أي: فرح المتعة، وإنّما الفرح بالشّيء النّافع، ولو لم تكن فيه متعة كالّذي يتناول الدّواء المرّ الّذي يعود عليه بالشّفاء، لذلك يقول ﷻ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: من الآية ٥٨]، ويقول ﷻ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرّوم: من الآيتين ٤-٥]، فسمّاه الله ﷻ فرحاً؛ لأنّه فرح بشيء نافع، ومن فرح المتعة المحظور ما حكاه القرآن الكريم: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: من الآية ٨١]، هذا هو فرح المتعة؛ لأنّهم كارهون لرسول الله ﷺ، رافضون للخروج معه، ويسرُّهم قعودهم، وتركه يخرج للقتال وحده، فقوله ﷻ: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾؛ أي: فرح المتعة الّذي لا ينظر إلى مَغبّة الأشياء وعواقبها، فشارب الخمر يشربها لما لها من متعة مؤقّتة، لكن يتبعها ضرر بالغ.

(الآية ٧٧) - ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾:

﴿وَٱبْتَغِ﴾: أي: اطلب.

﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾: بما أنعم عليك من الرّزق.

﴿ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾: لأنّك إن ابتغيت برزق الله ﷻ لك الحياة الدّنيا، فسوف يَفْنى معك في الدّنيا، لكن إنْ نقلتَهُ للآخرة أبقيتَ عليه نعيماً دائماً لا يزول، وحين تحبّ نعيم الدّنيا وتحتضنه وتتشبّث به، فاعلم أنّ دنياك لن تمهلك، فإمّا أنْ تفوت هذا النّعيمَ بالموت، أو يفوتك هو حين تفتقر، فإن كنت عاشقاً ومُحبّاً للمال ولبقائه في حَوْزتك، فانقله إلى الدّار الباقية بالزكاة والصّدقات، ليظلّ في حضنك دائماً نعيماً باقياً لا يفارقك، فسارع واجعله يسبقك إلى الآخرة، وفي الحديث الشّريف عَنْ عَائِشَةَ ﵂، أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا؟»، قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»[1]، ويقول ﷺ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي»، قَالَ: «وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟»[2]، لذلك كان أولو العزم حين يدخل على أحدهم سائل يسأله، يقول له: مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادي إلى الآخرة بغير أجرة، والإمام عليّ -كرّم الله وجهه- جاءه رجل يسأله: أأنا من أهل الدّنيا، أم من أهل الآخرة؟ فقال: جواب هذا السّؤال ليس عندي، بل عندك أنت، وأنت الحكم في هذه المسألة، فإنْ دخل عليك مَنْ تعوّدت أنّه يعطيك، ودخل عليك مَنْ تعوّدت أنْ يأخذ منك، فإنْ كنتَ تبشُّ لمن يعطي، فأنت من أهل الدّنيا، وإنْ كنتَ تبشُّ لمَنْ يأخذ منك، فأنت من

(١) سنن التّرمذيّ: أبوابُ صفة القيامةِ والرَّقائقِ والورعِ، ٣٣- باب، الحديث رقم (٢٤٧٠).
(٢) صحيح مسلم: كتابُ الزُّهدِ والرَّقائقِ، الحديث رقم (٢٩٥٨).

أهل الآخرة؛ لأنّ الإنسان يحبّ من يعمّر له ما يحبّ، فإنْ كنتَ محبّاً للدّنيا فيسعدك مَنْ يعطيك، وإنْ كنتَ محبّاً للآخرة فيسعدك مَنْ يأخذ منك، وإذا كان ربّنا ﷻ يوصينا أن نبتغي الآخرة، فهذا لا يعني أن نترك الدّنيا.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾: هذه الآية يأخذها بعض النّاس دليلاً على الانغماس في الدّنيا ومتعها، يترك القرآن الكريم كلّه، ويقول: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، فيسرق ويرتشي.. إلخ، وحين نتأمّل قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ نفهم أنّ العاقل كان يجب عليه أنْ ينظر إلى الدّنيا على أنّها لا تستحقّ الاهتمام، لكنّ ربّه لفته إليها ليأخذ بشيء منها تقتضيه حركة حياته، فالمعنى: كان ينبغي عليَّ أنْ أنساها فذكّرني الله ﷻ بها، ولأهل المعرفة في هذه المسألة مَلْمح دقيق: يقولون: نصيبك من الشّيء ما ينالك منه، لا عن مفارقة إنّما عن ملازمة ودوام، وعلى هذا فنصيبك من الدّنيا هو الحسنة الّتي تبقى لك، وتظلّ معك، وتصحبك بعد الدّنيا إلى الآخرة، فكأنّ نصيبك من الدّنيا يصُبُّ في نصيبك من الآخرة، فتخدم دنياك آخرتَك، أو: يكون المعنى موجّهاً للبخيل الممسك على نفسه، فيُذكّره ربّه ﷻ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، يعني: خُذْ منها القَدْر الّذي يعينك على أمر الآخرة، لذلك قالوا عن الدّنيا: هي أهمّ من أن تُنْسى -لأنّها الوسيلة إلى الآخرة-، وأتفه من أن تكون غاية؛ لأنّ بعدها غاية أخرى أبقى وأدوم، ثمّ يقول ﷻ:

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾: يريد الحقّ ﷻ أنْ يتخلَّق خَلْقه بخُلُقه، كما جاء في الأثر: "تخلّقوا بأخلاق الله"، فكما أحسن الله ﷻ إليك أحسِنْ إلى النّاس، وكما تحبّ أنْ يغفر الله لك، اغفر لغيرك إساءته: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ

لَكُمۡۚ﴾ [النّور: من الآية ٢٢]، وما دام ربّنا يعطينا، فعلينا أنْ نعطي دون مخافة الفقر؛ لأنّ الله ﷻ هو الّذي استدعانا للوجود، لذلك تكفَّل بنفقتنا ورعايتنا، لذلك حين نرى العاجز عن الكسب -وقد جعله ربّه ﷻ على هذه الحال لحكمة- يمدّ يده إلينا، فلنعلم أنّه يمدُّها لله ﷻ، وأنّنا مناولون عن الله ﷻ، ونلحظ هذا المعنى في قوله ﷻ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: من الآية ١١]، فسمَّى الصّدقة قرضاً لله ﷻ، لماذا؟ لأنّ هذا العبد هو عبد الله ﷻ، مسؤول منه أن يرزقه، وقد ابتلاه لحكمة عنده -حتّى لا يظنّ أحد أنّ المسألة ذاتيّة فيه، فيعتبر به غيره- فكأنّ الله ﷻ يقول: فمَنْ يقرضني لأسُدَّ حاجة أخيكم؟ وقال ﷻ: ﴿يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ [الحديد: من الآية ١١]، مع أنّه سبحانه الواهب؛ لأنّه أراد أن يحترم ملكيّتنا، فالمال مال الله ﷻ، وأنت مناول عن الله ﷻ، وقد وقف بعض المستشرقين عند هذه المسألة؛ لأنّهم يقرؤون الآيات والأحاديث مجرّد قراءة سطحيّة غير واعية، فيتوهّمون أنّها متضاربة، فقالوا هنا: الله ﷻ يقول: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [الحديد: من الآية ١١]، وقال في موضع آخر: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٦٠]، وفي الحديث الشّريف: «**رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مَكْتُوبٌ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ: الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالْقَرْضُ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ**»(١)، فظاهر الحديث يختلف مع الآية الكريمة -هذا في نظرهم-؛ لأنّهم لا يملكون المَلَكة العربيّة في استقبال البيان القرآنيّ، وبتأمّل الآيات والأحاديث نجد اتّفاقهما على أنّ الحسنة أو الصّدقة بعشر أمثالها، فالخلاف -ظاهراً- في قوله ﷻ:

(١) المعجم الأوسط للطّبرانيّ: باب الميم، من اسمه محمّد، الحديث رقم (٦٧١٩).

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [الحديد: من الآية ١١]، وقول النّبيّ ﷺ: «وَالْقَرْضُ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ»، وليس بينهما اختلاف، فساعة تصدَّق الإنسان بدرهم مثلاً أعطاه الله ﷻ عشرة، منها الدّرهم الّذي تصدَّق به، فكأنّه أعطاه تسعة، فحين تُضَاعف التّسعة، تصبح ثمانية عشرة.

﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: هذا قانون عامّ، والفساد يأتي من الخروج عن منهج الله ﷻ، فإنْ غيَّرت فيه فقد أفسدتَ، فالفساد كما يكون في المادّة يكون في المنهج، وفي المعنويّات، يقول ﷻ: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: من الآية ٥٦]، فعنوان الفساد العامّ، الأخلاقيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، كلّ فساد: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الرّوم: من الآية ٤١]، فالحقّ ﷻ خلق كلّ شيء على هيئة الصّلاح لإسعاد خلقه، فلا تعمد إليه أنت فتفسده، هذه مسائل خمْس توجَّه بها قوم قارون لنصحه بها، منها الأمر، ومنها النّهي، ولا بُدَّ أنّهم وجدوا منه ما يناقضها، لا بُدَّ أنّهم وجدوه بَطِراً أَشِراً مغروراً بماله، فقالوا له: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾، ووجدوه قد نسي نصيبه من الدّنيا فَلم يتزوّد منها للآخرة، فقالوا له: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، ووجدوه يضنُّ على نفسه فلا ينفق في الخير، فقالوا له: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ يعني: عَدِّ نعمتك إلى غيرك، كما تعدَّت نعمة الله ﷻ إليك.. وهكذا ما أمروه أمراً، ولا نَهوْهُ نهياً إلّا وهو مخالف له، وإلّا لَمَا أمروه ولَمَا نَهوْهُ، ثمّ يقول قارون ردّاً على هذه المسائل الخمس الّتي توجَّه بها قومه إليه:

(الآية ٧٨) - ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

لكن ما وجه هذا الرّدّ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ﴾ على المطلوبات الخمسة الّتي طلبوها منه؟ كأنّه يقول لهم: لا دخلَ لكم بهذه الأمور؛ لأنّ الّذي أعطاني المال علم أنّني أهْلٌ له، وأنّني استحقّه لذلك ائتمنني عليه، ولسْتُ في حاجة لنصيحتكم، أو يكون المعنى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ﴾، يعني: بمجهودي ومزاولة الأعمال الّتي تُغِلّ عليَّ هذا المال، وكان قارون مشهوراً بحُسْن الصّوت في قراءة التّوراة، حافظاً لها، وعلى درجة عالية بمعرفة أحكامها، وكان حسن الصّورة، فعجيب أن يكون عنده كلّ هذا العلم، ويقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ﴾، ولا يعلم أنّ الله ﷻ قد أهلك من قبله قروناً كانوا أشدَّ منه قوّة، وأكثر منه مالاً وعدداً.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ﴾: فكيف فاتتْه هذه المسألة مع عِلْمه بالتّوراة؟

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾: أي: من ضمن ما علم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: أناس كانوا أكثر منه مالاً، وقد أخذهم الله ﷻ وهم أمم لا أفراد.

﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ﴾: كلمة: ﴿جَمْعًا ۚ﴾ يجوز أن تكون مصدراً، يعني: جمع المال، أو: اسم للجماعة؛ أي: له عُصْبة، وبعد ذلك قال ﷻ:

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: وعلامة أنّهم لا يُسألون أنّ الله ﷻ يأخذهم دون إنذار، يأخذهم على غِرَّة، فلن يقول لقارون: أنت فعلت كذا وكذا، وسأفعل بك كذا وكذا، وأخسف بك وبدارك الأرض، فأفعالك معلومة لك، والحيثيّات السّابقة كفيلة بأنْ يُفاجئك العذاب.

(الآية ٧٩) - ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾:

قلنا: إنّ قارون كان بطبيعة الحال غنيّاً وجيهاً، حَسَن الصّوت والصّورة، كثير العدد، كثير المال، فكيف لو أضفت إلى هذا كلّه أن يخرج في زينته وفي موكب عظيم، وفي أبّهة:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ﴾: حتّى أنّ النّاس انبهروا به وبزينته، فكان منهم جماعة فُتِنوا به، وأخذهم بريق النّعمة والزّينة والزّهو وترف الحياة، ومدُّوا أعينهم إلى ما هو فيه من متعة الدّنيا، وفي هؤلاء يقول ﷻ:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: وقد خاطب الحقّ ﷻ نبيّه محمّداً ﷺ تعليماً للأمّة بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه: من الآية ١٣١]، لذلك من صفات المؤمن أن يحبّ الخير عند أخيه كما يحبّه لنفسه، وحين لا تحبّ النّعمة عند غيرك، فما ذنبه هو؟ فكأنّك تعترض على قدر الله ﷻ فيه، وما دُمْتَ قد تأبّيت واعترضت على قدر المنعم، فلا بُدَّ أن يحرمك منها.

أمّا أهل العلم وأهل المعرفة فلهم رأْيٌ مخالف، ونظرة أبعد للأمور، لذلك رَدُّوا عليهم:

(الآية ٨٠) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾:

فما كان الحقّ ﷻ ليترك أهل الدّنيا وأهل الباطل يُشكّكون النّاس في قَدَر الله ﷻ، ويتمرّدون على قسمته، والله ﷻ لا يُخلي النّاس من أهل الحقّ الّذين يُعدِّلون ميزان حركة الحياة:

إنَّ الذي جَعَلَ الحقِيقةَ عَلْقماً لم يخلْ من أَهْل الحقيقة جيلاً

وما دام أنّ الله ﷻ قال في الجماعة الأولى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾، فهم لا يرَوْنَ غيرها، ولا يطمحون لأبعد منها، وقال في الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ فهذا يعني: أنّ أهل الدّنيا سطحيّون، لم يكن عندهم علم ينفعهم، لذلك وقعوا في هذا المأزق الّذي نجا منه أهل العلم، حينما أجروا مقارنة بين الطّمع في الدّنيا والطّمع في الآخرة، لذلك أهل الدّنيا قالوا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾، أمّا أهل العلم والمعرفة فردُّوا عليهم:

﴿وَيۡلَكُمۡ﴾: أي: الويل لكم بسبب هذا التّفكير السّطحيّ، وتمنّي ما عند قارون، الويل والهلاك لكم بما حسدتُم النّاس، وباعتراضكم على أقدار الله ﷻ في خَلْقه، قال الله ﷻ عنهم في موضع آخر: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الرّوم: من الآيتين ٦-٧]، يعني: لا يعرفون حقيقة الأشياء، ولو عرفوا ما قالوا هذا الكلام، وما تمنَّوْا هذه الأمنية، ثمّ يلفت أهل العلم والمعرفة أنظار أهل الدّنيا، ويُوجِّهونهم الوجهة الصّحيحة:

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾: أي: ثواب الله ﷻ خير من

الدّنيا، وممّا عند قارون، وكيف تتمنّون ما عنده، وقد شجبتم تصرّفاته، ونهيتموه عنها، ولم ترضَوْها؟

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾: أي: يُلقّى الإيمان والعمل الصّالح والهداية، ليُقبِلَ على عمل الآخرة، ويُفضّلها عن الدّنيا؛ أي: يُلقّى قضيّة العلم بالحقائق، ولا تخدعه ظواهر الأشياء، هذه لا يجدها ولا يُوفّق إليها إلّا الصّابرون، كما قال ﷻ في آية أخرى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصّلت]، والصّبر: احتمال ما يؤذي في الظّاهر، لكنّه يُنعَّم في الباطن، وله مراحل، فالله ﷻ كلَّفنا بطاعات فيها أوامر، وكلَّفنا أنْ نبتعد عن معاصٍ، وفيها نواهٍ، وأنزل علينا أقداراً قد لا تستطيبها نفوسنا، فهذه مراحل ثلاث، فالطّاعات ثقيلة وشاقّة على النّفس، لذلك يقول ﷻ عن الصّلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: من الآية ٤٥]، فهناك دَواع شتَّى تصرفك عن الصّلاة، وتحاول أنْ تُقعدك عنها، فتجد عند قيامك للصّلاة كسلاً وتثاقلاً، ولنقرأ قوله ﷻ عن الصّلاة مخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: من الآية ١٣٢]، وهذا دليل على أنّها صعبة وشاقَّة على النّفس، لكن إذا تعوّدتْ عليها، وألفتها النّفس صارتْ أحبَّ الأشياء إليك، وأخفّها على نفسك، بل وقرَّة عَيْن لك، والنّبيّ ﷺ يُعلّمنا هذا الدّرس في قوله لمؤذّنه بلال: «يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»(١)، لا أرحنا منها، ويقول أيضاً ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»(٢)، وخصَّ الصّلاة بالذّات من بين سائر

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدبِ، بابٌ في صلاةِ الْعَتَمَةِ، الحديث رقم (٤٩٨٥).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مُسندُ المُكثرينَ من الصَّحابةِ، مُسندُ أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ، الحديث رقم (١٤٠٣٧).

العبادات؛ لأنّها النّائبة عن العبادات كلّها؛ ولأنّها تتكرّر في اليوم خمس مرّات، فهي ملازمة للمؤمن يعايشها على مدى يومه وليلته بخلاف الأركان الأخرى، فمنها ما هو مرّة واحدة في العام، أو مرّة واحدة في العمر كلّه كالحجّ، هذا هو النّوع الأوّل من الصّبر، وهو الصّبر على مشقّة الطّاعة.

الصّبر الثّاني: الصّبر عن شهوة المعصية، ولا تنْسَ أنّه أوّل صبر تصادفه في حياتك، أنْ تصبر على نفسك.

الصّبر الثّالث: صَبر على الأقدار المؤلمة الّتي لا تفطن أنت إلى الحكمة منها، فالأقدار ما دامتْ من حكيم، ومُجريها عليك ربٌّ، فلا بُدَّ أنّ لها حكمة فينا، فخُذ القضيّة القدريّة بحكمة مُجريها علينا، فهو ﷻ ربّنا، ونحن عبيده وصنعته، قال النّبيّ ﷺ: «**الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللهِ، فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ**»(١)، فتجري علينا هذه الأقدار المؤلمة، فلا بدّ من الصّبر عليها، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه: «الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ»(٢)، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: من الآية ١٥٥-والآيتين ١٥٦-١٥٧].

ثمّ يُفاجأ قارون بالعقاب الّذي يستحقّه:

---

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: ج ١٠، ص ٨٦، باب العين، الحديث رقم (١٠٠٣٣).

(٢) المستدرك على الصّحيحين: كتاب التّفسير، تَفْسِيرُ سُورَةِ: حم عسق، الحديث رقم (٣٦٦٦).

(الآية ٨١) - ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾: الخسف: أن تنشقَّ الأرض فتبتلع ما عليها، والخسف كان به وبداره الّتي فيها كنوزه وخزائنه وما يملك.

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: فما نفعه مال، ولا دافع عنه أهل.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾: أي: بذاته، فلم تكُنْ له عُصْبة تحميه، ولا استطاع هو حماية نفسه، فمَنْ يدفع عذاب الله ﷻ إن حلَّ، ومَنْ يمنعه وينقذه إنْ خُسِفت به الأرض؟! وهنا ينبغي أن نتساءل: كيف الآن حال مَنْ اغترّوا به، وفُتِنوا بماله وزينته؟

(الآية ٨٢) - ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

لقد كانوا بالأمس يقولون: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾، لكن اليوم -وبعد أن عاينوا ما حاق به من عذاب الله ﷻ وبأسه الّذي لا يُردُّ عن القوم الكافرين- يثوبون إلى رُشْدهم، ويقولون: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ﴾.

كلمة (وَيْ): اسم فعل، مثل: أُفٍّ وهيهات، وتدلّ على النّدم والتّحسُّر، فهي تنديد وتَخْطيءٌ للفعل، وقد تُقال: (وَيْ) للتّعجّب، فقولهم:

(وَيْ) ندماً على ما كان منهم من تمنّي النّعمة الّتي تنعَّم بها قارون وتخطيئاً لأنفسهم، بعد أنْ شاهدوا الخَسْف به وبداره، وهم يندمون الآن؛ لأنّ الله ﷻ في رزقه حكمة وقدراً.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾: أي: يقبض ويُضيّق، وليس بسْط الرّزق دليل كرامة، ولا تضييقه دليلَ إهانة، بدليل أنّ الله ﷻ بسط الرّزق لقارون، ثمّ أخذه أخْذ عزيز مقتدر، وقد تعرّضتْ سورة الفجر لهذه المسألة في قوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر]، فالأوّل عدّ الرّزق الواسع دليل الكرامة، والآخر عدّ التّضييق دليلَ إهانة، فردَّ الله ﷻ عليهما ليُصحّح هذه النّظرة، فقال: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: من الآية ١٧]، يعني: أنتما مخطئان، فلا سعةَ الرّزق دليلُ كرامة، ولا تضييقه دليلُ إهانة، وإلّا فكيف يكون إيتاء المال دليلَ كرامة، وأنا أُعطي بعض النّاس المال، فلا يُؤدُّون حقَّ الله فيه؟ ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر]، فأيُّ كرامة في مال يكون وبالاً على صاحبه، وابتلاء لا يُوفَّق فيه، فلو سُلب هذا المال من صاحبه لكان خيراً له، فما أشبهَ هذا المال بالسّلاح في يد الّذي لا يُحسِن استعماله، فربّما قتل نفسه به.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾: لأنّهم بالأمس تمنَّوْا مكانه، أمّا الآن فيعترفون بأنّ الله ﷻ مَنَّ عليهم حين نجّاهم من هذا المصير، ثمّ يقولون:

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: تعجُّب من أنّه لا يفلح الكافرون عند الله تبارك وتعالى.

(الآية ٨٣) - ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

لأنّه لا يصحّ أنْ يعلو الإنسان على بني جنسه، ولا على بيئته إلّا بشيء ذاتيّ فيه، فلا يصحّ أنْ يعلوَ بقوّته؛ لأنّه قد يمرض، فيصير إلى الضّعف، ولا بماله؛ لأنّه قد يُسلب منه، والنّبيّ ﷺ يُعلِّمنا كيف نحترم الآخرين، وكيف نتواضع لهم، فلمّا دخل عليه الصّحابيّ عديّ بن حاتم قام له عن كرامة مجلسه، وهكذا يحرص رسول الله ﷺ على المساواة في المجلس، لذلك لمّا دخل عديّ بن حاتم على النّبيّ ﷺ ألقى إليه وسادة فجلس على الأرض، وقال: أشهد أنّك لا تبغي علوّاً في الأرض ولا فساداً، وأسلم(١).

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾: لا يمكن أن تجتمع للمؤمن والكافر، وأن تجتمع للمتكبّر والمتواضع، وأن تجتمع للصّالح والمصلح وللفاسد والمفسد، فهذه قضيّة متناقضة تماماً.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾: كلّ أنواع الفساد، الفساد الأخلاقيّ والاجتماعيّ والماليّ والاقتصاديّ.. إلخ.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: العاقبة الحسنة في النّعيم المقيم الدّائم للمتّقين، الّذين ساروا على منهج الله ﷻ، وأخذوا بأوامره ﷻ، والّذين كانوا على نهج سيّدنا رسول الله ﷺ.

---

(١) كنز العمّال: كتاب الصّحبة من قسم الأفعال، حقّ المجالس والجلوس، الحديث رقم (٢٥٧٦٥).

(الآية ٨٤) - ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ﴾: قلنا: إنّ كلمة خيرٍ تُطلق ويُراد بها ما يقابل الشّرّ، كما في قوله ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة]، وتُطلق ويُراد بها الأحسن في الخير، تقول: هذا خير من هذا، فكلاهما فيه خير، ومنه قول رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»(١)، فالمعنى هنا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ﴾؛ أي: خير يأتيه من طريقها، أو إذا عمل خيراً أعطاه الله ﷻ أخير منه وأحسَن، والمراد أنّ الحسنة بعشر أمثالها.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾: قضيّة عقديّة، تثبت وتُقرّر الثّواب للمطيع، والعقاب للعاصي، ومعنى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾؛ أي: أتى بها حدثاً لم يكُنْ موجوداً، فحين تفعل أنت الحسنة فقد أوجدتَها بما خلق الله ﷻ فيك من قدرة على الطّاعة وطاقة لفعل الخير، وثواب الحسنة ليس مقصوراً فقط على الآخرة، فما دام الدّين لسعادة الدّارين فللحسنة أثر أيضاً في الدّنيا، لكنّ مجموعها يكون لك في الآخرة، وهذه الآية جاءت بعد الحديث عن قارون، وبعد أن نصحه قومه، وجاء في نصحهم: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾، فمن الّذي يحدّد الحسنة والسّيّئة؟ ما دام النّاس مختلفين في هذه المسألة، فلا يحدّدها إلّا الله ﷻ، لذلك يقول العلماء في تعريف الحسنة: الحسنة هي ما

---

(١) صحيح مسلم: كتاب القَدَرِ، بابٌ في الأمْرِ بالقُوَّةِ وتَرْكِ العَجْزِ والاستعانةِ باللهِ وتفويضِ المقاديرِ للَّهِ، الحديث رقم (٢٦٦٤).

حسّنه الشّرع لا ما حسّنته أنت، فنحن مثلاً نستسيغ بعض الأطعمة، ونجد فيها متعة ولذّة، مع أنّها مُضرّة، في حين نأنف مثلاً من أكل الطّعام المسلوق، مع أنّه أفيد وأنفع، لذلك يقول ﷻ في صفة الطّعام: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾ [النّساء: من الآية ٤]؛ لأنّ الطّعام قد يكون هنيئاً تجد له متعة، لكنّه غير مريء يُسبِّب لك المتاعب بعد ذلك. والحقّ ﷻ يقول هنا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ فالحسنة خير، لكنّ الثّواب عليها خير منها؛ أي: أخير؛ لأنّه عطاء دائم باقٍ لا ينقطع، أو خير يأتيك بسببها.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: لم يقُل الحقّ ﷻ: فله أشرّ منها، قياساً على الحسنة، فضاعف السّيّئة كما ضاعف الحسنة، وهذه المسألة مظهر من مظاهر رحمة الله ﷻ بخَلْقه، هذه الرّحمة الّتي تتعدَّى حتّى إلى العُصَاة من خَلْقه، لذلك قال:

﴿بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: أي: على قَدْرها دون زيادة، ولنقرأ قوله ﷻ في سورة عمّ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النّبأ]، فحساباً هنا لا تعني أنّ الجزاء بحساب على قدر العمل، إنّما أضعاف، وفي المقابل يقول ﷻ في السّيّئة: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النّبأ]؛ أي: على قدرها موافقاً لها، فربّنا ﷻ يعاملنا بالفضل لا بالعدل، ليحبّب النّاس بفعل الحسنة والخير، وأنت حين تفعل الحسنة فأنت واحد تُقدِّم حسنتك إلى كلّ النّاس، وفي المقابل يعود عليك أثر حسنات الجماهير كلّها، فينالك من كلّ واحد منهم حسنة.

(الآية ٨٥) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: معنى فرض: ألزم وأوجب وحتَّم، لذلك يقول ﷻ في أوّل سورة النّور: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾ [النّور: من الآية ١]، يعني: حتَّمناها وألزمنا بها، والإلزام يعني ردّ النّفس إلى ما يريده خالقها منها، بصرْف النّظر عمّا تشتهيه هي، فقد يأمرها بما تكره، وينهاها عمّا تحبّ، إذن: يقطع سيّال النّفس؛ لأنّها عادة ما تكون أمَّارة بالسّوء، تنظر إلى العاجل، ولا تهتمّ بالآجل ولا تعمل له حساباً، فالقرآن الكريم منهج الله ﷻ بـ (افعل ولا تفعل)، هو الّذي يكبح جماح النّفس، ويُحدِّد لها مجال مشيئتها؛ لأنّ الخالق ﷻ خلق النّفس، وجعل مشيئتها صالحة لعمل الخير، ولعمل الشّرّ.

وسُمِّي إنزال القرآن الكريم فَرْضاً لما في القرآن الكريم من تكاليف، وهي عادةً ما تكون شاقّة على النّفس، ألَا ترى قوله ﷻ عن الصّلاة، وهي أمّ العبادات: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: من الآية ٤٥]، فلا يعرف منزلتها ومكانتها إلّا خاشع، لذلك كان النّبيّ ﷺ يقول لبلال: «**يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا**»(١)، ويقول أيضاً ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(٢)؛ لأنّه ﷺ أحبّها وعشقها، حتّى صارت مُنْتهى راحته ﷺ.

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدبِ، بابٌ في صلاةِ العَتَمَةِ، الحديث رقم (٤٩٨٥).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مُسندُ الْمُكثرينَ مِنَ الصَّحابةِ، مُسندُ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، الحديث رقم (١٤٠٣٧).

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾: يعني: يجازيك أفضل الجزاء، ونزلتْ هذه الآية لمّا اضطهد أهلُ مكّة رسولَ الله ﷺ وآذوْه، حتّى اضطرّوه للذّهاب إلى الطّائف ليبحث فيها عن نصير، لكنّهم لم يكونوا أقلَّ قسوة من أهل مكّة، فعزَّ على رسول الله ﷺ النّصير فيها، وعاد منكسراً حزيناً لم يجد مَنْ يدخل في جواره، إلى أن أجاره مطعم بن عديّ، ولنتأمّل حين يكون رسول الله ﷺ بجلالة قدره لا يجد مَنْ يناصره، أو يُدخله في جواره، أمّا الصّحابة فلم تكُنْ لهم شوكة بعد، ولا قوّة لحماية رسول الله ﷺ، وفي هذه الفترة لاقوا المشاقّ في سبيل الدّعوة، فحاصرهم الكفّار في شِعْب أبي طالب، وفرضوا عليهم المقاطعة التّامّة حتّى عزلوهم عن النّاس، ومنعوا عنهم الطّعام والشّراب، والبيع والشّراء، حتّى الزّواج، وحتّى اضطرّوا إلى أكل المخلَّفات وأوراق الشّجر، لذلك أمرهم الله ﷻ بالهجرة، فلمّا خرج رسول الله ﷺ من مكّة وهي بلده، وأحبّ البلاد إلى قلبه، قال: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَخْرَجْتَنِي مِنْ أَحَبِّ الْبِلَادِ إِلَيَّ، فَأَسْكِنِّي أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيْكَ»(١)، لذلك إنْ كانت مكّةُ محبوبةً لرسول الله ﷺ، فالمدينة محبوبة لله ﷻ، لذلك بعد أن خرج رسول الله ﷺ من مكّة وقارب المدينة حَنَّ قلبه إلى مكّة، فطمأنه ربّه ﷻ بهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾، فالّذي فرض عليك مشقّة التّكاليف، وحمَّلك مشاقّ الدّعوة والإقناع بها، وتنفيذ أحكامها، هو الّذي سيردُّك إلى بلدك ردَّ نصر، وردّ فتح، وما أشبهَ ردِّ رسول الله ﷺ إلى بلده بردِّ موسى عليه السلام إلى

(١) المستدرك على الصّحيحين: ج٣، كتاب الهجرة، الحديث رقم (٤٢٦١).

أمّه في قوله ﷻ لأمّ موسى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: من الآية ٧]، ليس رَدَّاً عادياً، إنّما: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: من الآية ٧]، فسيُردّ النّبيّ ﷺ منتصراً.

﴿مَعَادٍ﴾: ليس هو الموعد كما يظنّ بعض النّاس، إنّما يراد به المكان الّذي تعود إليه بعد أن تفارقه، فالمعنى: سنردُّك إلى المكان الّذي تحِنُّ إليه، ويتعلّق به قلبك، أو نردّك إلى معاد؛ أي: إلينا، كما قال ﷻ: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧﴾ [غافر: من الآية ٧٧]، ولا مانع من إرادة المعنيين معاً.

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: الحقّ ﷻ يعلّم رسوله محمّداً ﷺ الجدل العفيف، لا الجدل العنيف، يُعلّمه كيف يردُّ على ما قالوا عن الّذي يؤمن به: صبأ فلان، يعني: خرج عن دين آبائه، وهم يعتقدون أنّه الحقّ، فكأنّ الّذي يؤمن في نظرهم خرج من الحقّ إلى الباطل، فهذه عقول تحتاج إلى سياسة وجدل، كما قال ﷻ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٥]؛ لأنّ الجدل العنيف يزيد خصمك عناداً ولجاجة، أمّا الجدل العفيف فيستميل القلوب ويعطّفها نحوك، لذلك يردّ رسول الله ﷺ بقوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: جاء بالهدى من عند الله ﷻ، وهو النّبيّ ﷺ: ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ثمّ يُعطي الحقّ ﷻ لنبيّه ﷺ دليلاً من واقع حياته ليطمئنّ على أنّه مُؤيَّد من ربّه ﷻ، وأنّه ﷻ سيفي له بما وعد، ولن يتخلّى عنه.

(الآية ٨٦) - ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: يعني: إذا كنت تتعجّب، أو تستبعد أنْ نردَّك إلى بلدك؛ لأنّ الكفّار يقفون لك بالمرصاد، حتّى أصبحت لا تُصدِّق أنْ تعود إليها، فانظر إلى أصل الرّسالة معك: هل كنت تفكّر أو يتسامى طموحك إلى أنْ تكون رسولاً؟ إنّه أمر لم يكُنْ في بالك، ومع ذلك أعطاك الله ﷻ إيّاه واختارك له، فالّذي أعطاك الرّسالة ولم تكُنْ في بالك كيف يحرمك من أمر أنت تحبّه وتشتاق إليه؟ فتقوم هذه الآية مقامَ الدّليل والبرهان على صِدْق: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، وفي موضع آخر يؤكّد الحقّ ﷻ هذا المعنى، فيقول ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢]، فالّذي أعطاك الرّسالة لا يعجز أن يحقّق لك ما تريد.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: هذا استثناء يسمّونه استثناء منقطعاً، والمعنى: ما كنت ترجو أن يُلْقى إليك الكتاب إنّما ألقيناه، وما ألقيناه إليك إلّا رحمة لك من ربّك ﷻ، وما دام هؤلاء الكفّار عاندوك وأخرجوك، فإيّاك أنْ تلين لهم في وقت من الأوقات.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: أي: مُعيناً لهم ومُسانداً، وكانوا قد اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدون إلهه سنة، فحذّره الله ﷻ أنْ يُعينهم على ضلالهم، أو يجاريهم في باطلهم، لذلك كان النّبيّ ﷺ

لا يُناصر ظالماً أو مجرماً، حتّى إن كان من أتباعه، وسبق أن ذكرنا في تأويل قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النّساء] قصّة اليهوديّ زيد بن السّمين مع الدّرع.

(الآية ٨٧) - ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٨٧﴾:

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾: أي: لا يصرفنّك ولا يمنعنَّك المشركون.

﴿عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي: قراءتها وتبليغها للنّاس.

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾: لأنّ النّبيّ ﷺ مأمور بالجهر بالدّعوة إلى الله ﷻ.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: هذه رسالة للنّاس جميعهم عن طريق رسول الله ﷺ، فالنّبيّ ﷺ أبعد ما يكون عن الشّرك، وليس مظنّة له، لكن هذه لأتباع النّبيّ ﷺ، وليس الشّرك فقط بعبادة الأصنام والأوثان، وإنّما الشّرك في عبادة الذّات والشّهوات والملذّات والمال، يقول ﷻ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: من الآية ٢٣]، وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ نُسِيٍّ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى شَدَّادِ ابْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه فِي مُصَلَّاهُ وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا الَّذِي أَبْكَاكَ؟ قَالَ: حَدِيثٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ رَأَيْتُ بِوَجْهِهِ أَمْراً سَاءَنِي، فَقُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الَّذِي أَرَى بِوَجْهِكَ؟ قَالَ ﷺ: «**أَمْرٌ أَتَخَوَّفُهُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي**»، قُلْتُ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ وَشَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُشْرِكُ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: «**يَا شَدَّادُ، أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ**

شَمْساً وَلَا قَمَراً وَلَا وَثَناً وَلَا حَجَراً، وَلَكِنْ يُرَاؤونَ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّيَاءُ شِرْكٌ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: فَمَا الشَّهْوَةُ الخَفِيَّةُ؟ قَالَ: «يُصْبِحُ أَحَدُكُمْ صَائِماً فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فَيُفْطِرُ»[1].

(الآية ٨٨) - ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: كسابقتها؛ لأنّ رسول الله ﷺ ليس مظنّة أن يدعو مع الله إلهاً آخر.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾: أي: لا معبودَ بحقّ إلّا هو، ولو كان معه ﷻ آلهة أخرى لواجهوه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء]؛ أي: سَعَوْا إليه لينازعوه الألوهيّة، أو ليتقرَّبوا إليه، وقوله ﷻ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ قائم عليها سلطان الكون والدّنيا والآخرة، قال ﷺ: «وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»[2]، فلا مُحي إلّا الله، ولا مميت إلّا الله، ولا معزّ إلّا الله، ولا مُعطي إلّا الله، ولا مانع إلّا الله، فهو واجب الوجود، وهو الحيّ الّذي لا يموت.

﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ﴾: الوجه في عُرْفنا ما به المواجهة في الإنسان، وكلّ شيء يصف به الحقّ ﷻ نفسه علينا أنْ نصفه ﷻ به، بناءً على وصفه في إطار قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١].

---

(١) المستدرك على الصّحيحين: ج٤، كتابُ الرِّقاقِ، الحديث رقم (٧٩٤٠).

(٢) السّنن الكبرى للبيهقيّ: جُمَّاعُ أبوابِ دخولِ مكَّةَ، بابٌ: أفضلُ الدُّعاءِ دعاءُ يوم عَرَفَةَ، الحديث رقم (٩٤٧٣).

﴿كُلُّ شَيۡءٖ﴾: كلمة: ﴿شَيۡءٖ﴾ يقول العلماء: إنّها جنس الأجناس، يعني: أيّ موجود طرأ عليه الوجود يُسمّى شيئاً مهما كان تافهاً ضئيلاً، وقد تكلّم العلماء في: أيُطلق على الله ﷻ أنّه شيء؛ لأنّه موجود؟ قالوا: ننظر في أصل الكلمة، شيء: مِن شاء شيئاً، فالشّيء شاءه غيره فأوجده، لذلك لا يقال لله ﷻ: شيء؛ لأنّه ﷻ ما شاءه أحد، بل هو ﷻ موجود بذاته، وفي آية أخرى يقول ﷻ في عموميّة الشّيء: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٤٤]، يعني: كلّ ما يُقال له شيء موجود سبق وجوده عدم، إلّا يسبّح بحمد الله ﷻ، بعضهم قال: هو تسبيح دلالة على موجدها، وليس تسبيح مقالة حقيقيّة، لكنّ قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٤٤]، يدلّ على أنّه تسبيح حقيقيّ، فكلّ شيء يُسبّح بلغته وبما يناسبه، وقد أثبت الله ﷻ منطقاً للطّير وتسبيحاً للجبال، ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: من الآية ١٠]؛ أي: رتّلي معه، ولو فهمتَ لغة هذه الأشياء لأمكنك أنْ تعرف تسبيحها، لكن كيف نطمع في معرفة لغات الحجر والشّجر، ونحن لا نفهم لغات بعضنا، فإذا لم تكن تعرف مثلاً الإنجليزيّة، أتعرف ماذا يقول المتحدّث بها لو سبّح بها الله ﷻ وهو بشر مثلك يتكلّم بطريقتك نفسها وبالأصوات نفسها؟ لذلك يقولون في معجزاته ﷺ: سبَّح الحصى في يده، والصّواب أن نقول: سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى في يده، وإلّا فالحصى يُسبّح في يد رسول الله ﷺ، ويُسبّح في يد أبي جهل، لكنّ الفارق أنّ النّبيّ ﷺ سمع تسبيح الحصى وغيره لا يسمعه، ومن ذلك أيضاً حنين الجذع لرسول الله ﷺ، ثمّ ألم يقل الحقّ ﷻ: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾

[النّحل: من الآية ٦٨]، ألم يَقُلْ عن الأرض: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزّلزلة]؟ ألم يُثبِت للنّملة كلاماً؟ ألم يكلّم الهدهد سليمانَ عليه السلام، وفهم منه سليمانُ؟ فلكلّ جنس من المخلوقات لغته الّتي يفهمها أفراده عن بعض: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النّور: من الآية ٤١]، وإنْ شاء الله تعالى أطلع بعض خَلْقه على هذه اللّغات، وأفهمه إيّاها.

﴿هَالِكٌ﴾: بعضهم يظنّ أنّ الهلاك خاصٌّ بما فيه روح كالإنسان والحيوان، لكن لو وقفنا عند قوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: من الآية ٤٢]، فالهلاك يقابله الحياة، فكلّ شيء يهلك كانت له حياة تناسبه، وإنْ كنّا لا نفهم إلّا حياتنا نحن، والّتي تذهب بخروج الرّوح.

﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾: أي: إلّا ذاته تعالى، ولم يقُلْ: إلّا هو؛ لأنّه تعالى ليس شيئاً، وللوجه هنا معنى آخر، كما نقول: فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجه الله، يعني: فعلت والله تعالى في بالي، فالمعنى: كلّ شيء هالك، إلّا ما كان لوجه الله عزّ وجلّ، فلا يهلك أبداً؛ لأنّه يبقى لك وتنال خيره في الدّنيا وثوابه في الآخرة.

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أي: له الحكم في الآخرة يوم يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: من الآية ١٦]، لكن لماذا خصَّ الملك بيوم القيامة، وهو تعالى له المُلْك الدّائم في الدّنيا وفي الآخرة؟ قال العلماء: لأنّ هناك مُلْكاً في الدّنيا، يُمْلِكه لخَلْقه، كما قال تعالى في النّمرود: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٨]، وقال تعالى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: من الآية ٢٦]، فالمُلْك مُلْك الله عزّ وجلّ، وهو تعالى الّذي يُمْلِك خَلْقه في الدّنيا دنيا الأسباب، لكن في الآخرة تُنزع الملكيّة من أيِّ أحد إلّا لله وحده، حتّى إرادة

الإنسان على جوارحه تُسلَب منه، فتشهد عليه بما كان منه في الدّنيا.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أي: للحساب في الآخرة؛ لأنّ الله ﷻ لم يخلقنا عَبثاً، ولن يتركنا هملاً، بل لا بدّ من الرّجوع إليه ليحاسب كلّاً منّا على ما قدَّم، وما دُمْنا قد عرفنا ذلك، فعلينا أن نحترم المرجع إلى الله ﷻ، وننظر ماذا أمرنا، وإذا تتبّعنا هذا الفعل في القرآن الكريم نجد أنّه جاء مرّة مبنيّاً للمجهول: ﴿تُرْجَعُونَ﴾، ومرّة: (تَرجعون)، ﴿تُرْجَعُونَ﴾: وهو للكافر الّذي تأبَّى على الله ﷻ، فنقول له: ستُرجع إلى الله ﷻ، وتُقذف في النّار غَصباً عنك، ورَغْماً عن أنفك، فإنْ تأبَّيْتَ على الله ﷻ في الدّنيا، فلن تتأبَّى عليه في الآخرة، ويأتي مبنيّاً للمعلوم: (تَرجعُون): وهو للمؤمن الّذي يشتاق لثواب الآخرة، فيتهافت بنفسه ويُقبل عليه.

سُورَةُ (العنكبوت)

الآيات: (١-٤٥)

سورة العنكبوت

سبب تسمية سورة العنكبوت لذكر العنكبوت فيها: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾، وهي السّورة التّاسعة والعشرون في ترتيب المصحف، عدد آياتها تسع وستّون آية، اختُلِف في كونها مكّيّة أو مدنيّة، نزلت بعد سورة الرّوم، قبل سورة المطفّفين، ترتيبها الخامسة والثّمانون في ترتيب نزول القرآن الكريم، وهي من السّور الّتي بدأت بالأحرف المقطّعة.

(الآية ١) - ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾:

سبق أنْ تكلّمنا كثيراً عن الحروف المقطّعة في بدايات سور القرآن الكريم، وما دام الحقّ ﷻ يُكرّرها فعلينا أيضاً أن نُكرِّر الحديث عنها بإيجاز، هي مفاتيح قلوب وأوتار، تفتح القلوب والأرواح، هذه الأحرف المقطّعة إعجاز بأنّ القرآن الكريم ليس كأيّ كتاب، فلو أنّ القرآن الكريم كتاب كتبه بشر، فلن يخطر بباله أن يضع فيه أحرفاً لا يعرف معناها إلّا من كتبها، فخذ القرآن الكريم بسرّ الله ﷻ فيه، فهذه أسرار، وهذه الأحرف لتثبت أنّ القرآن الكريم ليس كلام بشر، هذه واحدة -والله أعلم- وهناك أسباب كثيرة، وأيضاً القرآن الكريم مؤلّف من هذه الأحرف، فأتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين، فكأنّ الحقّ ﷻ يقول لنا: إنّ القرآن الكريم مُعْجز، بدليل أنّكم تملكون حروفه نفسها، ومع ذلك عجزتُمْ عن معارضته، فقد استخدم القرآن الكريم حروفكم ذاتها، وكلماتكم وألفاظكم ذاتها، وجاء بها في صورة بليغة، عَزَّ عليكم الإتيان بمثلها، أيضاً هذه الأحرف لو جمعناها، سنجدها

أربعة عشر حرفاً، تُجمع بجملة: (نص حكيم له سر قاطع)، وهي نصف أحرف الأبجديّة، فهي تُشير إلى أسرار، والنّبيّ ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»[1]، وليؤكّد هذا المعنى جعلها على الوقف، كلّ حرف على حدة، فالقرآن الكريم ليس فقط للتّلاوة والقراءة والعلم والعمل، لكن خذ من عطاءات القرآن الكريم حتّى ولو بالحرف، ولهذه الأحرف معان أخرى.

(الآية ٢) - ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾:

هذه الآية تعطي ملخّصاً لحياة البشر جميعاً، وتُريح كلّ مؤمن على الإطلاق، وتُعطي مختصر القوس الأوّل والقوس الثّاني: ﴿۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه]، منذ أن يولد الإنسان من بطن أمّه، إلى أن يوضع تحت التّراب وهو يُبكَى عليه، يخضع لهذا القانون، فالحياة كلّها ابتلاءات وفتن.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾: الفعل (حسِب) بالكسر في الماضي، وبالفتح في المضارع (يحسَب) يعني: ظنّ.

أمّا حسَب والمضارع يحسِب بالكسر؛ أي: عَدَّ.

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبوابُ فضائلِ القرآنِ، بابُ ما جاءَ فِيمَنْ قرأَ حرفاً مِنَ القرآنِ مالهُ مِنَ الأجرِ، الحديث رقم (٢٩١٠).

فالمعنى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: ظنّوا، والهمزة للاستفهام، وهي تُفيد نفي هذا الظّنّ وإنكاره؛ لأنّهم حَسِبوا وظنّوا أنْ يتركهم الله ﷻ دون فتنة وتمحيص واختبار وابتلاء وموت ومرض وفقر... والحقّ ﷻ يريد أن يحمل أولوا العزم رسالة الإسلام؛ لأنّ الإسلام لا يتصدَّى لحمل دعوته إلّا أقوياءُ الإيمان الّذين يقدرون على حمل مشاقّ الدّعوة وأمانة تبليغها، والإيمان ليس كلمة تُقال، إنّما مسؤوليّة كبرى، هذه المسؤوليّة هي الّتي منعتْ كفّار مكّة أنْ يؤمنوا؛ لأنّهم يعلمون أنّ كلمة لا إله إلّا الله ليست مجرّد كلمة وإلّا لَقَالوها، إنّما هي منهج حياة له متطلّبات افعل ولا تفعل، هذا حلال وهذا حرام، فيها ضبط الشّهوات، إنّها تعني: لا مُطَاعَ إلّا الله ﷻ، ولا معبود بحقٍّ إلّا الله ﷻ، وهم لا يريدون هذه المسألة لتظلّ لهم مكانتهم وفسادهم وسلطتهم الزّمنيّة، لذلك يقول ﷻ هنا: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، فالإيمان ليس قَوْلاً فحسب: ﴿*قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ﴾ [الحجرات: من الآية ١٤]؛ لأنّ القول قد يكون صِدْقاً، وقد يكون كذباً، فلا بُدَّ بعد القول من الاختبار وتمحيص الإيمان.

﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾: فإنْ صبر على الابتلاءات وعلى المحن فهو صادق الإيمان، ويؤكّد ﷻ هذا المعنى في آية أخرى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ﴾ [الحجّ: من الآية ١١]، وقد محَّص الله ﷻ السّابقين الأوّلين من المؤمنين بآيات وخوارق تخالف النّاموس الكونيّ، فكان المؤمن يُصدّق بها، ويؤمن بصِدْق الرّسول الّذي جاء بها، أمّا المتردّد المتحيّر فيُكذِّب بها، ويراها غير معقولة، ومن ذلك ما كان

من سيّدنا الصّدّيق أبي بكر ﷺ في حادثة الإسراء والمعراج، فلمَّا حدَّثوه بما قال رسول الله ﷺ قال: "إنْ كان قال فقد صدق"، في حين ارتدّ بعضهم وكذَّبوا، وكأنّ الحقّ ﷻ يريد من هذه الخوارق، الّتي يقف أمامها العقل أنْ يُميِّز بين النّاس ليحمل أمر الدّعوة أشدّاءُ الإيمان والعقيدة، ومَنْ لديهم يقين بصِدْق الرّسول في البلاغ عن ربّه ﷻ، فلا يعتقد أحد أنّه يمكن أن تكون له الحظوة الإيمانيّة إلّا من خلال صبره وإيمانه بربّه وبامتثال أوامر ربّه ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة].

﴿يُفْتَنُونَ﴾: يُخْتبرون، مأخوذة من فتنة الذّهب، حين نصهره في النّار لنُخرِج ما فيه من خَبَث، ونُصفِّي معدنه الأصليّ، فيما يناسب مهمّته، ومن ذلك ما ضربه الله ﷻ لنا مثلاً للحقّ والباطل في قوله ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرّعد]، فالفتنة ما كانت إلّا لنعرف الصّادق في القَوْلة الإيمانيّة والكاذب فيها: الصّادق سيصبر ويتحمّل، والكاذب سينكر ويتردّد.

(الآية ٣) - ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ﴾: الحقّ ﷻ يُسلّي السّابقين من أمّة محمّد ﷺ الّذين عُذّبوا وأوذوا، وضُرِبوا بالسّياط تحت حَرّ الشّمس، ووُضِعت الحجارة

النّقال على بطونهم، والّذين جاعوا حتّى أكلوا الميتة وأوراق الشّجر، يُسلّيهم: لَسْتم بدعاً في هذه الابتلاءات فاصمدوا لها كما صمد السّابقون من المؤمنين، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فانظر مثلاً إلى ابتلاء قوم موسى عليه السلام مع فرعون، فابتلاؤكم أهون وأخفّ، وفيه رحمة من الله سبحانه وتعالى بكم وأنتم أيسر منهم.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾: وقد يقول قائل: ألم يكُن الله تعالى يعلم حقيقتهم قبل أنْ يبتليهم؟ الجواب: بلى، يعلم سبحانه وتعالى حقيقةَ عباده، وليس الهدف من اختبارهم العلم بحقيقتهم، إنّما الهدف أنْ يُقرّ العبد بما عُلِم عنه، فهو عِلْم ظهور وإقرار من صاحب الشّأن نفسه، بحيث لا يستطيع إنكاراً، حيث سيشهد هو على نفسه حين تشهد عليه جوارحه.

(الآية ٤) - ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ﴾: هنا أيضاً: ﴿حَسِبَ﴾؛ أي: ظنّ الّذين يعملون السّيّئات.

﴿أَن يَسْبِقُونَا ۚ﴾: أي: يُفلتوا من عقابنا، تقول: سبق فلان فلاناً، يعني: أفلت منه وهو يطارده، فالمعنى: أنّهم لن يستطيعوا الإفلات من العذاب أو الهرب منه، وإنْ كانوا يعتقدون ذلك أو يظنّونه، فبئس هذا الظّنّ.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: أي: قَبُح حكمهم وبَطُل، وحين نحكم على ظنّهم وعلى حكمهم بالبطلان فإنّما نثبت قضيّتنا، وهي أنّهم لن يُفْلِتوا من عقابنا.

(الآية ٥) - ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٥﴾:

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾: يعني: يؤمن به وينتظره ويعمل من أجله، يؤمن أنّ الله ﷻ الّذي خلقه وأعدَّ له هذا الكون ليحيا حياته الطّيّبة، سيُعيده ويحاسبه، لذلك إنْ لم يعبده ويطعْه شُكْراً له على ما وهب، فليعبده خوفاً منه أنْ يناله بسوء في الآخرة، وأهل المعرفة يروْنَ فرقاً بين مَنْ يرجو الثّواب ويرجو رحمة الله ﷻ، ومن يرجو لقاء الله ﷻ لذات اللّقاء، لا خوفاً من نار، ولا طمعاً في جنّة، مع أنّ المطلوب أن يخاف الإنسان من النّار ويطمع في الجنّة، لذلك تقول السّيّدة رابعة العدويّة:

كُلُّهم يَعْبدُونَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ ... ويروْنَ النّجاةَ حَظّاً جَزِيلاً
أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الجِنانَ فيحظَوْا ... بقُصُورٍ ويَشْرَبُوا سَلْسَبِيلاً
لَيْسَ لي بالجِنَانِ والنَّارِ حَظٌّ ... أَنَا لَا أَبْتَغِي بِحبّي بَدِيلاً

أي: أحبّك يا ربّ؛ لأنّك تُحَبُّ لذاتك، وهي أيضاً القائلة: "اللّهمّ إنْ كنتَ تعلم أنّي أحبّك طمعاً في جنّتك فاحرمني منها، وإنْ كنتَ تعلم أنّي أعبدك خوفاً من نارك فاحرقني بها"، هذا كلام العارفين الواصلين، ولا يمكن أن يقوله أيّ إنسان، ويقول ﷻ في سورة الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ [الكهف: من الآية ١١٠]، ولو كانت الجنّة؛ لأنّ لقاء الله ﷻ أعظم، وهو الّذي يُرْجى لذاته، والحقّ ﷻ يؤكّد هذه المسألة بأكثر من مؤكّد:

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ﴾: فأكَّده بـ: إنّ واللّام وصيغة اسم الفاعل الدّالّة على تحقُّق الفعل، كما قال ﷻ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: من الآية ٨٨]، ولم يقل: سيهلك، وقوله ﷻ مخاطباً نبيّه محمّداً ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزّمر]، يخاطبهم بهذه الصّيغة وهم ما يزالون أحياءً؛ لأنّ الميّت: مَنْ يؤول أمره وإن طال عمره إلى الموت، أمّا مَنْ مات فعلاً فيُسمَّى مَيْت، فحينما يتكلّم مَنْ يملك أزِمّة الأمور كلّها، ويعلم ﷻ أنّه لن يفلت أحد منه، وعندما يحكم، فليس للزّمن اعتبار في فعله، لذلك لم يقل ﷻ: (إنّ أجل الله سيأتي)، بل: ﴿لَآتٍۚ﴾ على وجه التّحقيق، وسبق أنْ ذكرنا في هذا الصّدد قوله ﷻ عن القيامة: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١]، وقد وقف السّطحيّون أمام هذه الآية، يقولون: وهل يستعجل الإنسان إلّا ما لم يَأْتِ بَعْد؟ لأنّهم لا يفهمون مراد الله ﷻ، وليست لديهم مَلَكة اللّغة العربيّة، فالله تعالى يحكم على المستقبل، وكأنّه ماضٍ؛ أي: مُحقّق؛ لأنّه ﷻ لا يمنعه عن مراده مانع، ولا يحول دونه حائل، ولفظ الأجل جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، منها: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف]، وفي الآية الّتي معنا: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ﴾، والأجلان مختلفان بالنّسبة إلى الحضور الحياتيّ للإنسان، فالأجل الأوّل يُنهي الحياة الدّنيا، والأجل الآخر يُعيد الحياة في الآخرة للقاء الله ﷻ، فالأجلان مرتبطان. والحقّ ﷻ حينما يعرض لنا قضيّة غيبيّة يُؤنِسنا فيها بشيء حسّيٍّ معلوم لنا، حتّى يستطيع العقل أن ينفذ من الحسّيّ إلى الغيبيّ غير المشاهَد، ونحن نرى أنّ أعمار بني آدم في هذه الحياة تتفاوت: فواحد تغيض به

الأرحام، فلا يخرج للحياة، وواحد يتنفّس زفيراً واحداً ويموت.. إلخ، وفي كلّ لحظة من لحظات الزّمن نعاين الموت، مَنْ يموت بعد نفَس واحد، ومَنْ يموت بعد المئة عام، فلا رتابة في انقضاء الأجل، لا في سِنّ ولا في سبب، فهذا يموت بالمرض، وهذا بالغرق، وهذا يموت على فراشه.

ومن لم يمت بالسّيف مات بغيره تعدّدت الأسباب والموت واحد

فليس في الموت رتابة، كما قال الشّاعر:

إنَّ الطّبيبَ لهُ علمٌ يُدِلُّ بِهِ إن كان للمرءِ في الأيّامِ تأخيرُ

حتّى إذا ما انتهت أيّامُ رحلتِهِ حارَ الطّبيبُ وخانتــه العقاقيرُ

والحقّ ﷻ حينما يقول: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف]، نجد واقع الحياة يؤكّد هذا، فلا وحدةَ في عمر، ولا وحدةَ في سبب، والصّدق في الأجل الأوّل المشاهد لنا يدعونا إلى تصديق الأجل الآخر، وأنّ أجل الله لآت، فالأجل الّذي أنهى الحياة بالاختلاف هو الّذي يأتي بالحياة بالاتّفاق، فبنفخة واحدة سنقوم جميعاً أحياءً للحساب، فإن اختلفنا في الأولى فسوف نتّفق في الآخرة؛ لأنّ الأرواح عند الله ﷻ من لَدُنْ آدم عليه السلام وحتّى تقوم السّاعة، وبنفخة واحدة يقوم الجميع، وسبق أن قُلْنا: إنّ الأزمان ثلاثة: حاضر نشهده، وماضٍ غائب عنّا لا نعرف ما كان فيه، ومستقبل لا نعرف ما يكون فيه، والحقّ ﷻ يعطي لنا في الوجود المشاهَد دليلَ الصّدق في غير المشاهَد، فنحن مثلاً لا نعرف كيف خُلِقْنا الخَلْق الأوّل إلّا من خلال ما أخبرنا الله ﷻ به من أنّ أَصلْ الإنسان تراب اختلط بالماء حتّى صار طيناً، ثمّ حمأ مسنوناً، ثمّ صلصالاً كالفخّار..

إلخ، ثمّ جعل نسل الإنسان من نطفة تتحوّل إلى علقة، ثمّ إلى مضغة، ثمّ إلى عظام، ثمّ تُكْسى العظام لحماً، وإنْ كان العلم الحديث أرانا النّطفة والعلقة والمضغة، وأرانا كيف يتكوَّن الجنين، فيبقى الخَلْق الأوّل من تراب غيباً لا يعلمه أحد، يقول ﷻ: ﴿* مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]، فلا علمَ لأحد بخَلْق الإنسان الأوّل، وإذا كان المؤمن مُصدِّقاً بقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر]؛ لأنّه آمن بالله ﷻ، وآمن بما جاء به رسول الله ﷺ، فكيف بمَنْ لا يؤمن ولا يُصدِّق؟ لذلك يُؤنِس الحقّ ﷻ هذه العقول المستشرفة لمعرفة حقائق الأشياء بما تشاهد: فإنْ كنتَ لا تُصدّق مسألة الخَلْق فأنت بلا شكّ تشاهد مسألة الموت وتعاينه كلّ يوم، والموت نَقْضٌ للحياة، ونَقْض الشّيء يأتي عكْس بنائه، والخالق ﷻ أخبر أنّ الرّوح هي آخر شيء في بناء الإنسان، لذلك هي أوّل شيء يُنقَض فيه عند الموت، فمشهدك في كيف تموت، يؤكّد لك صِدْق الله ﷻ في كيف جئت؟ وأجل الآخرة أمر لا بُدَّ منه ليُثاب المطيع ويُعَاقب العاصي، ونحن نرى أنّ النّظم الاجتماعيّة حتّى عند غير المؤمنين تأخذ بهذا المبدأ لاستقامة حركة الحياة، فما بالنا بمنهج الله ﷻ في خَلْقه، أيترك الظّالم والمجرم يُفلِت من العقاب في الآخرة بعد أنْ أفلت من عقاب الدّنيا؟ ثمّ تُختمَ الآية بقوله ﷻ:

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: ألا نرى أنّه ﷻ لو قال: العليم فقط لشملَ المسموع أيضاً؛ لأنّ العلم يحيط بكلّ المدركات؟ فلماذا قال: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؟ قال العلماء: لأنّ اللّغة العربيّة حينما تكلّمتْ عن العمل والفعل

والقول، قسَّمت الجوارح أقساماً: فاللّسان له القول، وبقيّة الجوارح لها الفعل، وهما جميعاً عمل، فالقول عمل اللّسان، والفعل عمل بقيّة الجوارح، فكأنّ اللّسان أخذ شطر العمل، وبقيّة الجوارح أخذت الشّطر الآخر، لذلك يقول ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ»[1]، وعن سيّدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه من حديث طويل: فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[2]، وباللّسان معرفة الإيمان، فحينما يقول الإنسان: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، فهي أشرف ما يعمل به.

وباللّسان بلاغ الرّسول ﷺ عن الله ﷻ لخَلْقه، فأفعال الجوارح الشّرعيّة ناشئة من اللّسان ومن السّماع؛، لذلك جعل القول -وهو عمل اللّسان- شطر العمل كلّه، ولأهمّيّة القول قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصّف]، فكلّ فعل ناشيء عن انصياع لقول أو سماع لقول، لذلك ختم ﷻ هذه الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

(الآية ٦) - ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾:

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾: كلمة: ﴿جَٰهَدَ﴾: تناسب النّجاح في الابتلاء، والجهاد: بذْل الجهد في إنفاذ المراد، ومنه اجتهد فلان في كذا، يعني: عمل أقصى ما

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: ج١٧، أبو أُمَامَةَ الباهليُّ، عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ، الحديث رقم (٧٤١).
(٢) سنن التّرمذيّ: أبوابُ الإيمانِ، بابُ ما جاءَ في حُرْمَةِ الصَّلاةِ، الحديث رقم (٢٦١٦).

في وُسْعه من الجدِّ والاجتهاد في أن يستنبط الحكم، والجهاد له مجالان: مجال في النّفس يجاهدها ليقْوَى بمجاهدة نفسه على مجاهدة عدوّه، والمجال الثّاني مجاهدة عدوّه، وجاهد مجاهدة: على وزن مفاعلة، كأنّ الشّيء الّذي تريده صعب، يحتاج إلى جهد منك ومحاولة، والمفاعلة تكون من الجانبين: منك ومن الشّيء الّذي يقابلك، وأوّل ميادين الجهاد النّفس البشريّة؛ لأنّ ربّك ﷻ خلق فيك غرائز وعواطف لمهمّة تؤدّيها، ثمّ يأتي منهج السّماء ليكبح هذه الغرائز ويُرقّيها، حتّى لا تنطلق معها إلى ما لا يُباح، فهذه الغرائز تحتاج منّا إلى مجاهدة، لتظلّ في حَدّ الاعتدال، عملاً بالأثر: "نحن قوم لا نأكل حتّى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع"، وكم تحلو اللّقمة بعد الجوع مهما كانت بسيطة وغير مُكلِفة، لذلك يقولون: نِعْم الإدام الجوع، ثمّ إذا أكلتَ لا تملأ المعدة، ودع كما قال رسول الله ﷺ: «**فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»[1]، وبهذا المنهج الغذائيّ الحكيم نضمن بنية سليمة وعافية لا يخالطها مرض، فالغرائز خلقها الله ﷻ فينا لمهمّة، فعلينا أنْ نقف بها عند مهمّتها، ومثل الغرائز العواطف من حبّ وكُرْه وشفقه وحُزْن.. إلخ، وهذه ليس لها قانون إلّا أنْ نقفَ بها عند حدود العاطفة لا نتعدّاها إلى النّزوع، فأحبب مَنْ شئتَ وأبغض مَنْ شئتَ، لكن لا تتعدَّ ولا تُرتّب على العاطفة حكماً، وقد ذكرنا لهذه المسألة مثالاً بسيّدنا عمر ﷺ وكان له أخٌ اسمه زيد قُتل، ثمّ أسلم قاتله، فكان عمر ﷺ كلّما رآه يقول له: ازْوِ عنّي وجهك – يعني: أنا لا أحبّك– فيقول: أوَ عدم حبّك لي يمنعني حقّاً من حقوقي؟ قال

(١) سنن التّرمذيّ: أبوابُ الزُّهدِ، بابُ ما جاءَ في كراهيةِ كثرة الأكْلِ، الحديث رقم (٢٣٨٠).

عمر رضي الله عنه: لا، قال: إنّما يبكي على الحبّ النّساء، ومجيء هذه الآية الّتي تذكر الجهاد بعد قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يطلب من الإنسان الّذي يعتقد أنّ أجلَ الله ﷻ بلقاء الآخرة آتٍ، -وذلك أمر لا شكَّ فيه- يطلب منه أنْ يستعدَّ لهذا اللّقاء.

﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: لأنّ الإنسان طرأ على كون مُهيّأ لاستقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه، فكلّ ما في الكون خادم لنا، ونحن لن نزيد في مُلْك الله ﷻ شيئاً، وكلّ سَعْينا وفكرنا لترف حياتنا نحن، فحين نفعل الخير فلن يستفيدَ منه إلّا نحن، وربّنا غنيّ عن عطائنا، فإنْ جاهدتَ فإنّما تجاهد لنفسك، كما لو امتنَّ عليك خادمك بالخدمة، فتقول له: بل خدمتَ نفسك وخدمتَ عيالك حينما خدمتَ لتوفّر لك ولهم أسباب العيش، وكذلك الحقّ ﷻ يقول لنا: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾؛ أي: حينما يطبّق المنهج ويسير على هُداه، والحقّ ﷻ يؤكّد هذه القضيّة في آيات عديدة: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصّلت]، ويقول ﷻ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٧]، ويقول ﷻ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٦]، فالمسألة منك وإليك، والله ﷻ يعطي الخلق لصلاح الخَلْق وسلامتهم، فالله ﷻ يفيضُ علينا من قدراته قدرة، ومن علمه علماً، ومن بَسْطه بَسْطاً، ومن جبروته جبروتاً، لذلك قال بعض العارفين: "تخلّقوا بأخلاق الله"، فالمجاهدة تشمل ميادين عديدة، مجاهدة الغرائز والعواطف، ومجاهدة مشقّة المنهج في: افعل ولا تفعل، ومجاهدة شياطين الإنس والجنّ،

ومجاهدة الأعداء الّذين يريدون أن يطفئوا نور الله ﷻ، للدّفاع عن الدّين والوطن والعرض، روى البخاريّ عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنا؟ قَالَ: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ**»[1]، ثمّ يطمئنه رسول الله ﷺ على أنّ هذه الفترة –فترة الابتلاء– لن تطول، فيقول: «**وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[2]، والنّبيّ ﷺ وهو خاتم النّبيّين، يدخل عليه سيّدنا أبو سعيد الخدريّ رضي الله عنه فيجد رسول الله ﷺ يشتكي حرارة الحمّى، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللِّحَافِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ، قَالَ: «**إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ**»[3]، ذلك ليثبت أنّ البلاء لا يكون فقط من الأعداء، إنّما هو من سنّة الحياة؛ لأنّ الله ﷻ يباهي ملائكته بخَلْقه الطّائعين المخبتين الصّابرين،

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ المناقبِ، بابُ علاماتِ النُّبوَّة في الإسلام، الحديث رقم (٣٦١٢).

(٢) صحيح البخاريّ: كتابُ المناقبِ، بابُ علاماتِ النُّبوَّة في الإسلام، الحديث رقم (٣٦١٢).

(٣) سنن ابن ماجه: كتابُ الفتنِ، بابُ الصَّبرِ على البلاءِ، الحديث رقم (٤٠٢٤).

فيقولون: كيف لا يحبّونك ويقبلون على طاعتك، وقد أنعمتَ عليهم بكذا وكذا، ويذكرون حيثيّات هذه الطّاعة، فيقول ﷻ: وأسلب كلّ ذلك منهم ويحبّوني؛ أي: يحبّوني لذاتي. ثمّ تختم هذه الآية بقوله ﷻ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: لأنّ ميادين الجهاد هذه لا يعود منها شيء إلى الله ﷻ، ولا تزيد في مُلكه شيئاً، إنّما يستفيد منها العبد؛ لأنّه ﷻ الغنيّ عن طاعة الطّائعين وعبادة المتعبّدين، ليس غنيّاً عنهم وفقط، إنّما هو سبحانه الّذي يُغنيهم ويُفيض عليهم من فَضلْه ومن غِناه، قال ﷺ فيما يرويه عن ربّه ﷻ: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[1].

(الآية ٧) - ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي: بالله ﷻ ربّاً، له كلّ صفات الكمال المطلق، وله طلاقة القدرة، وله طلاقة الإرادة، وهو المهيمن، ثمّ:

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، بابُ تحريم الظُّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: لأنّ العمل الصّالح ثمرة الإيمان، والصّالح: هو الشّيء يظلُّ على طريقة الحُسْن فيه فلا يتغيّر، فقد أقبلنا على عالم خلقه الله ﷻ لنا على هيئة الصّلاح فلا نفسده، وهذا أضعف الإيمان أنْ نُبقِي الصّالح على صلاحه، فإن أردنا الارتقاء، فيجب أن نزِيده صلاحاً، يقول ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ [البقرة]، فقد أعدَّ الله ﷻ لنا الأرض صالحة بكلّ نواميسها وقوانينها، فالصّالح: كلّ عمل وفكر يزيد صلاحَ المجتمع في حركات الحياة كلّها، وإيّانا أن نقول: إنّ هناك عملاً أشرف من عمل، فكلّ عمل مهما رأيناه هيّناً -ما دام يؤدّي خدمة للمجتمع، ويُقدِّم الخير للنّاس- فهو عمل شريف، فقيمة الأعمال هي قيمة العامل الّذي يُحسِنها وينفع النّاس بها، يعني: ليس هناك عمل أفضل من عمل، إنّما هنَاك عامل أفضل من عامل، لذلك يقولون: قيمة كلّ امرىء مَا يُحسِنه. ثمّ يذكر الحقّ ﷻ جزاء الإيمان والعمل الصّالح:

﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: وهنا تتجلّى العظمة الإلهيّة، حيث بدأ بتكفير السّيّئات وقدَّمها على إعطاء الحسنات؛ لأنّ التّخلية قبل التّحلية، والقاعدة تقول: إنّ دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة، فهَبْ أنّ واحداً يريد أنْ يرميك مثلاً بحجر، وآخر يريد أنْ يرمي لك تفّاحة، فأيّهما تستقبل أوّلاً؟ لا شكَّ أنّك ستدفع أذى الحجر عن نفسك أوّلاً، والخالق ﷻ يعلم طبيعة عباده وما يحدث منهم من غفلة وانصراف عن المنهج يُوقِعهم في المعصية، وما دام أنّ الشّرع يُعرّف لنا الجرائم ويُقنّن العقوبة عليها، فهذا إذنٌ منه بأنّها ستحدث، لذلك يقول ﷻ لعباده: اطمئنّوا، فسوف أطهّركم من هذه

الذّنوب أوّلاً قبل أنْ أعطيكم الحسنات؛ ذلك لأنّ الإنسان بطبعه أميل إلى السّيّئة منه إلى الحسنة، فيقول ﷻ: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، بل وأكثر من ذلك، ففي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان]، فأيُّ كرم بعد أنْ يُبدّل الله ﷻ السّيّئة حسنةً، فلا يقف الأمر عند مجرّد تكفيرها، وفي موضع آخر يقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: من الآية ١١٤]، وفي الحديث الشّريف: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»(١)، ثمّ يذكر ﷻ الحسنة بعد ذلك:

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: قلنا: إنّ الحقّ ﷻ إذا أراد أنْ يعطي الفقير يقترض له من إخوانه الأغنياء: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٥]، وبعد ذلك ينتقل الحقّ ﷻ إلى الدّائرة الأولى في تكوين المجتمع، وهي دائرة الأسرة المكوَّنة من: الأب، والأمّ، والأولاد، فأراد ﷻ أن يُصلح اللّبنة الأولى ليصلح المجتمع كلّه، فقال تبارك وتعالى:

(الآية ٨) - ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾: الوالدان يربّيان ويتعبان ويسهران على الأبناء حتّى يكبروا، ويصير الأبناء إلى قوّة، في حين يصيران هما إلى الضّعف، وإلى الحاجة لمن يخدمهما، وهنا عظمة التّشريع الإسلاميّ، انظروا في حال

(١) سنن التّرمذيّ: أبوابُ البرّ والصّلة، بابُ ما جاء في مُعاشرة النَّاسِ، الحديث رقم (١٩٨٧).

الغربيّين مثلاً، وكيف أنّ الأبناء يتركون الآباء دون رعاية، وربّما أودعوهم دار المسنّين في حالة برّهم بهم، وفي الغالب يتركونهم دون حتّى السّؤال عنهم، لذلك تتجلّى لنا عظمة الإسلام وحكمة منهج الله ﷻ في مجتمعنا، حيث أراد الله ﷻ أن يبني الأسرة على لبنات سليمة، تضمن سلامة المجتمع المؤمن، فكان البرّ بالوالدين أوّلاً، فقال ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، وفي موضع آخر قال ﷻ في الوصيّة نفسها: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: من الآية ١٥]، وفَرْق بين المعنيين: ﴿حُسْنًا﴾؛ أي: أوصيك بأنْ تعملَ لهم الحُسْن ذاته، كما تقول: فلان عادل، وفلان عَدْل، فوصَّى بالحسْن ذاته، أمّا في قوله ﷻ: ﴿إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: من الآية ١٥]، فوصيّة بالإحسان إليهما، لكن، لماذا وصَّى هنا بالحُسْن ذاته، ووصَّى هناك بالإحسان؟ قالوا: وصَّى بالحسن ذاته في الآية الّتي تذكر اللّدد الإيمانيّ، حيث قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، والكفر يستوجب العداوة والقطيعة، ويدعو إلى الخصومة، فأكَّد على ضرورة تقديم الحسن إليهما لا مجرّد الإحسان؛ لأنّ الأمر يحتاج إلى قوّة تكليف، أمّا حين لا يكون منهما كفر، فيكفي في برّهما الإحسان إليهما، لذلك يقول ﷻ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: من الآية ١٥]، والحقّ ﷻ حين يُوصي بالوالدين، وهما السّبب المباشر في الوجود، إنّما ليجعلهما وسيلةَ إيضاح لأصل الوجود، وبما أنّه أوصانا بهما فمن باب أَوْلى أن يوصينا بمَنْ وهب لنا أصل هذا الوجود، هذا إيناس بالإيمان، بيَّنه ﷻ في قوله: ﴿* وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النّساء: من الآية ٣٦]؛ لأنّهما سبب الوجود الجزئيّ، والله ﷻ سبب الوجود الكلّيّ، وهنا

يقول ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، يعني: تذكَّر هذا الحكم، فسوف أسألك عنه يوم القيامة، ففي موضع آخر: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾ [لقمان: من الآية ١٥]، فكُفْر الوالدين لا يعني السّماحَ للولد بإهانتهما أو إهمالهما أو الإساءة إليهما، فليحذر الإنسان؛ لأنّه سيُسأل أمام الله ﷻ: أصنعتَ معهما المعروف أم لا؟ وحيثيّات الوصيّة بالوالدين: الأب والأمّ ذُكرت في الآية الأخرى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنٗاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: من الآية ١٥]، نلحظ أنّ الحيثيّات كلّها للأمّ، ولم يذكر حيثيّة واحدة للأب إلّا في قوله ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: من الآية ٢٤]، وهذه تكون في الآخرة، قال العلماء: ذكر الحيثيّات كلّها للأمّ؛ لأنّ متاعب الأمّ كانت حال الصّغَر، والطّفل ليس لديه الوعي الّذي يعرف به فَضْل أمّه وتحمُّلها المشاقّ من أجله، وحين يكبر وتتكوَّن لديه الإدراكات يجد أنَّ الأب هو الّذي يقضي له كلّ ما يحتاج إليه، فحيثيّات الأب معلومة مشاهَدة، أمّا حيثيّات الأمّ الّتي غابت عنه فتحتاج إلى بيان.

(الآية ٩) - ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩﴾:

فقدّم الإيمان؛ لأنّه الأصل، ثمّ العمل الصّالح، وكأنّ الدّخول في الصّالحين مسألة كبيرة، وهي كذلك، ويكفي أنّها مُتَمنّى حتّى الأنبياء أنفسهم، كما قال سيّدنا سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النّمل: من الآية ١٩]، والإيمان مرهون بالعمل الصّالح، قال ﷻ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر]، فالإيمان هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل.

(الآية ١٠) - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: هنا دليل على القول باللّسان، وعدم الصّبر على الابتلاء، فالقول هنا لا يؤيّده العمل، ولمثل هؤلاء يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [الصّفّ]، ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: من الآية ١٤]، ويقول ﷻ في صفات المنافقين: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۘ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ [المنافقون]، فالله ﷻ لا يُكذّبهم في أنّ محمّداً رسول الله، إنّما في شهادتهم أنّه رسول الله؛ لأنّ الشّهادة لا بُدَّ لها أنْ يواطئ القلب اللّسان، وهذه لا تتوفّر لدى المنافق.

﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾: أي: بسبب الإيمان بالله، فلم يفعل شيئاً يؤذى من أجله، إلّا أنّه آمن.

﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾: فتنة النّاس؛ أي: تعذيبهم له على إيمانه كعذاب الله ﷻ، فخاف عذاب النّاس وسوَّاه بعذاب الله ﷻ الّذي يحيق به إنْ كفر، وهذا غباء في المساواة بين العذابين؛ لأنّ عذابَ النّاس سينتهي

ولو بموت المؤذي المعذِّب، أمّا عذاب الله ﷻ في الآخرة فباقٍ لا ينتهي، والنّاس تُعذّب بمقدار طاقتها، والله ﷻ يُعذّب بمقدار طاقته ﷻ وقدرته، فالقياس هنا قياس خاطئ، وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة، فالقاعدة الأصوليّة تقول: إنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب، وكان عيّاش بن أبي ربيعة أخا عمرو بن هشام أبو جهل والحارث بن هشام من الأمّ الّتي هي أسماء، فلمّا أنْ أسلم عيّاش ثمّ هاجر إلى المدينة حزنت أمّه أسماء، وقالت: لا يظلّني سقف، ولا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً، ولا أغتسل حتّى يعود عيّاش إلى دين آبائه، وظلّت على هذه الحال الّتي وصفتْ ثلاثة أيّام حتى عضَّها الجوع، فرجعت، وكان ولداها الحارث وأبو جهل قد انطلقا إلى المدينة ليُقنِعا عيّاشاً بالعودة لاسترضاء أمّه، وظلّا يُغريانه ويُرقّقان قلبه عليها، فوافق عيّاش على الذّهاب إلى أمّه، لكنّه رفض الرّدّة عن الإسلام، فلمّا خرج الثّلاثة من المدينة قاصدين مكّة أوثقوه في الطّريق، وضربه أبو جهل مئة جلدة، والحارث مئة جلدة، لكنّ أبا جهل كان أرأف به من الحارث، لذلك أقسم عيّاش بالله لئن أدركه يوماً ليقتلنّه حتّى إنْ كان خارجاً من الحرم، وبعد أن استرضى عيّاش أمّه عاد إلى المدينة، فقابل أخاه الحارث عند قباء، ولم يكن يعلم أنّه قد أسلم فعاجله، ونفّذ ما توعّده به فقتله، ووصل خبره إلى رسول الله ﷺ ونزلت الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النّساء: من الآية ٩٢]، ونزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أراد أنْ يفرّ من عذاب النّاس.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾: أي: اجعلوا لنا سهماً في المغنم.

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: فالله ﷻ يعلم ما يدور في صدورهم وما يتمنّونه لنا، ولذلك يقول ﷻ عنهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: من الآية ٤٧].

(الآية ١١) - ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾:

نعم، الحقّ ﷻ يعلم حال عباده حتّى قبل أنْ يُخلَقوا، ويعلم ماذا سيحدث لهم، إنّما هناك فَرْق بين علم مُسْبق على الحدث، وعِلْم بعد أنْ يقع الحدث نفسه؛ لأنّه ﷻ لو قال: سأفعل بهم كذا وكذا؛ لأنّي أعلم ما يحدث منهم، لقالوا: لا والله ما كان سيحدث منّا شيء، لذلك يتركهم حتّى يحدث منهم الفعل.

(الآية ١٢) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾: وهذا لَوْن من ألوان الإيذاء أن يقول الّذين كفروا للّذين آمنوا: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾؛ أي: ما نحن عليه من دين الآباء والأجداد، وما نحن عليه من عبادة الأصنام والأوثان، فنحن نعبد آلهة لا تكاليفَ لها ولا مطلوبات، وأنتم تعبدون إلهاً له منهج، وله مطلوبات بـ: افعل كذا ولا تفعل كذا، فالمعنى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾: خُذوا الحكم منّا.

﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾: يعني: اعملوا على مسؤوليّتنا، وإنْ كانت عليكم خطايا سنحملها عنكم، لذلك يقول ﷻ بعدها:

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾: ويؤكّد لنا ﷻ كذبهم أيضاً في قوله ﷻ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة: من الآية ١٦٦]، ويقول التّابعون: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصّلت: من الآية ٢٩]، فغباء الكفّار بيّن في قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، كما هو بيّن في قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: من الآية ٣٢]، وكما هو بيّن في قولهم: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: من الآية ٧]، فهم يعرفون أنّه رسول الله، ومع ذلك يمنعون النّاس من الإنفاق على الفقراء الّذين عنده، إنّه غباء حتّى في المواجهة.

(الآية ١٣) - ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ﴾: وقال ﷻ في موضع آخر: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النّحل]، فالأثقال هي الأوزار، فسيحملون أثقالاً على أثقالهم، وأوزاراً على أوزارهم، فالأثقال الأولى بسبب ضلالهم، والأثقال الأخرى بسبب إضلالهم للغير.

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾: والافتراء: تعمُّد الكذب.

وبعد أن تكلّم الحقّ ﷻ عن المقدّمات في عمومها، أراد أن يتكلّم عنها في خصوص الرّسالات، فقال ﷻ:

(الآية ١٤) - ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾: يقول العلماء: إنّ نوحاً عليه السلام هو أوّل رسل الله سبحانه وتعالى إلى البشر، أمّا مَنْ سبقه مثل آدم وإدريس عليهما السلام، فكانوا أنبياء أوحى الله سبحانه وتعالى إليهم بشرع يعملون به، فيكونون نموذجاً إيمانيّاً، وقدوة سلوك طيّب، يُقلِّدهم مَنْ رآهم، لكنّ هذا كان في البداية قبل نوح عليه السلام، لذلك نُفرّق بين النّبيّ والرّسول، بأنّ الرّسول أُوحي إليه بشرع ورسالة، أمّا النّبيّ أُوحي إليه ولكن ليس معه رسالة، فكلٌّ منهما مُرسَل، لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيّٖ﴾ [الحجّ: من الآية ٥٢]، فالنّبيّ أيضاً مُرسَل، لكنّه مُرسَل دون كتاب سماويّ، لكن لماذا كان هذا قبل نوح عليه السلام بالذّات؟ قالوا: لأنّ الرّقعة الإنسانيّة كانت ضيّقة قبل نوح عليه السلام، وكان النّاس حديثي عهد، لم تنتشر بينهم الانحرافات، فلمّا اتّسعت الرّقعة، وتداخلت أمور الحياة احتاجت الخليقة أنْ يرسل الله سبحانه وتعالى إليهم الرّسل، والحقّ سبحانه وتعالى يأتي بهذه اللّقطة الموجزة من قصّة نوح عليه السلام مع أنّ له سورة مفردة، وله لقطات كثيرة منثورة في الكتاب العزيز، لكنّ هذه اللّقطة تأتي لنا بالبداية والنّهاية فقط، وكأنّها برقيّة في مسألة نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ فالرّسول جاء من القوم، وهذا يعني أنّهم يعرفونه قبل أن يكون رسولاً، ويعرفون خُلقه وكلّ تصرّفاته، وجرّبوا سلوكه وحركته في الحياة، فليس الرّسول بعيداً عنهم أو مجهولاً لهم.

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾: هذا العدد من الممكن أن يؤدّي لمعانٍ كثيرة، فلم يقُلْ: فلبث فيهم تسعمئة وخمسين عاماً، فللأعداد في القرآن الكريم أسرار كثيرة، واقرأ مثلاً: ﴿*وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٢]، وفي آية سورة البقرة، قال الحقّ ﷻ: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: من الآية ٥١]، ففي سورة البقرة إجمال، وفي آية الأعراف تفصيل، والحكمة في هذا أنّ موسى عليه السلام ما إن ذهب لميقات ربّه ﷻ حتّى عبد قومه العجل في مدّة الثّلاثين ليلة، ولم يشأ الله ﷻ أن يترك موسى عليه السلام ليعود لقومه بعد الثّلاثين ليلة، بل أتمّها بعشر أُخر، حتّى لا يعود موسى عليه السلام ويرى ما فعله قومه، فكأنّ العشْرَ زادتْ على الثّلاثين ليلة، ليعطينا الصّورة الأخيرة الموجودة في سورة البقرة، فالمسألة في منتهى الدّقّة، ولو لم يأْتِ بالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ فربّما يظنّ السّامع أنّ المسألة تقريبيّة، لكنّ التّقريب في عَدّ البشر، أمّا في حساب الله ﷻ فهو منتهى الدّقّة، كما لو سُئلت مثلاً عن السّاعة، فتقول: السّاعة العاشرة إلّا دقيقة ونصفاً، يعني: منتهى ما في استطاعتك من حساب الوقت، فإن قال قائل: فلماذا هذه اللّقطة السّريعة من قصّة نوح عليه السلام؟ نقول: هي لتسلية رسول الله ﷺ؛ لأنّ قومه وقفوا منه موقف العداء والمكابرة والتّكذيب، وآذوْا أصحابه، وضيَّقوا الخِنَاق على دعوته، وقد طالتْ هذه المسألة حتّى أخذت ثلاث عشرة سنة من عمر الدّعوة، فسلّاه ربّه ﷻ: اصبر يا محمّد، فقد صبر زميل لك في الدّعوة ألف سنة إلّا خمسين عاماً، يعني مدّة المشقّة الّتي تحمّلتها ما زالت بسيطة هيّنة، وقد تحمَّل أولو العزم من

الرّسل أكثر من ذلك، ونلحظ هنا: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾، ثمّ استثنى منها: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، ولم يقُلْ: خمسين سنة، فاستثنى الأعوام من السّنين، ليدلَّك على أنّ السّنة تعني أيَّ عام ويُرفَع الخلاف؛ لأنّ بعض النّاس يقولون: إنّ السّنة هي الّتي تبدأ من أوّل المحرّم إلى آخر ذي الحجّة، في حين أنّ السّنة ليس من الضّروريّ أنْ تبدأ بالمحرّم وتنتهي بذي الحجّة، إنّما تبدأ في أيّ وقت وتنتهي في مثله بعد عام كامل، فحين نقول: فلان عمره مثلاً عشرون سنة؛ أي: من يوم مولده إلى مثله عشرين مرّة، وكذلك العام، فالسّنة والعام، كلّها سواء أردتَ الحساب بالسّنة الشّمسيّة، أم القمريّة، أم غيرها كما تحبّ، ومعلوم أنّ التّوقيتات عندنا توقيتات هلاليّة بالشّهر العربيّ؛ لأنّ الشّمس لا يُعرف من حركتها إلّا اليوم، إنّما لا نعرف منها الشّهر، الشّهر نعرفه بحركة القمر حين يُولَد الهلال، وبالشّهر نحسب السّنة الّتي هي اثنا عشر شهراً قمريّاً، وتزيد أحد عشر يوماً في السّنة الشّمسيّة، وكأنّ الحقّ ﷻ أراد أنْ يُعْلمنا أنّ السّنة هي العام، لا فَرْق بينهما. ثمّ يذكر ﷻ نهاية هؤلاء القوم الّذين كذّبوا:

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: فالعلّة في أخذهم، لا لأنّهم أعداء، بل لأنّهم ظالمون لأنفسهم بالكفر، وهكذا تنتهي القصّة أو اللّقطة في آية واحدة، الغرض منها تسلية النّبيّ ﷺ، إنْ أبطأ نَصْره على الكفّار، وكلمة: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾: الأخْذ فيه دليل على الشّدّة وقوّة التّناول، لكن بعنف، أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿ٱلطُّوفَانُ﴾: أن يزيد الماء عن الحاجة الرّتيبة للنّاس، فبعد أنْ كان

وسيلة حياة، ومنه كلّ شيء يصبح وسيلة موت وهلاك، وكأنّ الله ﷻ يريد أنْ يلفت أنظارنا إلى المتقابلات في الخَلْق حتّى لا نظنَّ أنّ الخَلْق يسير برتابة.

والمأخوذ هنا هم المكذّبون لنوح عليه السلام الّذين ظلموا أنفسهم لمّا كذَّبوا رسولهم، ولم يستمعوا للهدى، ثمّ يُنجِّي الله ﷻ نوحاً عليه السلام بالسّفينة الّتي قال ﷻ عنها في سورة هود: ﴿* وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرِىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هود: من الآية ٤١]، وقد أمره الله ﷻ بصناعة السّفينة: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [هود]، فكان نوح عليه السلام على علم بعاقبة المكذّبين الظّالمين من قومه، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَـِٔسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [هود]، والسّفينة لم تكن معروفة لهؤلاء القوم، وليس لها مثال سابق لديهم، بدليل أنّهم تعجَّبوا من فعْل نوح عليه السلام، وسخروا منه وهو يصنعها: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود: من الآية ٣٨]، فكان يردُّ عليهم في نفسه: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: من الآية ٣٨].

(الآية ١٥) - ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾:

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾: أي: فأنجينا نوحاً عليه السلام.

﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾: الّذين يركبون معه فيها، فهم أصحابها، وقد صُنعت من أجلهم، لم يصنعها نوح عليه السلام لذاته، إنّما صنعها لقومه الّذين تعجَّبوا من صناعته لها، وسَخروا منه واستهزؤوا به، فهم أصحابها في الحقيقة،

مَنْ آمن منهم ركب فيها، ومَنْ كفر أبى وأعرض، فكانت نهايته الغرق، فلمّا صنع نوح عليه السلام السّفينة جعلها الله سبحانه وتعالى من حقّ هؤلاء القوم، فقال: ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾، فهي حقٌّ لهم، فليس المراد منها أن يصنعها مثلاً ويُؤجّرها لهم، فقد صُنِعَتْ بأمر الله سبحانه وتعالى من أجلهم، وبفراغ نوح عليه السلام من صناعتها كانت حقّاً لهم، لا مِلْكاً له عليه السلام، لكن كيف نفهم: ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ وقد حمل فيها نوح عليه السلام من كُلٍّ زوجين اثنين؟ قالوا: الزّوجان من غير البشر ليس لهما صُحْبة؛ لأنّهما مملوكان لأصحاب الصُّحْبة.

﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي: أمراً عجيباً لم يسبق له مثيل في حياة النّاس، فقد صنعها نوح عليه السلام بوحي من ربّه عزّ وجلّ على غير مثال سابق، فوجه كَوْنها آية أنّ الله سبحانه وتعالى أعلمه وعلّمه صناعتها؛ لأنّ لها مهمّة إيمانيّة عنده، فبها نجاة المؤمنين وغَرَق الكافرين، وهذه الآية ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ جميعاً.

(الآية ١٦) - ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾:

﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾: الواو هنا لعطف الجمل، فالآية معطوفة على: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾، فنوح وإبراهيم واقعتان مفعولاً به للفعل: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، وللسّائل أنْ يسأل: لماذا لم تُنوَّن (إبراهيم) كما نُوِّنت (نوح)؟ لم تُنوَّن كلمة إبراهيم؛ لأنّها اسم ممنوع من الصّرف؛ أي: من التّنوين؛ لأنّه اسم أعجميّ، ونلحظ في هذه المسألة أنّ جميع أسماء الأنبياء -عليهم السّلام- أسماء أعجميّة تُمنع من الصّرف، ما عدا الأسماء الّتي تبدأ بهذه الحروف: (صن

شمله)، وهي على التّرتيب: صالح، نوح، شعيب، محمّد، لوط، هود -عليهم جميعاً الصّلاة والسّلام- فهذه الأسماء مصروفة مُنوَّنة.

﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾: يعني: واذكر إبراهيم.

﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾: وقلنا: العبادة أنْ يطيع العابدُ المعبودَ في أوامره ونواهيه، ثمّ عطف الأمر: ﴿وَٱتَّقُوهُۖ﴾ على: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾، والتّقوى من معانيها أنْ تطيع الأوامر، وتجتنب النّواهي، فهي مرادفة للعبادة، لكن إنْ عُطِفَت على العبادة فتعني: نفّذوا الأمر لتتّقوا غضب الله ﷻ، اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية، وسبق أنْ قلنا: إنّ لله ﷻ صفات جلال: كالقهّار، الجبّار، المنتقم، المذلّ.. إلخ، وصفات جمال: كالغفّار، الرّحمن، الرّحيم، التّوّاب، وبالتّقوى تنال متعلّقات صفات الجمال أيّها الإنسان، وتمنع نفسك وتحميها من متعلّقات صفات الجلال.

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: ذلكم؛ أي: ما تقدَّم من الأمر بالعبادة والتّقوى خير لكم، فإنْ لم تعلموا هذه القضيّة فلا خيرَ في علمكم، كما قال ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الرّوم: من الآيتين ٦-٧]، وسبق أنْ قُلْنا: إنّ العلم هو إدراك قضيّة كونيّة تستطيع أن تدلّل عليها، وهذا يشمل كلّ معلومة في الحياة؛ أي: العلم المادّيّ التّجريبيّ وآثار هذا العلم في الدّنيا، أمّا العلم السّامي الأعلى فأنْ تعلم المراد من الله ﷻ لك، وهذا للآخرة، واقرأ في ذلك مثلاً قوله ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ

﴿عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر]، فذكر ﷻ علم النّبات والجماد و: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [فاطر: من الآية ٢٨]؛ أي: علم الإنسانيّات، ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ [فاطر: من الآية ٢٨] علم الحيوان، وهكذا جمع كلّ الأنواع والأجناس، ثمّ قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: من الآية ٢٨]، مع أنّه ﷻ لم يذكر هنا أيَّ حكم شرعيّ، فالمراد هنا العلماء الّذين يستنبطون قضيّة يقينيّة في الوجود، كهذه الاكتشافات الّتي تخدم حركة الحياة، وتدلُّ النّاس على قدرة الله ﷻ، وبديع صُنْعه ﷻ، وتُذكّرهم به ﷻ، ولنتأمّل في أنفسنا مثلاً وَضْع القصبة الهوائيّة بجوار البلعوم، ولنتأمّل، وَضْع اللّهاة وكيف تعمل تلقائيّاً دون قَصْد منّا أو تحكّم فيها، ولنتأمّل الأهداب في القصبة الهوائيّة، وكيف أنّها تتحرّك لأعلى تُخرج ما يدخل من الطّعام لو اختلَّ توازن اللّهاة، فلم تُحكِم سدَّ القصبة الهوائيّة أثناء البلع، وهناك آيات كثيرة في جسم الإنسان وفوق الحَصْر، ولا سبيلَ إلى معرفتها إلّا باستنباط العلماء لها، وكشفهم عنها، وهذا من نشاطات الذّهن البشريّ، أمّا العلم الّذي يخرج عن نطاق الذّهْن البشريّ فهو نازل من أعلى، وهو قانون الصّيانة الّذي جعله الخالق ﷻ لحماية الخَلْق، فالّذي يأخذ بالعلم الدّنيويّ التّجريبيّ فقط يُحرَم من الخير الباقي؛ لأنّ قصارى ما يعطي علم المادّة في البشر أنْ يُرفّه حياتهم المادّيّة، أمّا علم الآخرة فيُرفّه حياتهم في الدّنيا، ويبقى لهم في الآخرة، فقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: قانون الصّيانة الرّبّانيّ بـ: افعل كذا ولا تفعل كذا، وإيّاك أنْ تنقل مدلول (افعل) في: (لا تفعل)، أو مدلول (لا تفعل) في: (افعل)، فإنْ لم تعلموا هذه القضيّة فلن ينفعكم علم بعد ذلك، يقول ﷻ: ﴿مَن كَانَ

يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشّورى]، فالخير الباقي هو الخير في الآخرة.

(الآية ١٧) - ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾: أي: على حَدِّ زعمهم، وعلى حَدِّ قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزّمر: من الآية ٣]، وإلّا فلا عبادة لهذه الآلهة، حيث لا أمر عندهم ولا نهي ولا منهج، فعبادتهم باطلة، وهم يعبدون الأوثان من دون الله ﷻ، فإنْ ضُيِّق عليهم الخِنَاق، قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزّمر: من الآية ٣]، فهم بذلك مشركون.

﴿أَوْثَٰنًا﴾: الوثن: ما نُصِب للتّقديس من حجر، أيّاً كان نوعه: حجر جيري، أو مرمر، أو كان من معدن: ذهب أو فضّة أو نحاس.. إلخ أو من خشب، وقد كان بعضهم يصنعه من العجوة، فإنْ جاع أكله، وقد حَكَى هذا على سبيل التّعجُّب سيّدنا عمر ﷺ، لذلك يخاطبهم القرآن الكريم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الصّافّات]، وكلّما تقدَّم العالم تلاشتْ منه هذه الظّاهرة؛ لأنّها مسألة لم تَعُدْ تناسب العقل بأيّة حال.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: أي: توجدون، والإيجاد يكون من عدم، فهم يُوجدون من عدم، لكن أيُوجدون صِدْقاً؟ أم يُوجدون كذباً؟ إنّهم يُوجدون ﴿إِفْكًا﴾، والإفك: تعمُّد الكذب الّذي يقلب الحقائق، ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾ [النّجم]؛ أي: القرى الّتي كفأها الله ﷻ على نفسها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾: في موضع آخر بيَّن لهم الله ﷻ أنّهم يعبدون آلهة لا تضرّ ولا تنفع، وهنا يذكر مسألة مهمّة هي استبقاء الحياة للإنسان بالقُوت الّذي نسمّيه الرّزق، فهذه الآلهة الّتي تعبدونها من دون الله ﷻ لا تملك لكم رزقاً، ولو امتنع عنكم المطر وأجدبت الأرض لمتُّم من الجوع، فكان عليكم أنْ تتأمّلوا: من أين تأتي مقوّمات حياتكم، ومَنْ صاحب الفضل فيها، فتتوجَّهون إليه بالعبادة والطّاعة، والرّزق هو الشُّغل الشّاغل عند النّاس، ففي أوّل الأمر كلّنا يجتهد لنأكل ونشرب ونعيش، وعندما تتحسَّن الأمور نرغب في التّخزين للمستقبل، فالموظّف مثلاً يدّخر لشهر، والزّارع يدّخر للعام كلّه، ومن أعاجيب هذه المسألة أنّنا نجد الإنسان يشترك مع الفأر والنّمل، وهم الوحيدون بين مخلوقات الله ﷻ الّتي تدّخر للمستقبل، أمّا بقيّة الحيوانات فتأخذ حاجتها من الطّعام فقط، وتترك الباقي دون أنْ تهتمَّ بهذه المسألة، أو تُشغَل برزق غد أبداً، فلا يأكلون أكثر من طاقتهم، ولا يدّخرون شيئاً لغدهم، لذلك يُذكِّر الله ﷻ عباده بمسألة الرّزق لأهمّيّتها في حياتهم، ومن عجيب أمر الرّزق أنّه أعرَفُ بمكانك وعنوانك، منك بمكانه وعنوانه، فإنْ قُسِم لك الرّزق جاءك يطرق عليك الباب، وإنْ حُرِمتَ منه أعياك طلبه، ومن أوضح الأمثلة على أنّ الرّزق مقسوم مقدَّر من الله ﷻ لكلّ منّا أنّ المرأة حين تحمل يمتنع عنها الحيض الّذي كان يأتيها بشكل دوريّ قبل الحمل، فأين ذهب هذا الدّم؟ هذا الدّم هو رزق الجنين في بطن أمّه، لا

يأخذه ولا يستفيد به غيره حتّى الأمّ، فإنْ قُدِّر الجنين تحوّل هذا الدّم إلى غذاء له خاصّة، فإنْ لم يُقدَّر للأمّ أنْ تحمل نزل منها هذا الدّم على صورة كريهة، لا بُدّ من التّخلّص منه؛ لأنّه ضارّ بالأمّ إنْ بقي؛ لأنّه ليس رزقها، بل رزق ولدها في أحشائها، ولو لم يكُنْ هذا الدّم رِزْقاً للجنين لكانت الأمّ تضعف كلّما تكرَّرت لها عمليّة نزول الدّم بهذه الصّورة الدّوريّة، فلكلّ منّا رِزْق لا يأخذه غيره، لذلك يقول أحد الصّالحين: "عجبتُ لابن آدم يسعى فيما ضُمِن له ويترك ما طُلِب منه"، فالرّزق مضمون من الله ﷻ، لذلك يمتنُّ به على عباده وينفيه عن هذه الآلهة الباطلة: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾.

﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: فإنْ لم تعبدوه لأنّه يرزقكم ويطعمكم، فاعبدوه لأنّ مرجعكم إليه ووقوفكم بين يديه.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾: لأنّ ربّكم ﷻ يريد أن يزيدكم، فجعل الشّكر على النّعمة مفتاحاً لهذه الزّيادة، فقال ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]، فربُّنا ينتظر منّا كلمة الشّكر، فبمجرّد أن نستقبل النّعمة بقولنا: الحمد لله، فقد وجبت لنا الزّيادة.

(الآية ١٨) - ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾:

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾: أي: ما قلنا لكم وما جاءكم به رسولنا؛ لأنّ تصديقه سيُدخلكم مدخل التّكليف، ويحمّلكم مشقّة المنهج، وسيُضيّق عليكم

منطقة الاختيار، والحقّ ﷻ قد شرَّفنا حين أعطانا حرّيّة الاختيار، في حين أنّ الكون كلّه لا اختيارَ له؛ لأنّه تنازل عن اختياره لاختيار ربّه ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]، فالمعنى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ فلستم بدعاً في التّكذيب.

﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ﴾: لكن يجب عليكم أن تتنبّهوا إلى ما صُنِع بالأمم المكذِّبة، وكيف كانت عاقبتهم، فاحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم، هذه هي المسألة الّتي ينبغي عليكم التّنبُّه لها، وهنا وقف بعض المتمحّكين، يقول: كيف يقول القرآن الكريم في خطاب قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ﴾، مع أنّه لم يسبقهم إلّا أمّة واحدة هي أمّة نوح عليه السلام؟ يظنّون أنّهم وجدوا مأخذاً على القرآن الكريم، ونقول: نعم، كانت أمّة نوح عليه السلام هي أمّة الرّسالة المقصودة بالإيمان، لكن جاء قبلها آدم وشيث وإدريس، وكانوا جميعاً في أمم سابقة على إبراهيم عليه السلام، أو نقول: لأنّ مدّة بقاء نوح عليه السلام في قومه طالت حتّى أخذت ألف سنة من عمر الزّمان، وهذه الفترة تشمل قُرَابة العشرة أجيال، والجيل -كما قالوا- مئة سنة، كلّ منها أمّة بذاتها.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾: فمهمّته مجرّد البلاغ، يؤمن به مَنْ يؤمن، ويكفر مَنْ يكفر، الرّسول لن يعطيه الله ﷻ مكافأة أو عمولة على كلّ مَنْ يؤمن به، فإيّاكم أنْ تظنّوا أنّكم بكفركم تُقلّلون من مكافأة النّبيّ ﷺ -خاصّة وقد كانوا كارهين له-، فالمعنى: على الرّسول البلاغ فحسب، وقد

بلَّغ وأدّى الأمانة والأجر على الله ﷻ، لذلك كان نبيّنا محمّد ﷺ يحزن أشدّ الحزن، ويألم إنْ تفلَّت من يده واحد من أمّته فكفر؛ لأنّه يريد للنّاس الهداية والخير، حتّى خاطبه ربّه ﷻ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: من الآية ٢٧٢]، وخاطبه بقوله ﷻ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشّعراء].

(الآية ١٩) - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩﴾:

الخطاب هنا مُوجَّه إلى أمّة محمّد ﷺ، هؤلاء الّذين كذّبوا من قبل، وأنتم الّذين تكذّبون الآن، أين عقولكم؟ لو استعملتموها في تأمّل الكون الّذي تعيشون فيه، والّذي طرأتُم عليه، وقد أُعِدَّ لكم بكلّ مُقوّمات حياتكم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ﴾: (يرى) هنا بمعنى يعلم، كما في قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل]؛ أي: ألم تعلم، والهمزة في: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ استفهام للتّقرير، لكن، كيف يُقِرُّون بهذه الحقيقة ويعترفون بها، مع أنّهم كافرون بالله ﷻ؟ قال العلماء: لأنّها مسألة أظهر مَن أنْ يُنكِرها منكر، فكلّ صاحب صنعة مهما كانت ضئيلة يفخر بها وينسبها إلى نفسه، بل وينسب إلى نفسه ما لم يصنع، فما بالنا بكَوْن أُعِدَّ بهذه الدّقّة وبهذه العظمة، ولم يجرؤ أحد أن يدّعي أنّه لنفسه، أو أنّه هو الّذي خلقه؟ فالدّعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض، والله ﷻ قال: أنا الخالق: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ﴾، كيف ونحن لم نَر

الإعادة، فضلاً عن رؤيتنا للبدء؟ قال العلماء: نرى البدء والإعادة في مظاهر الوجود من حولنا، فنراها في الزّرع مثلاً، وكيف أنّ الله ﷻ يُحيي الأرض بالنّبات، ثمّ يأتي وقت الحصاد فيحصد ويتناثر منه الحَبّ أو البذور الّتي تعيد الدّورة من جديد، والوردة تجد فيها رطوبة ونضارة وألواناً بديعة ورائحة زكيّة، فإذا قُطِفَتْ تبخَّر منها الماء، فجفَّتْ وتفتّتت، وذهبت رائحتها، ثمّ تخلفها وردة أخرى جديدة، وهكذا، ولننظر مثلاً إلى دورة الماء في الكون: هل زادتْ كمّيّة الماء الّتي خلقها الله ﷻ في الكون حين أعدَّه لحياة الإنسان منذ خلق آدم وحواء؟ الماء هو هو حتّى الآن، مع ما حدث من زيادة في عدد السّكّان؛ لأنّ عناصر الكون هي ذاتها منذ خلقها الله ﷻ، لكن لها دورة تسير فيها بين بَدْء وإعادة، واقرأ إن شئت قوله ﷻ: ﴿*قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠﴾ [فصّلت]، فكأنّ قوت العالم من الزّرع وغيره مُعَدٌّ منذ بَدْء الخليقة، وإلى أنْ تقوم السّاعة لا يزيد، لكنّه يدور في دورة طبيعيّة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾: أيّهما: الخَلْق أم الإعادة؟ أمّا الخلق فقد أقرُّوا به، ولا جدالَ فيه، فالكلام عن الإعادة، وهل الّذي خلق من عدم يعجز عن إعادة ما خلق؟ الخَلْق الأوّل من عدم، أمّا الإعادة فمن موجود، فأيّهما أهون في عُرْفكم وحسب منطقكم؟ لذلك يقول ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: من الآية ٢٧]، مع أنّ الحقّ ﷻ لا يُقال في حَقِّه: هذا هيّن، وهذا أهون، لكنّه ﷻ يخاطبنا بما تفهمه عقولنا.

(الآية ٢٠) - ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: السّير: الانتقال من مكان إلى مكان، لكن نحن نسير في الأرض أم على الأرض؟ الحقيقة أنّنا كما قال ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: نسير فيها؛ لأنّ الغلاف الجوّيّ المحيط بالأرض من الأرض، فمن غيره لا تستقيم الحياة عليها، فحين تسير فأنت تسير في الأرض، فهي تحتك، وغلافها الجوّيّ فوقك، فكأنّك بداخلها، والعلّة في السّير:

﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾: وفي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾ [الأنعام: من الآية ١١]؛ لأنّ السّير من أرض لأخرى له دافعان: إمّا للسّياحة والتّأمّل والاعتبار، وإمّا للتّجارة والاستثمار، فقوله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾؛ أي: نظر اعتبار وتأمّل، أمّا في قوله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾ [الأنعام: من الآية ١١]، فـ ﴿ثُمَّ﴾ تُفيد العطف والتّراخي، كأنّه ﷻ يقول لنا: سيروا في الأرض للاستثمار، ثمّ انظروا نظرة التّأمّل والاعتبار، ولا مانع من الجمع بين الغرضين، فالسّير هنا مترتّب عليه الاعتبار.

﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾: وما دُمْنا قد آمنّا بأنّ الله تعالى هو الخالق بداية، فإعادة الخَلْق أهون، كما قال ﷻ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: من الآية ١٥]، فيشكُّوا في الخَلْق الآخر؟ لذلك يؤكّد الخالق ﷻ هذه القدرة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(الآية ٢١) - ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾:

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: لماذا بدأ الحقّ ﷻ هنا بذكر العذاب؟ في حين قدَّم

المغفرة في آية أخرى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: من الآية ١٨]، قال العلماء: لأنّ الكلام هنا عن المكذّبين المعرضين وعن الكافرين، فناسب أنْ يبدأ معهم بذكر العذاب: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾، فإنْ قال قائل: فلماذا يذكر الرّحمة مع الكافرين بعد أنْ هدَّدهم بالعذاب؟ نقول: لأنّه ربّ يهدّد عباده أوّلاً بالعذاب ليرتدعوا ويؤمنوا، ثمّ يُلوّح لهم برحمته ﷻ ليُرغّبهم في طاعته ويلفتهم إلى الإيمان به، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[1].

﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾: أي: تُرجعون، وجاء بصيغة: ﴿تُقْلَبُونَ﴾ الدّالّة على الغَصْب والانقياد عُنْوة ليقول لهم: مهما بلغ بكم الطّغيان والجبروت والتّعالي بنِعَم الله ﷻ، فلا بُدَّ لكم من الرّجوع إليه، والمثول بين يديْه، فتذكَّروا هذه المسألة جيّداً، حيث لا مهربَ لكم منها، لذلك كان مناسباً أنْ يقول بعدها:

(الآية ٢٢) - ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: معجزين: جمع معجز، وهو الّذي يُعجز غيره، تقول: أعجزتُ فلاناً، يعني: جعلته عاجزاً، والمعنى

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ التَّوحيدِ، بابُ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: من الآية ٧]، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: من الآية ١٢٩]، الحديث رقم (٧٤٢٢).

أنّكم لن تفلتوا من الله ﷻ، ولن تتأبَّوْا عليه، حين يريدكم للوقوف بين يديه، بل تأتون صاغرين، ونلحظ هنا أنّ الله ﷻ قال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، ولم يقل مثلاً: (لن تعجزوني حين أطلبكم)؛ لأنّ نفيَ الفعل غير نفي الوصف، فحين تقول مثلاً: أنت لا تخيط لي ثوباً، فهذا يعني أنّه يستطيع أنْ يخيط لك ثوباً لكنّه لا يريد، فالقدرة موجودة لكن ينقصها الرّضا بمزاولة الفعل، ولكن حين تقول: أنت لستَ بخيّاط، فقد نفيتَ عنه أصل المسألة، لذلك لم ينْفِ عنهم الفعل حتّى لا نتوهّم إمكانيّة حدوثه منهم، فالهرب والإفلات من لقاء الله ﷻ في الآخرة أمر غير وارد على الذّهْن أصلاً، إنّما نفى عنهم الوصف من أساسه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾: حتّى لا يقول قائل: إنْ كانوا هم غير معجزين، فقد يكون وراءهم مَنْ يُعجز الله ﷻ، أو وراءهم مَنْ يشفع لهم، أو يدافع عنهم، فنفى هذه أيضاً؛ لأنّه ﷻ لا يُعجزه أحد، ولا يُعجزه شيء، فنفى عنهم الوليّ، ونفى عنهم النّصير؛ لأنّ هناك فَرْقاً بينهما: الوليّ هو الّذي يقرب منك بمودّة وحُبّ، وهذا يستطيع أنْ ينصرك لكن بالحُسْنى والسّياسة، ويشفع لك إن احتجتَ إلى شفاعته، أمّا النّصير فهو الّذي ينصرك بالقوّة والفتوّة، وهكذا نفى عنهم القدرة على الإعجاز، ونفى عنهم الوليّ والنّصير.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يعني: من الممكن أن يكون لهم وليٌّ ونصير من الله

تعالى، فإنْ أرادوا الوليّ الحقّ والنّصير الحقّ فليؤمنوا بالله ﷻ، فهو وليُّهم وهو نصيرهم، وفي موضع آخر قال: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥﴾ [العنكبوت: من الآية ٢٥]، ولم يقل: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ الموقف في الآخرة، والآخرة لا توبةَ فيها ولا اعتذار ولا رجوع، فقوله ﷻ: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لا تكون إلّا في الدّنيا.

(الآية ٢٣) - ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٣﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾: فإنْ أصرَّ الكافر على كُفْره وعبادته للأصنام الّتي لا تنفع ولا تضرّ، ولم تُجْدِ معه موعظة ولا تذكير، فلا ملجأ له ولا منفذ له إلى رحمة الله ﷻ؛ لأنّه عبد أولياء لا ينفعونه بشيء وكفر بالله ﷻ، فليس له مَنْ يحميه من الله ﷻ، ولا مَنْ ينصره من الأصنام الّتي عبدها، فليس له إلّا اليأس، واليأس: قَطْع الرّجاء من الأمر، وقد قطع رجاء الكافرين؛ لأنّهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضرّ، وكفروا بمَنْ بيده النّفع، وبيده الضُّرّ، وقلنا: إنّ المراد بآيات الله ﷻ إمّا الآيات الكونيّة الّتي تُثبت قدرة الله ﷻ، وتلفت إلى حكمة الخالق ﷻ كاللّيل والنّهار والشّمس والقمر، أو آيات المعجزات الّتي تصاحب الرّسل ليؤيّدهم الله ﷻ بها ويُظهِر صِدْقهم في البلاغ عنه فكفروا بآيات القرآن الكريم الحاملة للأحكام، وقد كفر هؤلاء بكلّ هذه الآيات، فلم يُصدّقوا منها شيئاً، وما داموا قد كفروا بهذه الآيات، وكفروا أيضاً بلقاء الله ﷻ في الآخرة فرحمة الله ﷻ بعيدة عنهم، وهم يائسون منها، لذلك كانت عاقبتهم: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(الآية ٢٤) - ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾: كنّا ننتظر منهم جواباً منطقيّاً، بعد أنْ دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وبيَّن لهم بطلان عبادة آلهتهم، وأنّها لا تضرّ ولا تنفع، كان عليهم أن يجادلوه، وأن يدافعوا عن آلهتهم، وأن يُظهِروا حجّتهم في عبادتهم، ولكن جاء جوابهم دالّاً على إفلاسهم، أهذا جواب على ما قيل لكم؟ إنّه مجرّد هروب من المواجهة، وإفلاس في الحجّة، إنّه جواب مَنْ لم يجد جواباً، وليس لديه إلّا التّهديد والتّلويح بالقوّة والبطش، فهذه لغة مَنْ لا حجّة عنده، لكن، لماذا سمَّاه القرآن الكريم جواباً؟ قال العلماء: لأنّهم لو لم يتكلّموا بهذا الكلام لقيل عنهم: إنّهم لم يلتفتوا إلى كلام نبيّهم ولم يأبهوا به، وأنّ كلامه لا وزنَ له، ولا يُرَدّ عليه، فإنْ كان كلامهم لا يُعَدّ جواباً فهو في صورة الجواب، وإنْ كان جواباً فاسداً.

وقولهم: ﴿ٱقْتُلُوهُ﴾، نعلم أنّ القتل هو هدم البنية هدماً يتبعه خروج الرّوح؛ لأنّها لا تجد بنية سليمة تسكنها، أمّا الموت فتخرج الرّوح أوّلاً، ثمّ تهدم البنية حين تتحلّل في التّراب.

﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾: وهل التّحريق بعد القتل يُعَدّ ارتقاءً في العقوبة؟ لا شكَّ أنّ القتل أبلغ من التّحريق، فقد يُحرق شخص، وتتمّ نجدته وإسعافه فلا يموت، فالقتل تأكيد للموت، أمّا التّحريق فلا يعني بالضّرورة الموت، فلماذا

لم يقولوا فقط: ﴿ٱقۡتُلُوهُ﴾، وتنتهي المسألة، أو يُصعّدوا العقوبة، فيقولوا: حرّقوه أو اقتلوه؟ إنّهم بدؤوا بأقصى ما عندهم من عقوبة لشدّة حَنَقهم عليه، فقالوا: ﴿ٱقۡتُلُوهُ﴾، ثمّ تراءى لهم رأي آخر: ولماذا لا نحرّقه بالنّار، لكن مَن الّذي قال: ﴿ٱقۡتُلُوهُ﴾؟ من الآمر بالقتل، ومَنِ المأمور؟ لقد اتّفقوا جميعاً على قتله، فالآمر والمأمور سواء، وهذا واضح من الآية: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾، فالقوم جميعاً تواطؤوا على هذه المسألة، أو أنّ الآمر هم رؤساء القوم وكبارهم الّذين يأتمر النّاس بأمرهم.

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۗ﴾: وهنا يعترض الفلاسفة: كيف والنّار من طبيعتها الإحراق؟ كيف يتخلّف هذا القانون؟ لكن كيف تكون معجزة إنْ لم تأْتِ على هذه الصّورة؟ إنّ الحقّ ﷻ خلق الخَلْق وجعل فيه نواميس تفعل فعلها وتؤدّي مهمّتها تلقائيّاً، فالأرض مثلاً حينما تحرثها، وتُلقي فيها الحَبَّ، ثمّ ترويها، النّاموس أن تنبت، وحتّى لا يظنّ ظانٌّ أنّ الكون إنّما يسير على وَفْق هذه النّواميس، لا وَفْقَ قدرة الله ﷻ نجد أنّه ﷻ يخرق هذه النّواميس ليثبت لنا قيّوميّته على خَلْقه وطلاقة قدرته فيه، وقد خرق الله ﷻ نواميس الكون لموسى عليه السلام حينما ضرب البحر، فصار كلّ فِرْق كالطَّوْد العظيم، وتحوّلت سيولة الماء إلى جبل صلب، وخرق نواميس الكون لإبراهيم عليه السلام حينما قال للنّار: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء]، وخرق النّواميس ليثبت الإعجاز، وليثبت أنّ يده ﷻ لا تزال مسيطرة على مُلْكه ﷻ، لا أنّه خلق النّواميس وتركها تعمل في الكون دون تدخُّل منه ﷻ كما يقول الفلاسفة، فالحقّ ﷻ خلق النّواميس لتفعل، ولكن قيّوميّته ﷻ وقدرته تُعطّل النّواميس.

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: ونذكر في قصّة السّفينة أنّ الله ﷻ قال عنها: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾ [العنكبوت: من الآية ١٥]، وهنا قال ﷻ: ﴿لَّآيَٰتٍ﴾، وهناك قال ﷻ: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾ [العنكبوت: من الآية ١٥]، وهنا قال: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فالاختلاف بين السّياقين في أمرين: قال في السّفينة: ﴿ءَايَةً﴾ [العنكبوت: من الآية ١٥]؛ لأنّ العجيب في أمر السّفينة ليس في صناعتها، فمَنَ رآها يمكن أنْ يصنع مثلها، إنّما الآية فيها أنّ الله ﷻ أعلمه بها قبل الحاجة إليها، ثمّ منع عنها الزّوابع والأعاصير أن تلعب بها وتُغرق ركّابها، أمّا في مسألة الإحراق فعجائب كثيرة وآيات شتّى، فكان من الممكن ألّا يمكّنهم الله ﷻ من إبراهيم عليه السلام، وكان من الممكن بعد أن أمسكوا به وألقوه في النّار أنْ يُنزل الله ﷻ مطراً يُطفىء نارهم وينجو إبراهيم عليه السلام، أو يسخّر له من القوم أهل رأفة ورحمة ينقذونه من الإلقاء في النّار، لكن لم يحدث شيء من هذا، حيث أمكنهم الله ﷻ منه حتّى ألقوه في النّار وهي مشتعلة، وهو مُوثق بالحبال، ومع ذلك لم تُصِبه النّار بسوء، وظهرتْ الآيات بيّنات واضحات أمام أعين الجميع، الأمر الآخر: قال هناك: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾ [العنكبوت: من الآية ١٥]؛ لأنّ السّفينة حينما رسَتْ ونجا ركّابها ظلَّتْ باقية في مكانها يراها النّاس جميعاً ويتأمّلونها، فقد كان لها أثر باقٍ قائم مُشَاهد، أمّا في مسألة إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنّ نجاة إبراهيم عليه السلام كانت عبرة لمن شاهدها فقط، ونحن نؤمن بها؛ لأنّ الله ﷻ أخبرنا بها، ونحن مؤمنون بالله ﷻ، فهي آيات للمؤمنين بالله ﷻ لا للعالمين.

(الآية ٢٥) - ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: المعنى: إنْ كنتم لم تؤمنوا بالآيات الكونيّة الدّالّة على قدرة الله ﷻ، ولم تؤمنوا بالمعجزة الّتي رأيتموها حين نجّاني ربّي من النّار، وكان عليكم أنْ تؤمنوا بأنّه لا يقدر على ذلك إلّا الله ﷻ، فلا بُدَّ أنّكم كفرتم بالله ﷻ وعبدتم الأصنام، لا لأنّكم مقتنعون بعبادتها، ولا لأنّها تستحقّ العبادة، إنّما عبدتموها ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يعني: نفاقاً ينافق به بعضكم بعضاً ومجاملة؛ لأنّكم رأيتم رؤوس القوم فيكم يعبدونها فقلَّدتموهم دون اقتناع منكم بما تعبدون، أو مودّةً لآبائكم الأوّلين، وسَيْراً على نهجهم، كما حكى القرآن الكريم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزّخرف: من الآية ٢٣]، وفي آيةٍ أخرى: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: من الآية ١٠٤]، لكن هذه المودّة وهذه المجاملة وهذا النّفاق عمرها الحياة الدّنيا فحسب، وفي الآخرة ستتقطّع بينكم هذه المودّات: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزّخرف: من الآية ٦٧]، يعني: ستنقلب هذه المودّة وهذه المجاملة إلى عداوة، بل وإلى معركة حكاها القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ [فصّلت: من الآية ٢٩]، ويقرّر هنا أيضاً هذه الحقيقة:

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: ذلك لأنّ

المقدّمات الّتي سبقتْ كانت تقتضي أنْ يؤمنوا، فما كان منهم إلّا الإصرار على الكفر، وفي الوقت الّذي تنقلب فيه مودّة الكافرين عداوةً تنقلب عداوة المؤمنين الّذين تعاونوا على الطّاعة إلى حُبّ ومودّة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر]، ولا ينتهي الأمر عند هذه العقوبة الّتي يُوقعونها بأنفسهم من التّبرّؤ واللّعن، بل ينصرفون إلى عقوبة أشدّ:

﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾: ونلحظ هنا أنّ الحقّ ﷻ لم يقُلْ: (وما لكم من دون الله)؛ لأنّ الكلام في الآخرة حيث لا توبةَ لهم ولا رجوعَ، فقد انتفى أن يكون لهم وليّ أو نصير من الله ﷻ، كذلك لا ناصرَ لهم من أوليائهم الّذين عبدوهم من دون الله ﷻ، حيث يطلبون النُّصْرة من أحجار وأصنام، لا تنطق ولا تجيب، وهكذا تنتهي هذه اللّقطة السّريعة من قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام وله تاريخ طويل، وهو شيخ المرسلين وأبو الأنبياء، وقد تكرّرت قصّته في سور كثيرة، ويكفي أنّ الله ﷻ قال عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النّحل].

(الآية ٢٦) - ﴿*فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿*فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾: أي: أنّ قوم إبراهيم عليه السلام ظلّوا على كفرهم، والّذي آمن به لوط عليه السلام وكان ابن أخيه، وكانوا في العراق، ثمّ سينتقلون بعد ذلك إلى الشّام، وكلمة: ﴿*فَآمَنَ لَهُ﴾ حين نتتبّع كلمة (آمن) في القرآن الكريم نجد أنّها تدور حول الأمن والطّمأنينة والرّاحة والهدوء، لكنّها

تختلف في المدلولات حسب اختلاف موقعها الإعرابيّ، فهنا: ﴿*فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾، وهل يؤمن لوط لإبراهيم؟ والإيمان كما نقول: يؤمن بالله ﷻ، فما دام السّياق: ﴿*فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ فلا بُدّ أنّ المعنى مختلف، ولا يقصد هنا الإيمان بالله ﷻ، ومعنى (آمن) هنا كما في قوله ﷻ عن قريش: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾ [قريش: من الآية ٤]، فالفعل هنا مُتعدٍّ، فالّذي آمن الله ﷻ، آمن قريشاً من الخوف، وكذلك في قوله ﷻ: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: من الآية ٦٤]، ومعنى: ﴿*فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾؛ أي: صدّقه، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [يوسف: من الآية ١٧]؛ أي: بمصدِّق، ولوط لا يصدّق بإبراهيم، إلّا إذا كان مؤمناً بإله أرسله، فكأنّه آمن بالله ﷻ ثمّ صدَّقه فيما جاء به، وقصّة لوط عليه السلام لها موضع آخر فُصّلَت فيه، إنّما جاء ذكره هنا؛ لأنّه حصيلة الصّفقة الجدليّة والجهاديّة بين إبراهيم عليه السلام وقومه، فبعد أنْ دعاهم إلى الله ﷻ ما آمن له إلّا لوط ابن أخيه، فقوله ﷻ: ﴿*فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ جاءت جملة اعتراضيّة في قصّة إبراهيم عليه السلام؛ لأنّه المحصّلة النّهائيّة لدعوة إبراهيم في قومه، لذلك يعود السّياق مرّة أخرى إلى إبراهيم عليه السلام:

﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾: أي: منصرف عن هذا المكان؛ لأنّه غير صالح لاستتباب الدّعوة، ومادّة (هجر) وما يُشتقّ منها تدلُّ على ترْك شيء إلى شيء آخر، لكنّ (هَجَرَ) تعني أنّ سبب الهَجْر منك وبرغبتك، إنّما (هاجر) فيها مفاعلة، مثل: شارك وقاتل، والنّبيّ ﷺ لم يهجر مكّة، إنّما هاجر منها إلى المدينة، وهذا يعني أنّه لم يهاجر برغبته، إنّما آذاه قومه واضطرّوه للخروج من بلده، فلهم دَخْل في الهجرة، وهم طرف ثَانٍ فيها،

ومن دقّة الأداء القرآنيّ في هذه المسألة أنْ يسمّي نقلة رسول الله ﷺ من مكّة إلى المدينة هجرة، ولا يقول: مهاجرة؛ لأنّه ساعة يهاجر يكره المكان الّذي تركه، لكن هنا قال في الفعل: هاجر، وفي الاسم قال: هجرة، ولم يقل: مهاجرة، وهنا يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، فالمكان غير مقصود له، إنّما وجهة أينما يوجّهني ربّي، وهذا هو المقصود، وإلّا فَلَك أن تقول: كيف تهاجر إلى ربّك، وربّك في كلّ مكان هنا وهناك؟ فالمعنى: مهاجر امتثالاً لأمر ربّي عزّ وجلّ، ومتوجّه وجهة هو آمر بها، فالانتقال ليس برغبتي، وإنّما بتوجيه من ربّي سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: الّذي لا يُغلب وهو يَغْلب.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: الّذي يضع الأمور في نصابها.

(الآية ٢٧) - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

جاء وقت الجزاء لينال إبراهيم عليه السلام من ربّه جزاء صبره على الابتلاء، وثباته على الإيمان، ألم يقُلْ لجبريل لمّا جاءه يعرض عليه المساعدة وهو في طريقه إلى النّار: يا إبراهيم، ألك حاجة؟ فيقول إبراهيم: أمّا إليك فلا، أمّا إلى الله فعلمه بحالي يغني عن سؤالي؟ ألم يُبتلى بكثير من الابتلاءات؟ فجاء الآن وقت العطاء، ولنقرأ قول إبراهيم عليه السلام في دعائه لربّه جلّ جلاله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشّعراء]، وكأنّه يقول: يا ربّ إنّ قومي يستقلّونني،

فاجعل لي ذِكْراً عندك، ومعلوم أنّ للتّناسل والتّكاثر نواميسَ، فلمّا أنْ أنجبت السّيّدة هاجر إسماعيل عليه السلام غضبت الحرّة سارة، كيف تُنجب هاجر وهي الأَمَة وتتميّز عليها، لكن كيف السّبيل إلى الإنجاب وقد بلغت تسعين سنة، وسِنّ إبراهيم عليه السلام حينئذٍ مئة؟ قانون الطّبيعة ونواميس الخَلْق تقول: لا إنجاب في هذه السّنّ، لكنّ الله سبحانه وتعالى يخرق القانون متى شاء.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾: ثمّ: ﴿وَيَعْقُوبَ﴾، وفي آية أخرى، قال: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: من الآية ٧٢]؛ أي: زيادة؛ لأنّه صبر على ذَبْح إسماعيل، فقال له ربّه عزّ وجلّ: ارفع يدك فقد أدّيتَ ما عليك، ونجحت في الامتحان، فسوف أفديه لك، بل وأهبك أخاً له، وسأعطيك من ذرّيّته يعقوب، وسأجعلهم فَضْلاً عن ذلك رسلاً.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾: فحين نستقرىء موكب الأنبياء نجد جمهرتهم من ذرّيّة إبراهيم عليه السلام كلّ من جاء بعده من ذرّيّته، والذّرّيّة المذكورة هنا يُرَاد بها إسحاق ويعقوب، وهما المُوهبَان من سارة، أمّا إسماعيل فجاء بالقانون العامّ الطّبيعيّ الّذي يشترك فيه إبراهيم وغيره، وكأنّ الحقّ سبحانه وتعالى في هذه المسألة يُدلِّل على طلاقة القدرة بأسباب تظهر فيها قدرة المسبّب، فيقول لإبراهيم عليه السلام: إن كان قومك قد كفروا بك ولم يؤمنوا، فسأهبُكَ ذرّيّة ليست مؤمنة مهديّة فحسب، إنّما هادية للنّاس جميعاً، وإذا كانت ذرّيّة إسحاق ويعقوب قد أخذتْ أربع آلاف سنة من موكب النّبوّات، فقد جاء من ذرّيّة إسماعيل خاتم الأنبياء وإمام المتّقين محمّد صلى الله عليه وسلم، وستظلّ رسالته باقية خالدة إلى يوم القيامة، فالرّسل من ذرّيّة إسحاق كانوا متفرّقين في الأمم،

ولهم أزمنة محدّدة، أمّا رسالة محمّد فعامّة للزّمان والمكان، لا معقِّبَ له برسول بعده إلى يوم القيامة.

﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: الكتب الّتي نزلتْ على الأنبياء من ذرّيّته، وهي: القرآن والإنجيل والتّوراة والزّبور.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾: قالوا: إنّه كان خامل الذّكْر فنبغ شأنه وعلا ذكْره، وكان فقيراً، فأغناه الله ﷻ.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: بقي عليه السلام يُذكَر، كما قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشّعراء]، كلّما صلّينا على سيّدنا رسول الله ﷺ نصلّي على سيّدنا إبراهيم، ألا يكفي هذا؟.

(الآية ٢٨) - ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾:

هنا ينتقل السّياق من قصّة إبراهيم عليه السلام لقصّة ابن أخيه لوط عليه السلام، ونلحظ أنّ القرآن الكريم في الكلام عن نوح وإبراهيم ولوط بدأ الحديث بذكرهم أوّلاً، وعادة القرآن الكريم حينما يتكلّم عن الرّسل يذكر القوم أوّلاً، كما قال ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: من الآية ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: من الآية ٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: من الآية ٨٥]، قال العلماء: لأنّ قوم نوح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط لم يكُنْ لهم اسم معروف، فذكر أنبياءهم أوّلاً، أمَّا عاد وثمود ومدين فأسماء لأناس معروفين، ولهم قرى معروفة، فالأصل أنّ القوم هم المقصودون بالرّسالة والهداية، لذلك

يُذكَرون أوّلاً، أمّا الرّسول فيأتي من أجل أن يهدي هؤلاء النّاس.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: سمّى خسيسة قومه فاحشة، لذلك قال العلماء في عقوبتها: يصير عليها ما يصير على الفاحشة من الجزاء؛ لأنّ الحقّ ﷻ سمّى الزّنا فاحشة، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [النّساء: من الآية ٢٢]، والزّنا شُرِع له الرّجم، وكذلك يكون جزاء مَنْ يفعل فِعلْة قوم لوط الرّجم.

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: لا يعني هذا أنّ أحداً لم يفعلها قبلهم، لكنّها إنْ فُعِلت فهي فرديّة، ليست وباءً منتشراً كما في هؤلاء.

(الآية ٢٩) - ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾: دلالة على انحراف الغريزة الجنسيّة عندهم، والغريزة الجنسيّة جعلها الله ﷻ في الإنسان لبقاء النّوع، فالحكمة منها التّناسل، والتّناسل لا يكون إلّا بين ذكر وأنثى، حيث تستقبل الأُنثى الحيوان المنويّ الذّكَريّ الّذي تحتضنه البويضة الأنثويّة، وتعلق في جدار الرّحم وتكوّن الجنين، فهنا قلبوا الفطرة، كما يحدث الآن، حيث ينادون بتشريع المثليّة، والحقيقة أنّ هذا الأمر في غاية الخطورة، ولولا أنّ الخالق ﷻ ربط مسألة بقاء النّوع بهذه اللّذّة لَزهد فيها كثير من النّاس، لما لها من تبعات ومسؤوليّات ومشكلات لا بُدَّ منها في تربية الأولاد، أمّا خسيسة قوم لوط:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ فهي انحراف عن الطّبيعة السَّويّة لا بقاءَ فيها للنّوع، وإنّما لمجرّد شهوة حيوانيّة قذرة.

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾: أي: تقطعون الطّريق على بقاء النّوع؛ لأنّ الزّنا وإنْ جاء بالولد فإنّه لا يُوفّر له البقاء الكريم الشّريف في المجتمع، فالحقّ ﷻ جعل لبقاء النّوع طريقاً واحداً، فلا يجوز أن يُسلك غيره، و﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ كلمة مطلقة وتعني الطّريق، سواء كان الطّريق المادّيّ؛ أي: الشّارع الّذي نمشي فيه، أم: المعنويّ وهو الطّريقة الّتي نسير عليها، ومنها قوله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: من الآية ١٠٨]؛ أي: طريقي ومنهجي، لذلك السّبيل القيميّ سبيل واحد، حتّى لا نتصادم ولا نتخاصم في حركة الحياة المعنويّة، أمّا السّبيل المادّيّ فمتعدّد حتّى لا نتزاحم في حركة الحياة المادّيّة، وقوله ﷻ: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾، فقد كان من قوم لوط قُطّاع طرق كالّذين يخرجون على النّاس في أسفارهم وحركتهم، فيأخذون أموالهم وينهبون ما معهم، وإنْ تأبّوا عليهم قتلوهم، وبعد أن قطعوا السّبيل على النّاس قطعوا السّبيل على بقاء النّوع بالفاحشة.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾: فكانوا لا يتورّعون عن فِعْل القبيح وقوله، فيجلسون في الطّرقات يستهزئون بالمارّة ويؤذونهم، كالّذين يجلسون الآن على المقاهي، ويتسكّعون في الطّرق، ويؤذون خَلْق الله ﷻ، ويتجاهرون بالقبيح من القول والفعل، فلا يسْلَم من إيذائهم أحد، لذلك يعلّمنا النّبيّ ﷺ آداب الطّريق، يقول ﷺ: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجَالِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ**

حَقَّهَا»، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: «غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ..»[1]، وقد انتشر بين قوم لوط سوء الأخلاق، بحيث لا ينهى بعضهم بعضاً، كما قال ﷻ عن اليهود أنّهم: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: من الآية ٧٩].

﴿فِى نَادِيكُمُ﴾: النّادي: مكان تجمُّع القوم، ومنه قوله ﷻ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [العلق]؛ أي: مكان تجمُّع رؤوس القوم وكبارهم، فهؤلاء القوم قطعوا السّبيل في بقاء النّوع، وانحرفوا عن الفطرة السَّويّة، وقطعوا السّبيل المادّيّ، فأخافوا النّاس وروَّعوهم ونهبوا أموالهم، وأخذوهم من الطّرق بغرض هذه الفِعْلة النّكراء، ثمّ كانوا يتبجّحون بأفعالهم هذه، ويجاهرون بها في أنديتهم وأماكن تجمّعاتهم، وهؤلاء فعلوا الفاحشة وأعلنوها وصدّوا عن السّبيل، وقطعوا الطّرق المادّيّة والطّرق المعنويّة، وفعلوا ما لم يفعله أحد، والمجاهرة بالمعصية هي كارثة من الكوارث، كما يجري اليوم، فهي تحدّ للأخلاق، وتحدّ للقيم، وتحدّ للمجتمع والنّاس، تحدّ للفطرة السّويّة السّليمة، والآن يشرّعون قوانين من أجل المثليّة، وهذه الآيات الّتي تتحدّث عن فعلة قوم لوط، منذ أن نزل القرآن الكريم على قلب النّبيّ الكريم ﷺ وهي تحذّر من خطورة هذه الفعلة الفاحشة الشّنيعة والقذرة، الّتي إن عمّت بقوم فقد أحلّوا بأنفسهم عذاب الله ﷻ، قال ﷺ: «لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المظالمِ والغَصْبِ، بابُ أفنيةِ الدُّورِ والجلوسِ فيها، والجلوسِ على الصُّعُدَاتِ، الحديث رقم (٢٤٦٥).

بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا»[1]، كما نرى في المجتمعات الغربيّة اليوم، فبماذا أجابه القوم؟

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: أي: من الصّادقين في أنّك مُبلّغ عن الله ﷻ، فنحن من العاصين، وأَرِنا العذاب الّذي تتوعّدنا به، وقولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ مع أنّ العذاب شيء مؤلم، ولا يطلب أحد إيلام نفسه، فهذا دليل على عدم فهمهم لهذا الكلام، وأنّهم غير متأكّدين من صدقه، وإلّا لو وَثِقوا بصدقه ما طلبوا العذاب، وفي موضع آخر، حكى القرآن الكريم عنهم: ﴿* فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النّمل]، فحدث منهم موقفان وجوابان: الأوّل: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، فلمّا لم يُجبهم إلى هذا الطّلب الأحمق، وظلّ يتابع دعوته لهم، فلم ييأس منهم لجؤوا إلى حيلة أخرى، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النّمل: من الآية ٥٦]، والعلّة: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النّمل: من الآية ٥٦]؛ لأنّ الطّهْر والاستقامة في نظر هؤلاء عيب، والاستقامة جريمة، وهذه هي حقيقة الغرب، وهذا دليل على فساد عقولهم، وفساد قياسهم في الحكم.

(الآية ٣٠) - ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾:

وفَرْق بين الفاسد في ذاته والمفسد لغيره، فيا ليتهم كانوا فاسدين في أنفسهم، إنّما كانوا فاسدين مفسدين، يتعدَّى فسادهم إلى غيرهم.

---

(١) سنن ابن ماجه: كتابُ الفتنِ، بابُ العقوباتِ، الحديث رقم (٤٠١٩).

(الآية ٣١) - ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: جاء هنا إبراهيم عليه السلام في سياق قصّة لوط، كما جاء لوط في سياق قصّة إبراهيم؛ لأنّهما بُعثا في زمان واحد، ولوط هو ابن أخيه، ومعنى: ﴿رُسُلُنَآ﴾؛ أي: من الملائكة؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحجّ: من الآية ٧٥]، وقد جاءت الملائكة لإبراهيم عليه السلام بالبشرى، ولم يذكر مضمون البُشْرى هنا، وهي البشارة بإسحاق ويعقوب وذرّيّة صالحة منهما، وجاءته بإنذار بأنّ الله سبحانه وتعالى سيُهلك أهل هذه القرية، وبالبشرى والإنذار يحدث التّوازن؛ لأنّنا نُبشِّر إبراهيم بذرّيّة صالحة مُصْلحة في الكون، ونهلك أهل القرية الّذين انحرفوا عن منهج الله عزّ وجلّ، ونلحظ في الآية أنّها لم تذكر العلّة في البُشْرى، فلم تقل مثلاً: لأنّه كان مؤمناً ومجاهداً وعادلاً، إنّما ذكرت العلّة في إهلاك أهل القرية:

﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾: لماذا؟ لأنّ المتفضّل لا يمنُّ بفضله على أنّه عمل بمقابل، لكنّ المعذِّب يبيّن سبب العذاب، فماذا كان الانفعال الأوّليّ عند إبراهيم عليه السلام ساعةَ سمع البُشْرى والإنذار؟ لم يسأل عن البشرى، مع أنّه كان متلهّفاً عليها، إنّما شغلته مسألة إهلاك القرية، وفيها ابن أخيه لوط عليه السلام، لذلك قال:

(الآية ٣٢) - ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾: فلم يستشرف إبراهيم عليه السلام للبشرى، واهتمّ

بمسألة إهلاك قرية قوم لوط؛ لأنّ فيها لوطاً عليه السلام، ممّا يدلُّ على أنّ الإنسان لا يشغله الخير لنفسه عن الشّرّ لغيره، وهنا ردَّ الملائكة:

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾: فهذه مسألة لا تخفى علينا، ثمّ يُطمئنونه على ابن أخيه:

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾: أهله: تشمل الأهل كلّهم، لذلك استثنوا منهم:

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: والغابرون: جمع غابر، ولها استعمالان في اللّغة: نقول: الزّمان الغابر؛ أي: الماضي، وغابر بمعنى باقٍ أيضاً، فهي تحمل المعنى وضدّه؛ ذلك لأنّهم جاؤوا لإهلاك هذه القرية، وامرأة لوط باقية لتهلك معهم، وتذهب مع مَنْ سيذهبون بالإهلاك، فهي باقية في العذاب، فجاءت الكلمة: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، لتؤدّي هذين المعنيين.

(الآية ٣٣) - ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾: شهد إبراهيم عليه السلام هذا الموقف مع لوط عليه السلام، وعلم سبب حضورهم إليه، لكن لماذا سيء بهم، مع أنّهم رسل الله سبحانه وتعالى، ملائكة جاؤوه على أحسن صورة؟ قالوا: لأنّ الملَك يأتي على أبهى صورة، فخاف عليهم من قومه؛ لأنّ قومه قوم سوء وأهل رذيلة، ولا بُدَّ أنْ ينالوا ضيوفه بسوء، لذلك:

﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾: أي: أصابه السّوء بسببهم.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: الذّرع: هو طول الذّراعين، فالمعنى: ضاق بهم ذَرْعاً، يعني: لم يتّسع جهده لحمايتهم من القوم، ونلحظ هنا اختلاف السّياق بين الآيتين: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾، أمّا في لوط فقال: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾؛ لأنّهم تأخّروا بعض الشّيء عند إبراهيم عليه السلام، فلمّا أن أصابه السّوء بمرآهم، بدل أنْ يسعد بهم، وخاف عليهم طمأنوه.

﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾: لا تخَفْ علينا من هؤلاء الأراذل، فلسنا بشراً، إنّما نحن ملائكة ما جئْنا إلّا لنريحك منهم، ونقطع جذور هذه الفِعْلة الخبيثة، وسوف ننجيك وأهلك من العذاب النّازل بهم، ثمّ يستثنون من أهله:

﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾: فكثيراً ما ضايقته، وأفشتْ أسراره، ودلَّتْ القوم على ضيوفه.

﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾: الباقين في العذاب، لكن، ما الطّريقة الّتي ستقضون بها على هؤلاء القوم؟.

(الآية ٣٤) - ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾: الرّجز: العذاب ينزل عليهم من السّماء، والحجارة الّتي يمطرهم الله عزّ وجلّ بها.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: أي: بسبب فِسْقهم وخروجهم عن منهج الله تبارك وتعالى.

(الآية ٣٥) - ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

لأنّ هذا العذاب استأصلهم، وقضى عليهم، وجعلهم عبرة لكلّ عاقل متأمّل، وآية في الكون لكلّ عابر بها، كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصّافّات]، فالعبرة باقية بأهل سَدُوم كلّما مرّ النّاس بقُراهم، لذلك قال الله ﷻ عنها:

﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾: الآية: الشّيء العجيب الّذي يدعو للتّأمّل.

﴿بَيِّنَةً﴾: واضحة كدليل باقٍ، وظاهر لا يخفى على أحد.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: يعني: يبحثون ويتأمّلون بسبب ما حاق بهذه القرى، وما نزل بها من عذاب الله ﷻ.

(الآية ٣٦) - ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: مدين: اسم من أسماء أولاد إبراهيم عليه السلام، وسُمّيت القبيلة باسمه؛ لأنّهم كانوا عادة ما يُسمُّون القوم باسم أبرز أشخاصها، فانتقل الاسم من الشّخص إلى القبيلة، ثمّ إلى المكان، بدليل قوله ﷻ في موضع آخر: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: من الآية ٢٣]، فصارت مدين عَلَماً على البقعة، وقالوا: إنّها من الطّور إلى الفرات، وهذه برقيّة موجزة لقصّة مدين وأخيهم شعيب عليه السلام، وقد ذُكِرت أيضاً في قصّة موسى عليه السلام، وقال ﷻ: ﴿أَخَاهُمْ﴾، ليدلّنا أنّ الله ﷻ حين يصطفي للرّسالة يصطفي مَنْ له وُدٌّ بالقوم، ولهم معرفة به وبأخلاقه وسيرته، ولهم به تجربة سابقة، فهو

عندهم مُصلْح غير مُفْسِد، حتّى إذا ما بلَّغهم عن الله ﷻ صدَّقوه، وكانت له مُقدِّمات تُيسِّر له سبيل الهداية.

﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: كلمة: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾: القوم مجموعة من عامّة النّاس، وهم الّذين يقومون لمهمّات الأمور، ويتحمّلون المشاقّ.

والرّسالات كلّها جاءت بأمر العبادة، والعبادة -كما قلنا-: طاعة الأمر والنّهي، فقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أطيعوه فيما أمر، وانتهوا عمّا نهى عنه وزجر، فما دُمْتم قد آمنتم به إلهاً خالقاً، فلا بُدَّ أنْ تسمعوا كلامه فيما ينصحكم به من توجيه بـ (افعل) و(لا تفعل)، ونعلم أنّه ﷻ بصفات الكمال أوجدنا وأوجد لنا الأشياء، فنحن بعبادتنا له لا نضيف إليه صفة جديدة، فهو إله قبل أن نوجد نحن، وخالق بكامل القدرة قبل أنْ نوجد، وخلق لنا الكون قبل أنْ نوجد، فكيف نعصيه ونكفر به؟! فلا يحرمنا خيره، ولا يمنع عنّا نعمه؟ فهو ﷻ يستحقّ منّا العبادة والطّاعة؛ لأنّ طاعته تعود علينا بالخير، فالعبوديّة لله عِزٌّ وقوّة ومَنعة، وللبشر ذُلٌّ وهوان، لذلك نرى كلّ المصلحين يحاربون العبوديّة للبشر، ويدعون العبيد إلى التّحرّر، فأوَّل شيء أمر به شعيب عليه السلام قومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، كذلك قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ [العنكبوت: من الآية ١٦]، لكنّ لوطاً عليه السلام لم يأمر قومه بعبادة الله ﷻ: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ [العنكبوت]، مباشرة، لماذا؟ الجواب: لقد اهتمّ بمسألة الفاحشة الفظيعة الّتي استشرتْ فيهم، مع أنّ كلّ الرّسل جاؤوا للأمر بعبادة الله ﷻ، ونقول في هذه المسألة: لم يأمر لوط عليه السلام قومه بعبادة الله ﷻ؛

لأنّه كان من شيعة إبراهيم عليه السلام ومؤمناً بديانته، بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾ [العنكبوت: من الآية ٢٦]، فهو تابع له، لذلك ينفّذ التّعاليم الّتي جاء بها إبراهيم عليه السلام، فلم يأمر بالعبادة؛ لأنّ إبراهيم عليه السلام أمر القوم بها، لكنّه تحمَّل مسألة أخرى، وخصَّه الله سبحانه وتعالى بمهمّة جديدة، هي إخراج قومه من ممارسة الفاحشة الّتي انتشرت بينهم.

﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾: فلا بُدَّ أنّ اليوم الآخر لم يكُنْ في بالهم، ولم يحسبوا له حساباً، كأنّهم سيفلتون من الله عزّ وجلّ، ولن يرجعوا إليه، لذلك يُذكِّرهم بهذا اليوم، ويحثُّهم على العمل من أجله، وكيف لا نعمل حساباً لليوم الآخر؟ ونحن في الدّنيا نعامل أنفسنا بمنطق اليوم الآخر نفسه؟ فأنت مثلاً تتعب وتشقى في زراعة الأرض، وتتحمّل مشاقّ الحرْث والبَذْر والسّقي.. إلخ طوال العام، لكن حين تجمع زرعك يوم الحصاد، وتملأ به مخازنك تنسى أيّام التّعب والمشقّة، وساعتها يندم الكسول الّذي قعد عن العمل والسّعي، ويوم الحصاد سترى أنّ كمّيّة القمح الّذي أخذتَه من المخزن وظننتَ أنّه نقص من حسابك قد عاد إليك عشرة أضعاف، فأخْذُك لم يُقلّل كمّيّة القمح، إنّما زادت، وكذلك اليوم الآخر نفهمه بهذا المنطق، فنتحمّل مشاقّ العبادة والطّاعات في الدّنيا لننال النّعيم الباقي في الآخرة؛ لأنّ نعيم الدّنيا مهما كان، يُنغّصه عليك أمران: إمّا أنْ تفوته أنت بالموت، أو يفوتك هو بالفقر، أمّا في الآخرة فلا يفوتك نعيمها ولا تفوته، فالأَوْلى بك أنْ تزرع للآخرة، وأن تعمل لها ألف حساب، فإنْ كان في العبادة مشقّة، وللإيمان تَبعات، فانظروا إلى عِظَم الجزاء، وإذا استحضرتَ الثّواب

على الطّاعة هانتْ عليك مشقّة الطّاعة، وإذا استفظعت العقاب على المعصية، زهدتَ فيها ونأيْتَ عنها، فالّذي يجعل الإنسانَ يتمادى في المعصية أنّه لا يستحضر العقاب عليها، ويزهد في الطّاعة؛ لأنّه لا يستحضر ثوابها، لذلك يقول النّبيّ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1]، والمعنى: لو استحضر الإيمان ما فعل، إنّما غفل عن إيمانه فوقع في المعصية، ومَن استحضر ثواب الطّاعة وجد لها حلاوة في نفسه، كما قال النّبيّ ﷺ عن الصّلاة: «يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»[2].

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾: العثوّ: الفساد المستور، والفساد يُقال للظّاهر، فالمعنى: لا تعثَوا في الأرض عثواً، فالمفعول المطلق بمعنى الفعل، فقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ كما نقول: اجلس قعوداً، والفاء في قوله: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ تدلّ على أنّها تعطف هذا الكلام على كلام سابق، والتّقدير: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً، فقال: يا قوم إنّي رسول الله إليكم، ثمّ ذكر المطلوب منهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، والجمع بين عبادة الله ورجاء اليوم الآخر يعني: لا تفصلوا العبادة عن غايتها والثّواب عليها، ولا

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المظالِمِ والغصْبِ، بابُ النُّهْبَى بغيرِ إذْنِ صاحبِهِ، الحديث رقم (٢٤٧٥).

(٢) سنن أبي داود: كتاب الأدبِ، بابٌ في صلاةِ العَتَمَةِ، الحديث رقم (٤٩٨٥).

تفصلوا المعصية عن عقابها، وقوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، فلا أقول لكم: أصلحوا، فلا أقلَّ من أن تتركوا الصّالح على صلاحه لا تفسدوه؛ لأنّ الخالق ﷻ أعدَّ لنا الكون على هيئة الصّلاح، وعلينا أنْ نُبقيه على صلاحه.

(الآية ٣٧) - ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧﴾:

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: لماذا يُكذّب النّاس دعوة الخير؟ قالوا: لا يُكذِّب دعوة الخير إلّا المستفيدون من الشّرّ؛ لأنّ الخير سيقطع عليهم الطّريق، ويسحب منهم مكانتهم وسلطتهم وسيادتهم، فكلّ الّذين عارضوا رسل الله كانوا أكابر القوم، وقد ألفوا السّيادة والعظمة، واعتادوا أن يكون النّاس عبيداً لهم، فكيف يُفسِحون الطّريق للرّسل ليأخذوا هذه المكانة؟ لكن، ماذا قال شعيب عليه السلام لقومه حتّى يُكذِّبوه؟ لقد قال لهم أمرين هما: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾، ونهياً واحداً: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، ومعلومٌ أنّ الأمر والنّهي قوْل لا يحتمل الصِّدْق، ولا يحتمل الكذب؛ لأنّه إنشاء وليس خبراً، فما معنى الكذب؟ الكذب أن تقول لشيء وقع: إنّه لم يقع، أو لشيء لم يقع: إنّه وقع، وهذا يسمّونه خبراً في اللّغة العربيّة، فإنْ وافق كلامك الواقعَ فهو صِدْق، وإنْ خالف الواقع فهو كذب، فكيف نحكم على ما لم تقع له نسبة أنّه صِدْق أو كذب؟ فحينما تقول مثلاً: قِفْ، هل نقول لك: إنّك كاذب؟ الجواب: لا؛ لأنّ واقع الإنشاء لا يأتي إلّا بعد أنْ تتكلّم، لذلك

قسَّموا الكلام العربيّ إلى خبر وإنشاء، ولكي نبسّط هذه المسألة على النّاس نقول: المتكلِّم حين يتكلَّم يأتي بنسبة اسمها نسبة كلاميّة، قبل أن يتكلَّم بها جالتْ في ذهنه، فقبل أن أقول: زيد مجتهد، دارتْ في ذهني هذه المسألة، وكان في الواقع شخص اسمه زيد وهو مجتهد فعلاً، فعندنا نسبة ذهنيّة، ونسبة كلاميّة، ونسبة واقعيّة، فإنْ وُجِدت النّسبة الواقعيّة قبل الذّهنيّة والكلاميّة، فالكلام هنا خبر يُوصَف بالصّدق أو يُوصَف بالكذب، فالنّسبة الواقعيّة لا تأتي نتيجة النّسبة الكلاميّة، إنّما حين تقول: قف، فتأتي النّسبة الواقعيّة نتيجة النّسبة الكلاميّة، وما دامت النّسبة الواقعيّة تأخّرتْ عن الكلاميّة، فلا يُوصَف القول لا بصدْق ولا بكذب، ونعود إلى قول نبيّ الله شعيب عليه السلام، نجده عبارة عن أمرين: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾، ونهي واحد: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، والأمر والنّهي من الإنشاء الّذي لا يُوصَف بالصِّدْق ولا بالكذب، فكيف يُكذِّبونه؟ فأوّل إشكال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، ومنشأ هذا الإشكال عدم وجود المَلَكَة العربيّة الّتي يفهمون بها كلام الله عزّ وجلّ، فالحقّ سبحانه وتعالى قال هنا: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ لأنّه أمرهم بعبادة الله جلّ جلاله وهو رسول من عند الله عزّ وجلّ، فعبادته سبحانه وتعالى واجبة عليهم، وما أمرهم إلّا ليُؤدُّوا الواجب عليهم، واليوم الآخر كائن لا محالة فارجوه، والإفساد في الأرض مُحرّم، فالمعنى يحمل معنى الخبر، فالأمران هنا، والنّهي أمر واجب فكذَّبوه لعلّة الأمرين، ولعلَّة النّهي، ومعنى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، خصُّوه سبحانه وتعالى بالعبادة، وهي الطّاعة في الأمر والانتهاء عن المنهي عنه، وهذه العبادة مطلوبة من الجميع، وهي شريعة الأنبياء والرّسل كلّهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ

﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: من الآية ١٣]، فمسألة العبادة والإيمان باليوم الآخر من القضايا العامّة الّتي لا تختلف فيها الرّسالات، أمّا الشّرائع: افعل كذا، ولا تفعل كذا فتختلف من نبيّ لآخر، ومعنى: ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾؛ أي: اعملوا ما يناسب رجاءكم لليوم الآخر، ولماذا نحبّ نحن اليوم الآخر، ولماذا نرجوه؟ لا يحبّه ولا يرجوه إلّا مَنْ عمل عملاً صالحاً فينتظره لينال جزاء عمله وثواب سَعْيه، فالرّجاء معناه: اعملوا ما يُؤهّلكم لأنْ ترجُوا اليوم الآخر، والإنسان لا يرجو إلّا النّافع له، لذلك قال: ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾؛ لأنّ الجزاء في الآخرة عند التّحقيق والتّعقُّل محض فَضلْ من الله ﷻ، لذلك يقول النّبيّ ﷺ: «**لَنْ يُنَجِّيَ أَحَداً مِنْكُمْ عَمَلُهُ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ**»(١)، والنّهي في: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ أي: لا تفسدوا فساداً ظاهراً، أو: لا تعملوا أعمالاً هي في ظنّكم نافعة وهي ضارّة، ونتيجة التّكذيب كانت عاقبتهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: وهذا عقاب الله ﷻ؛ لأنّه كان ﷻ يتولّى المكذّب، وفي الحجر وفي هود قال: الصّيحة، وحتّى لا يقال: إنّ الآيات فيها تضارب، نقول: الصّيحة: صوت شديد مزعج، وهذا الصّوت لا نسمعه إلّا بتذبذب الهواء بشدّة، ولو كان تذبذب الهواء بلطف ما سمّيت

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الرِّقاقِ، بابُ القَصْدِ والمُداومَةِ على العملِ، الحديث رقم (٦٤٦٣).

صيحة، فالصّيحة تخلخلٌ في الهواء بشدّة لا بدّ أنْ ينتج عنه رجفة؛ أي: هزّة شديدة، كالّتي تهدم البيوت والأبنية، فالصّيحة وُجدت أوّلاً، تبعتها الرّجفة، لكنّ القرآن الكريم مرّة يذكر الأصل، فيقول: الصّيحة، ومرّة يذكر النّتيجة، فيقول: ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾.

﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾: قال: ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾، ولم يقُلْ مثلاً: (فصاروا)، ليُحدِّد وَقْت أخذهم بالصّباح، والعادة أن تكون الإغارة وقت الصّباح قبل أن يستعدّ خَصْمك لملاقاتك.

﴿جَٰثِمِينَ﴾: يعني: هامدين بلا حراك.

ثمّ تنتقل بنا الآيات إلى لقطات أخرى موجزة من مواكب الرّسالات، وكأنّها برقيّات:

(الآية ٣٨) - ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨﴾:

نلحظ في هذه البرقيّات السّريعة أنّها تذكر المقدّمة، ثمّ النّهاية مباشرة:

﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾، هذه المقدّمة، ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾، هذا موجز لما نزل بهم، وكأنّ الحقّ ﷻ يقول لنا: لن أحكي لكم ما حاق بهم؛ لأنّكم تشاهدون ديارهم، وتمرّون عليها ليل نهار، كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصّافّات]، والآن مع الثّورة العلميّة استطاعوا تصوير ما في باطن الأرض، وظهرت كثير من

الآثار لهذه القرى عاد وثمود، واقرأ قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر]، وطبيعيّ الآن أن نجد آثار السّابقين تحت التّراب، ولا بُدَّ أن نحفر لنصل إليها؛ لأنّ عوامل التّعرية طمرتها بمرور الزّمن، وقد حكى التّاريخ أنّ الزّوابع والعواصف الرّمليّة في رمال الأحقاف -مساكن عاد- مثلاً كانت تغطّي قافلة بأكملها، فكيف ننتظر أن تكون آثار هذه القرى باقية على سطح الأرض؟ والآن نشاهد مثلاً في الطّرق الصّحراويّة إذا هبَّتْ عاصفة واحدة فإنّها تغطّي الطّرق، بحيث تعوق حركة المرور إلى أنْ تُزَاح عنها هذه الطّبقة من الرّمال، فعلينا أن نقول: نعم يا ربّ رأينا مساكنهم ومررنا بها، ولو من خلال الصّور الحديثة الّتي التقطت لهذه القرى.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾: يعني: أغواهم بالكفر، وأقنعهم أنّه الأسلوب السّليم والأمثل في حركة الحياة.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾: فما دام قد زيَّن لهم سبيل الشّيطان، فلا بُدَّ أنْ يصدَّهم عن سبيل الإيمان.

﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾: يعني: لم نأخذهم على غِرَّة، فكان عندهم حضارة وعلم، فيجب أن يكونوا مؤمنين، فالله ﷻ أرسل إليهم رسلاً، قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: من الآية ١٥]، رسولاً يُبيّن لهم وينذرهم، ويحذّرهم عاقبة الكفر، لذلك لم يأخذهم الله ﷻ إلّا بعد أنْ أرسل إليهم رسولاً فكذَّبوه.

(الآية ٣٩) - ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾:

ما زالت الآيات تُحدِّثنا عن مواكب الرّسالات، لكنّها تتكلّم عن المكذِّبين عاداً وثمود، وهنا: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ﴾، والدّليل على قوله ﷻ في الآية السّابقة: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ قوله ﷻ هنا:

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: أي: بالأمور الواضحة الّتي لا تدع مجالاً للشّكّ في صدْق الحقّ ﷻ، وفي صِدْق الرّسول في البلاغ عن الله ﷻ.

﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: استكبر: يعني افتعل الكِبْر، فلم يقُلْ: (تكبَّر)، إنّما: (استكبر)، كأنّه في ذاته ما كان ينبغي له أنْ يستكبر؛ لأنّ الّذي يتكبّر يتكبَّر بشيء ذاتيّ فيه، لا بشيء موهوب؛ لأنّه قد يُسلَب منه، فكيف يتكبَّر به؟ لذلك نقول للمتكبِّر: لقد غفلت عينه عن مَرأى ربّه في آثار خَلْقه، فلو كان ربّه ﷻ في باله لاستحى أنْ يتكبّر، فقارون وفرعون وهامان لمّا جاءهم موسى عليه السلام بآيات الله ﷻ الواضحات استكبروا في الأرض، وأَنِفُوا أن يتّبعوا الرّسول، لا بطبيعتهم وطبيعة وجود ذلك فيهم، إنّما افتعالاً بغير حقّ.

﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾: فنفى عنهم أن يكونوا سابقين، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠﴾ [الواقعة: من الآية ٦٠]، والسّبق لا يُمدح ولا يُذمّ في ذاته، لكن بنتيجته: إلى أيِّ شيء سبق؟ فالسّبق لا يُذَمّ لذاته، واقرأ إنْ شئت قوله ﷻ: ﴿* وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: من الآية ١٣٣]؛ أي: سابقوا، والمعنى

هنا: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ أنّ هناك مضمارَ سباق، فإنْ كان مضمار السّباق هذا في الآخرة، أيسبقنا أحد ليفلتَ من أخْذنا له؟ إنّهم لن يسبقونا، ولن يُفلِتوا من قبضتنا، ولن يُعجِزوا قدرتنا على إدراكهم.

(الآية ٤٠) - ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ﴾: الكلام هنا عن المكذّبين والكافرين الّذين سبق ذكرهم: قوم عاد، وثمود، ومدين، وقوم لوط، وقارون، وفرعون، وهامان، فكان من المناسب أنْ يذكر الحقّ ﷻ تعليقاً يشمل كُلَّ هؤلاء؛ لأنّهم طائفة واحدة، فقال: ﴿فَكُلًّا﴾؛ أي: كلّ مَنْ سبق ذكرهم من المكذّبين، فالتّنوين في: ﴿فَكُلًّا﴾ عوض عن كلّ من تقدَّم ذكرهم.

﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ﴾: والأخذ يناسب قوّة الآخذ وقدرته، لذلك يقول ﷻ عن أخْذه للمكذّبين: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود]، ويقول ﷻ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: من الآية ٤٢]، فالعزيز: الّذي يغلب ولا يُغلب، والمقتدر؛ أي: القادر على الأَخْذ، بحيث لا يمتنع منه أحد فهو عزيز، والأخذ هنا بسبب الذّنوب: ﴿بِذَنۢبِهِۦ ۖ﴾، ليس ظلماً ولا جبروتاً ولا جزافاً، إنّما جزاءً بذنوبهم وعدلاً، ولذلك يأتي في تذييل الآية:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾: هم الّذين ظلموا أنفسهم بأن اختاروا طريق الكفر والضّلال والإجرام.

ثمّ يُفصّل الحقّ ﷻ وسائل أَخْذه لهؤلاء المكذّبين:

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾: الحاصب: هو الحصَى الصِّغار تُرمَى لا لتجرح، ولكن يُحْمَى عليها لتكوي وتلسع حين يرميهم بها الرّيح، ولم يقُلْ هنا مثلاً: أرسلنا عليهم ناراً؛ لأنّ النّار ربّما إنْ أحرقته يموت وينقطع ألمه، لكنّ رَمْيهم بالحجارة المحمّية تلسعهم، ذلك ليطيل أمد إيلامهم.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾: وهو الصّوت الشّديد الّذي تتزلزل منه الأرض، وهم ثمود.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي: قارون.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾: وهم قوم نوح، وفرعون.

هذه وسائل أربع لإهلاك المكذِّبين، النّار في الحصباء، والهواء في الصّيحة، والتّراب في الخسف، ثمّ الماء في الإغراق، ورحم الله الفخر الرّازي حين قال في هذه الآية: إنّها جمعت العناصر الّتي بها وجود الإنسان، والعناصر الأساسيّة أربعة: الماء والنّار والتّراب والهواء، كذلك حين نتأمّل هذه العناصر الأربعة نجدها عناصر تكوين الإنسان، حيث خلقه الله ﷻ من ماء وتراب فكان طيناً، ثمّ جفَّ بالحرارة حتّى صار صلصالاً كالفخّار، ثمّ هو بعد ذلك يتنفّس الهواء، فبهذه العناصر نفسها الّتي كان منها الخَلْق يكون بها الهلاك، والحقّ ﷻ يريد من خَلْقه أنْ يُقبلوا على الكون في كلّ مظاهره وآياته بيقظة، ليستنبطوا ما فيه من مواطن العبر والأسرار، لذلك نجد أنّ كلّ الاكتشافات جاءت نتيجة دِقَّة الملاحظة لظواهر الكون، ويلفتنا ربّنا

إلى أهمّيّة العلم التّجريبيّ، فيقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف]، فينبغي أن نتأمّل فيما نرى، وما توصَّل الإنسان إلى عصر البخار وإلى قانون الطَّفْو عند أرخميدس، وما توصّل إلى الكهرباء والجاذبيّة والبنسلين إلّا بالتّأمّل الدّقيق لظواهر الأشياء، لذلك فالملاحظة هي أساس كلّ علم تجريبيّ أوّلاً، ثمّ التّجريب ثانياً، ثمّ إعادة التّجريب لتخرج النّتيجة العلميّة، والهواء سبب أساسيّ في حياة الإنسان، وبه يحدث التّوازن في الكون، لكن إنْ أراد الحقّ ﷻ جعله زوبعة أو إعصاراً مدمّراً، وسبق أن قلنا: إنّ الإنسان يصبر على الطّعام شهراً، وعلى الماء عشرة أيّام، لكن لا يصبر على الهواء إلّا بمقدار شهيق وزفير، فالهواء أهمّ سبب من أسباب بقاء الحياة، وهنا الهواء عامل أساسيّ في وسائل الإهلاك المذكورة، وبالهواء تحفظ الأشياء توازنها، فالعمارة تنهدم إذا فرّغنا الهواء من جهة، وبهذه النّظرية يحدث الدّمار بالقنابل؛ لأنّها تعتمد على نظريّة تفريغ الهواء، فما قامتْ الأشياء من حولنا إلّا لأنّ الهواء يحيط بها من كلّ جهاتها، وقلنا: إنّ القرآن الكريم حينما يحدّثنا عن الهواء يحدّثنا عنه بدقّة الخالق الخبير، فكلّ ريح مفردة جاءت للتّدمير والإهلاك، وكلّ ريح بصيغة الجمع للنّماء والخير والإعمار. ثمّ تُختم الآية بهذه الحقيقة:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: لأنّ الخالق ﷻ كرَّم الإنسان: ﴿*وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: من الآية ٧٠]، كرَّمه من بين جميع المخلوقات بالعقل والاختيار، فإذا نظرنا في الكون واستقرأنا أجناس الوجود لوجدنا الإنسان سيّد هذا الكون كلّه، فالأجناس في الكون مرتّبة: الإنسان،

ودونه مرتبة الحيوان، ثمّ النّبات، ثمّ الجماد، والإنسان سيّد الكون بالعقل الّذي كرّمه الله ﷻ به، ولا يكلّفه الله ﷻ إلّا بعد أنْ ينضج عقله ويبلغ، وبشرط أن يسلم من العطب في عقله، كالجنون مثلاً، وأن يكون مختاراً، فالمكره لا تكليفَ عليه؛ لأنّه غير مختار، فكرّمنا ربّنا، وأهنّا أنفسنا، ورضينا لها بالدّونيّة، جعلنا الله ﷻ سادة للكون، لكنّا أبينا ذلك، فقوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾؛ أي: لا ينبغي لله ﷻ أنْ يظلم أحداً، فساعةَ تسمع ما كان لك أنْ تفعل كذا، فالمعنى أنّك تقدر على هذا، لكن لا يصحّ منك، فالحقّ ﷻ ينفي الظّلم عن نفسه، لا لأنّه لا يقدر عليه؛ إنّما لأنّه لا ينبغي له أنْ يظلم؛ لأنّ الظّلم يعني أن تأخذ حقَّ غيرك، والله ﷻ مالك كلّ شيء، فلماذا يظلم؟ ويؤكّد هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصّلت: من الآية ٤٦]، بصيغة المبالغة، والله ﷻ يبغض الظّلم.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾: وظلمهم لأنفسهم بأنّهم قدّموا لها متعة زائلة وحرموها من نعيم مُقيم، وبعد أن حدّثتنا الآيات عن الكافرين الّذين اتّخذوا الشّركاء مع الله ﷻ، وعن المكذّبين للرّسل، وما كان من عقابهم، تعطينا مثلاً يُقرّب لنا هذه الحقائق، فيقول ﷻ:

(الآية ٤١) - ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾: كلمة: ﴿مَثَلُ﴾ وردت بمشتقّاتها في القرآن الكريم مرّات عدّة، ومادّة الميم والثّاء واللّام جاءت لتعبّر

عن معنى يجب أنْ نعرفه، فإذا قيل: مِثْل، بسكون الثّاء، فمعناها التّشبيه، لكن تشبيه مفرد بمفرد، كما في قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، وقوله ﷻ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشّورى: من الآية ٤٠]، أمّا: (مَثَل) بالفتح، فتعني تشبيه قصّة أو متعدّد بمتعدّد، كما في قوله ﷻ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الكهف: من الآية ٤٥]، فالحقّ ﷻ لا يُشبّه شيئاً بشيء، إنّما يُشبّه صورة متكاملة بصورة أخرى: فالحياة الدّنيا في وجودها وزهرتها وزخرفها وخضرتها ومتاعها، ثمّ انتهائها بعد ذلك إلى زوال، مثل الماء حين ينزل من السّماء فيختلط بتربة الأرض، فينبت النّبات المزهر الجميل، والّذي سرعان ما يتحوّل إلى حطام، والحقّ ﷻ حين يضرب لنا الأمثال يريد بذلك أنْ يُبيّن لنا الشّيء الغامض بشيء واضح، والمبهم بشيء بيّن، والمجمل بشيء مُفصَّل، وقد جرى القرآن الكريم في ذلك على عادة العرب، حيث استخدموا الأمثال في البيان والتّوضيح، ويُحكَى أنّ أحدهم، وكان صاحب سمعة طيّبة وسيرة حسنة بين النّاس، فحسده آخر، وأراد أنْ يلصق به تهمة تُشوّه صورته، وتذهب بمكانته بين النّاس، فاتّهمه بالتّردّد على أرملة حسناء، وقد رآه النّاس فعلاً يذهب إلى بيتها، فتخرج له امرأة فيعطيها شيئاً معه، ولمّا تحقّق النّاس من المسألة وجدوها عجوزاً لها أولاد صغار وهم فقراء، وهذا الرّجل يعطف عليهم ويفيض عليهم ممّا رزقه الله ﷻ، فلمّا عرفوا ذلك عن الرّجل عظَّموه، ورفعوا من شأنه، وزاد في نظرهم مجداً وفضلاً، وقد أخذ الشّاعر هذا المعنى وعبَّر عنه قائلاً مستخدماً المثل:

وإذَا أَرادَ اللّهُ نَشْر فَضِيلةٍ طُويَتْ أَتـاحَ لَهـا لِسَـانَ حَسُـود
لَوْلا اشْتِعالُ النَّارِ فيما جاورَتْ مَا كان يعرف طِيب عَرْفِ العُودِ

ومن مشتقّات المثل أيضاً: (مَثُلَة)، كما في قوله ﷻ: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ [الرّعد: من الآية ٦]، وهي العقوبات الّتي حاقتْ بالأمم المكذِّبة، حتّى جعلتها عبرةً لغيرها، فإذا اشتهر المثَل انتشر على الألسنة، وضربه النّاس مثلاً، وهنا يقول الله ﷻ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾، فهذا مثل في قمّة العقيدة، ضربه الله ﷻ لنا للتّوضيح والبيان، ولتقريب المسائل إلى عقولنا، وإيّاك أن تقول للمثل الّذي ضربه الله ﷻ لك: ماذا أراد الله بهذا؟ لأنّ الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٦]، فبعض النّاس يرى أنّ البعوضة شيء تافه، فكيف يجعله الله ﷻ مثلاً؟ والتّحقيق أنّ البعوضة خَلْق من خَلْق الله ﷻ، فيها من العجائب والأسرار ما يدعونا للتّأمّل والنّظر، وليست شيئاً تافهاً كما يظنّ بعضهم، بل يكفينا فَخْراً أنْ نصل إلى سِرِّ العظمة فيها، ففي هذا المخلوق الضّئيل كلّ مُقوِّمات الحياة والإدراك، فهل نعرف فيها موضع العقل وموضع جهازها الدّمويّ.. إلخ؟ فضلاً عن الذّباب والنّاموس وصغار المخلوقات، ألا ترى الميكروبات الّتي لا تراها بعينك المجرّدة ومع ذلك يصيبك منها أذى، وتُنغّص عليك؟! فلا تقُلْ: لماذا يضرب الله ﷻ الأمثال بهذه الأشياء؛ لأنّ الله ﷻ يعلم ونحن لا نعلم، وعندما يقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٦]، ما فوقها؛

أي: في الصِّغَر والاستدلال؛ أي: ما دونها صِغَراً؛ لأنّ عظمة الخلق كما تكون بالشّيء الأكثر ضخامة تكون كذلك بالشّيء الأقلّ حجماً والأكثر دِقَّة، نعود إلى المثَل الّذي ضربه الله ﷻ لنا: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: شركاء وشفعاء.

﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾: هذا المخلوق الضّعيف الّذي ينسج خيوطه بهذه الدّقّة الّتي نراها، والّذي نسج خيوطه على الغار في هجرة رسول الله ﷺ، واشترك مع الحمامة في التّعمية على الكفّار.

﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾: أي: من هذه الخيوط الواهية.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾: فخطأ العنكبوت ليس في اتّخاذ البيت، إنّما في اتّخاذ هذه الخيوط الواهية بيتاً له، وهبّة ريح كافية للإطاحة بها، ويشترط في البيت أن يكون حصيناً يحمي صاحبه، وكذلك الكفّار اتّخذوا من الأصنام آلهة، ولو اتّخذوها دلالة على قدرة الحقّ في الخَلْق لكان أنسب وأَجدْى، وكما أنّ بيت العنكبوت تهدمه هَبَّة ريح، وتُقطّعه وأنت مثلاً تنظّف بيتك، فكذلك طبْق الأصل يفعل الله ﷻ بأعمال الكافرين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان].

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾: أي: حقيقة الأشياء، فشبكة العنكبوت لا تصلح بيتاً، ولكن تصلح مصيدةً للحشرات، وكذلك الأصنام والأحجار لا تنفع أنْ تكون آلهة تُعبد، إنّما لتكون دلالة على قدرة الخالق ﷻ، فلو فكّروا فيها وفي أسرار خَلْقها لاهتدوا من خلالها للإيمان.

(الآية ٤٢) - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤٢﴾:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾: لأنّهم حين ضُيِّق عليهم الخناق، قالوا: نحن لا نعبد الأصنام، إنّما نعبد الكواكب الّتي تُسيِّر هذه الأصنام أو الملائكة، فردَّ الله ﷻ عليهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾، وقوله هنا: ﴿مِن شَيۡءٖۚ﴾ للتّقليل، كأنَّ ما يدعونه من دونه لا يُعَدّ شيئاً، أو هو أتفه من أن يكون شيئاً، أو يعلم ﷻ ما يدعون من دونه من أيّ شيء.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: العزيز الّذي يَغْلب، ولا يُغلب، وهو الحكيم في كُلِّ ما قضى وأمر.

(الآية ٤٣) - ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾:

فمَنْ يسمع المثل من الله ﷻ ثمّ لا يعقله فليس بعالم، لذلك ليسوا علماء الّذين اعترضوا على قوله ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦]، حيث استقلُّوا البعوضة، ورأوها لا تستحقّ أنْ تُضرب مثلاً، ففي هذه المخلوقات الحقيرة والصّغيرة في نظرنا عِبَر وآيات، لكن لا يعقلها إلّا العالمون، ومعظم هذه الآيات والأسرار اكتشفها أناس غير مؤمنين بالله ﷻ، فكان منهم مَنْ عقلها فآمن، ومَنْ لم يعقلها ظلَّ على كفره على أنّه أَوْلَى النّاس بالإيمان بالله ﷻ؛ لأنّ لديه من العلم ما يكتشف

به أسرار الخالق في الخَلْق، لذلك جاء في الأثر: "العالم الحقّ هو الّذي يعلم مَنْ خلقه، ولِمَ خلقه".

(الآية ٤٤) - ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

أراد الله ﷻ أن يبرهن لنا على طلاقة قدرته ﷻ، فقال:

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾: والخَلْق: إيجاد المعدوم، لكن لغرض مخصوص، ولمهمّة يؤدّيها، فإنْ خلقت شيئاً هكذا دون هدف منه فلا يُعَدّ خلقاً، ومسألة الخَلْق هذه هي الوحيدة الّتي أقرَّ الكفّار بها لله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: من الآية ٢٥]، فالخالق الأعظم ﷻ الّذي خلق السّموات والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما، أليس من حقّه أن يعلن عن نفسه؟ أليس من حقّه على عباده أن يعترفوا له بالخَلْق؟ خاصّة وأنّ خَلْق السّموات والأرض لم يدَّعه أحد لنفسه، ولم ينازع الله ﷻ فيه منازع، ثمّ جاءنا رسولٌ من عند الله ﷻ يخبرنا بهذه الحقيقة، فلم يوجد معارض لها، والقضيّة تثبُت لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض، ولنا أنْ نسأل: ما دام الحقّ ﷻ سألهم: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [لقمان: من الآية ٢٥]، فقالوا: (ٱللَّهُ)، فلماذا يذكر الله ﷻ هذه القضيّة؟ قال العلماء: الحقّ ﷻ لا يريد بهذه الآية أن يخبرنا أنّه خالق السّموات والأرض، إنّما يريد أن يُخبرنا أنّ خَلْق السّموات والأرض بالحقّ، والحقّ: الشّيء الثّابت الّذي لا يتغيّر مع الحكمة المترتّبة على كلّ شيء في الوجود، فإذا نظرنا إلى خَلْق السّموات والأرض

لوجدناه ثابتاً لم يتغيّر شيء فيه، لذلك يقول ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: من الآية ٥٧]، فالسّموات والأرض خَلْق هائل عظيم، بحيث لو قارنّاه بخَلْق الإنسان لكان خَلْق الإنسان أهون بكثير، ولننظر مثلاً في عمر السّموات والأرض وفي عمر الإنسان، أطول أعمار البشر الّتي نعلمها حتّى الآن عمر نوح عليه السلام، وبعد هذا العمر الّذي نراه طويلاً انتهى إلى الموت، فعمر الإنسان محدود، ولا بُدَّ أن يموت، أمّا السّموات والأرض وما فيها من مخلوقات إنّما خُلقت لخدمة الإنسان هذا، ومن معنى خَلْق السّموات والأرض بالحقّ؛ أي: بنظام ثابت دقيق منضبط لا يتغيّر ولا يتخلّف في مظاهره كُلِّها، فالإنسان يمكن أنْ يتغيّر؛ لأنّ الله جلّ جلاله جعل له اختياراً، فيستطيع أن يطيع أو أن يعصي، يؤمن أو يكفر، لكنّ خَلْق السّموات والأرض جاء على هيئة القهر والتّسخير، وإن كانت مختارة بالقانون العامّ والاختيار الأوّل، حيث قال ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]، فخُيِّرتْ فاختارتْ ألَّا تختار، وخرجت عن مرادها لمراد ربّها ﷻ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: لماذا قال: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، مع أنّها آية للنّاس جميعاً؟ وسبق أنْ خاطب الله ﷻ الكافرين: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [لقمان: من الآية ٢٥]، فقالوا: (ٱللَّهُ)، فلماذا خصَّ هنا المؤمنين دون الكافرين؟ قالوا: هناك فَرْق بين خَلْق السّموات والأرض، وبين كَوْنها مخلوقة بالحقّ، فالجميع يؤمن بأنّها مخلوقة، لكنّ المؤمنين فقط هم الّذين يعرفون أنّها مخلوقة بالحقّ.

(الآية ٤٥) - ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

بعد أن ذكر الله ﷻ بعض مواكب الرّسل في إبراهيم وموسى ونوح وصالح وهود ولوط وشعيب -عليهم السّلام-، ثمّ تكلَّم ﷻ عن إهلاك الّذين كذّبوا هؤلاء الرّسل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾، أراد ﷻ أن يُسلِّي قلب رسوله ﷺ بأن لا يرهقه، أو يتعب نفسه لموقف الكافرين منه، الّذين يصدّون عن سبيل الله ﷻ، ويقفون من الدّعوة موقف العداء، فقال له مُسلِّياً، ولكلّ أمّته من خلال النّبيّ الكريم ﷺ:

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾: يعني: لِمَ تحزن يا محمّد ومعك الأُنْس كلّه، الأُنْس الّذي لا ينقضي، وهو كتاب الله ﷻ ومعجزته الّتي أنزلها إليك، فاشتغل به، فمع كلّ تلاوة له ستجد سكناً إلى ربّك وحلاوة، وإذا كان هؤلاء الّذين عاصروك لم يؤمنوا به، ولم يلتفتوا إلى مواطن الإعجاز فيه، فداوم أنت على تلاوته عَلَّ الله ﷻ يأتي من هؤلاء بذرّيّة تصفو قلوبهم لاستقبال إرسال السّماء، فيؤمنون بما جحد به آباؤهم وأجدادهم، والأمر بالتّلاوة لبقاء المعجزة.

﴿اتْلُ﴾: اقرأ ولا تعجز ولا تيأس، فالقرآن الكريم سلوة لنفسك؛ لأنّ الّذي يُرسل رسولاً من البشر بشيء أو في أمر من الأمور، ثمّ يُكَذَّب يرجع إلى مَنْ أرسله، فما دام قومك قد كذَّبوك، فارجع إليَّ بأن تستمع إلى كتابي

الّذي أنزلتُه معجزة لك تؤيّدك، وانتظر قوماً يأتون يسمعون منك كلام الله ﷻ، فيصادف منهم قلوباً صافية، فيؤمنون به، وفَرْقٌ بين الفاعل والقابل، والقرآن الكريم يُوضِّح هذه المسألة، فمن النّاس مَنْ إذا سمعوا القرآن الكريم تخشع له قلوبهم، وتقشعرّ جلودهم، ومنهم مَنْ إذا سمعوه قالوا على سبيل الاستهزاء: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمّد: من الآية ١٦]، تهويناً من شأن القرآن الكريم، ومن شأن سيّدنا رسول الله ﷺ، ثمّ يقرّر القرآن الكريم هذه الحقيقة: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فُصّلت: من الآية ٤٤]، فالقرآن الكريم واحد، لكنّ المستقبل للقرآن الكريم مختلف، فالعبرة في صفاء الاستقبال؛ لأنّ الإرسال واحد، وهل نتّهم الإذاعة إنْ كان جهاز الرّاديو عندنا معطّلاً، لا يستقبل إرسالها؟ كذلك مَنْ أراد أن يستقبل إرسال السّماء فعليه أنْ يُعِدّ الأُذُن الواعية والقلب الصّافي غير المشوّش بما يخالف إرسال السّماء، فقوله ﷻ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، هذه هي ميْزة معجزتك يا محمّد أنّك تستطيع أنت وأمّتك أنْ تكرّرها في كلّ وقت، وأن تتلوها كما تشاء، وأن يتلوها بعدك مَنْ سمعها، وستظلّ تتردّد إلى يوم القيامة، وسيبقى القرآن الكريم معجزاً إلى يوم الدّين، أمّا معجزات الرّسل السّابقين فكانت خاصّة بمَنْ شاهد المعجزة، فإذا مات مَنْ شهدها فلا يعرفها أحد بعدهم حتّى لو كان معاصراً لها ولم يَرَهَا، فالّذين عاصروا مثلاً انقلاب عصا موسى حيّة ولم يشاهدوا هذا الموقف، ماذا عندهم من هذه المعجزة؟ لا شيء إلّا أنّنا نُصدِّقها ونؤمن بها؛ لأنّ القرآن الكريم أخبرنا بها، لذلك ننصح أنفسنا وننصح النّاس جميعاً أن يتلوا كلّ صباح ولو صفحة واحدة أو ما يتيسّر لهم،

أن يبقوا على اتّصال مع ربّهم، أن يسمعوا من ربّهم، أن يتحدّثوا إلى ربّهم، أن يجلوا من قلوبهم الدّرن، أن يأخذوا العطاء والرّحمة والشّفاء من خلال: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، يقول ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»(١)، فبمجرّد قراءتنا للقرآن الكريم هناك أبواب تتّصل بالسّماء قد فُتِحَت، فعلينا ألّا نجعل القرآن الكريم مهجوراً بالنّسبة إلينا؛ لأنّ العتاب الّذي ورد فيه على لسان النّبيّ ﷺ الّذي يجب أن نسمعه الآن قبل أن نسمعه في الآخرة: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان]، فالعتاب الأعظم من سيّدنا رسول الله ﷺ لنا وبهجراننا لقرآننا الكريم، فعلينا أن نتمسّك بتلاوة القرآن الكريم، فلا أصدّق أنّ بين يدي الإنسان وفي قلبه وفي بيته وفي مكتبه وفي سيّارته وفي عمله مصاحف لا يفتحها إلّا في رمضان، فأهمّ نقطة ألّا تخرج من بيتك عندما تقوم بعد صلاة الفجر إلّا وقد قرأت من القرآن الكريم ولو صفحة واحدة، وقارِن حالك قبل القراءة وبعد القراءة، فعندما يهمّ الإنسان أمر فليلجأ إلى القرآن الكريم وإلى الصّلاة، وهنا يقول بعد الأمر بتلاوة القرآن الكريم:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾: ومعلوم أنّ ﴿ٱتۡلُ﴾: التّلاوة قَوْل من فعل اللّسان، ﴿وَأَقِمِ﴾: من فعل الجوارح، والإنسان له جوارح متعدّدة اشتهر منها خمس

(١) سنن التّرمذيّ: أبوابُ فضائلِ القرآنِ، بابُ ما جاءَ فيمَنْ قرأ حرفاً من القرآنِ مَالَهُ من الأجرِ، الحديث رقم (٢٩١٠).

هي: العين للإبصار، والأُذُن للسّمع، والأنف للشّمّ، واللّسان للتّذوّق، والأنامل للّمس، لكن، لماذا اختار الله ﷻ الصّلاة من بين أعمال الجوارح؟ قال العلماء: لأنّها قمّة العمل كما جاء في الأثر: "الصّلاة عماد الدّين"، وبها نُفرّق بين المؤمن وغير المؤمن، والمحافظة على الخشوع فيها، قال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون]، رَأَى سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ رَجُلاً وَهُوَ يَعْبَثُ بِلِحْيَتِهِ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا، لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»[1]، ويبقى السّؤال: لماذا أخذتْ الصّلاة هذه المكانة من بين أركان الإسلام؟ ذكرنا سابقاً ونكرّر القول بأنّ الإسلام شيء، وأركانه شيءٌ آخر، قال ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»[2]، هذه أركان الإسلام، والّذين يحبّون أن يعزلوا الإسلام عن حركة الحياة، يقولون: هذا هو الإسلام، فقط صلاة وصوم وحجّ وزكاة، أمّا الإسلام حقيقةً فيشمل كلّ شيء في حياتنا، بداية من قمّة العقيدة في قولنا: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، إلى إماطة الأذى عن الطّريق؛ لأنّ الإسلام دين يستوعب أقضية الحياة كلّها، كيف لا وهو يُعلّمنا أبسط الأشياء في حياتنا، نعود إلى مكانة الصّلاة بين العبادات، ولماذا كانت هي عماد الدّين،

---

(١) مصنّف ابن أبي شيبة: كتابُ صلاةِ التَّطوُّعِ والإمَامَةِ وأبوابٌ متفرّقةٌ، في مَسِّ اللِّحْيَةِ في الصَّلاةِ، الحديث رقم (٦٧٨٧).

(٢) صحيح البخاريّ: كتابُ الإيمانِ، بابُ قَوْلِ النّبيّ ﷺ: «**بُنِيَ الإسلَامُ على خمسٍ**»، الحديث رقم (٨).

ومعنى: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»[1]، أنّ هذه هي أُسُسه وقواعده، وحين نتتبّع هذه القواعد نجد أنّ الرّكن الأوّل، وهو أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، يمكن أن أقوله ولو مرّة واحدة، أمّا الزكاة فلا تجب مثلاً على الفقير، وكذلك المريض لا يصوم، والمسافر والحائض.. إلخ، وكذلك الحجّ غير واجب إلّا على المستطيع، فما هو الرّكن الثّابت الّذي يلازم كلّ مسلم، ولا يسقط عنه بحال؟ إنّها الصّلاة، لذلك أخذتْ مساحة كبيرة من الوقت على مدى اليوم واللّيلة، وبها يكون إعلان استدامة الولاء لله ﷻ، فقد نرى شخصاً مثلاً لا يصوم أو لا يزكّي أو لا يحجّ، فنقول: ربّما يكون من أصحاب الأعذار، ومن غير القادرين، لكن حين نرى شخصاً لا يُصلّي، وقد تكرَّر منه ذلك فإنّنا لا بُدَّ أن نقف هنا، لذلك استحقّت الصّلاة هذه المكانة بين سائر العبادات منذ بدايات التّشريع، ألا ترى أنّ فرائض الدّين كلّها شُرعت بالوحي عن طريق جبريل عليه السلام إلّا الصّلاة، فقد شُرعت بالخطاب المباشر من الله ﷻ لنبيّه محمّد ﷺ في رحلة المعراج.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: إقامة الشّيء: أداؤه على الوجه الأكمل الّذي يؤدّي غايته، فالصّلاة المطلوبة هي الصّلاة المستوفاة الشّروط، والّتي تُقيمها كما يريدها مُشرّعها ﷻ.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾: والصّلاة إذا استوفتْ

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الإيمانِ، بابُ قَوْلِ النّبيّ ﷺ: «بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ»، الحديث رقم (٨).

شروطها نهتْ صاحبها عن الفحشاء والمنكر، قال ﷺ: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْداً»[1]، فإذا رأيتَ صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، فاعلم أنّها ناقصة عمّا أراده الله ﷻ لإقامتها، وعلى قَدْر النّقص تكون ثمرة الصّلاة في سلوك صاحبها، وكأنّ وقوع الإنسان في بعض الفحشاء والمنكر يُعَدُّ مؤشّراً دقيقاً لمدى إتقانه لصلاته وحرصه على تمامها وإقامتها، ومعنى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ أنّ الأمر ليس أمراً كونيّاً ثابتاً لا يتخلّف، بل هو أمر تشريعيّ، وقد فرّقنا بينهما سابقاً، والأمر التّشريعيّ عُرْضة أنْ يُطاع، وعُرْضة أنْ يُعصى، فلو كان الأمر كونيّاً ما جرؤ صاحب صلاة على الفحشاء والمنكر، وكذلك الأمر في: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، فالصّلاة تشريع من الله ﷻ، فإذا كان الله ﷻ هو المشرّع، وقال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النّحل: من الآية ٩٠]، يعني: لا يوجد معها فحشاء ولا منكر، وهذا أيضاً صحيح؛ لأنّني حين أدخل في الصّلاة بتكبيرة الإحرام فإنّ هذه التّكبيرة تحرّم عليَّ كلّ ما كان حلالاً لي قبل الصّلاة، ففي الصّلاة مثلاً لا آكل ولا أشرب ولا أتحرّك، مع أنّ هذه المسائل كانت حلالاً قبل الصّلاة، فيجب أن يكون استطراق هذا الأمر خارج الصّلاة، وهو ترك المحرّمات، فالصّلاة بهذا المعنى تمنعنا من الفحشاء والمنكر في وقتها؛ لأنّ تكبيرة الإحرام (الله أكبر) تعني أنّ الله أكبر

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب العين، طَاوُسٌ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، الحديث رقم (١١٠٢٥).

من كلّ شيء في الوجود، حتّى من شهوات النّفس ونزواتها، وإلّا فكيف نقيم أنفسنا بين يدي ربّنا ﷻ، ثمّ نخالف منهجه؟ فالصّلاة بهذا المعنى تنهى على حقيقتها عن الفحشاء والمنكر، ومعنى: ﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾: كلّ ما يُسْتفحش من الأقوال والأفعال، ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: كلّ شيء يُنكره الطّبع السّليم.

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾: ذكر: مصدر، والمصدر يُضاف إلى الفاعل، مثل: أعجبني ضَرْب الأمير لزيد، ويُضاف للمفعول، مثل: أعجبني ضَرْب زيد من الأمير، فحين تقول: ذكر الله، يصحّ أن يكون المعنى: ذِكْر صادرٌ من الله ﷻ، أو ذِكْر صادر من العبد لله ﷻ.

فإنْ قلتَ: ذِكْر صادر من الله ﷻ؛ أي: للمصلّي، فحين يصلّي الإنسان، ويذكر الله ﷻ بالكبرياء في قوله: (الله أكبر)، ويُنزّهه بقول: سبحان الله، ويسجد له سبحانه ويخضع، فقد فعلتَ فِعْلاً ذكرتَ الله ﷻ فيه ذِكْراً بالقول والفعل، والله ﷻ يجازيك بذكرك له بأن يذكرك، فالذّكر ذكر من الله ﷻ لمن ذكره في صلاته، ولا شكَّ أنّ ذكر الله ﷻ لنا أكبر، وأعظم من ذِكْرنا له ﷻ؛ لأنّه في ذكره لنا عطاء لنا، والذّكر أن يكون الله ﷻ في البال وليس في دائرة النّسيان، فعندما تقرأ القرآن الكريم تكون ذاكراً.

المعنى الآخر: أن يكون الذّكْر صادراً من العبد لله ﷻ، يعني: ولذكْر الله ﷻ خارج الصّلاة أكبر من ذِكْر الله ﷻ في الصّلاة، كيف؟ قالوا: لأنّك في الصّلاة تُعِدّ نفسك لها بالوضوء، وتتهيّأ لها لتكون في حضرة ربّك بعد تكبيرة الإحرام، فإذا ما انتهتْ الصّلاة وخرجتَ منها إلى حركة الحياة فذِكْرك لله ﷻ وأنت بعيد عن حضرته ومشغول بحركة حياتك أعظم وأكبر من

ذِكْرك في الحضرة، ومثال ذلك -ولله ﷻ المثل الأعلى- مَنْ يمدح إنساناً ويُثني عليه في حضرته، ومَنْ يمدحه في غيبته، فأيُّهما أحلى، وأيُّهما أبلغ وأصدق في الذّكْر؟ ورُوِي عن عطاء بن السّائب أنّ ابن عبّاس سأل عبد الله ابن ربيعة: ما تقول في قوله ﷻ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟ فقال: قراءة القرآن حَسَن، والصّلاة حسن، وتسبيح الله حسن، وتحميده حسن، وتكبيره حسن، والتّهليل له حسن، لكن أحسن من ذلك أن يكون ذِكْر الله عند طروق المعصية على الإنسان، فيذكر ربّه، فيمتنع عن معصيته، فماذا قال ابن عبّاس رضي الله عنهما -مع أنّ هذا القول مخالف لقوله في الآية-؟ قال: عجيب والله، فأعجب بقول ابن ربيعة، وبارك فهمه للآية، ولم ينكر عليه اجتهاده؛ لأنّ الإنسانَ طبيعيّ أن يذكر الله ﷻ في حال الطّاعة، فهو متهيّئ للذّكْر، أمّا أنْ يذكره حال المعصية فيرتدع عنها، فهذا أقْوى وأبلغ، وهذا أكبر كما قال ﷻ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، لذلك جاء في الحديث الشّريف: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**»، ومنهم: «**وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ**»[1]، هذا هو ذِكْر الله ﷻ الأكبر؛ لأنّ الدّواعي دواعي معصية، فيحتاج الأمر إلى مجاهدة تُحوِّل المعصية إلى طاعة.

أمّا قول ابن عبّاس رضي الله عنهما في: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أنّ ذِكْر ربّكم لكم بالثّواب والرّحمة أكبر من ذِكْركم له بالطّاعة، وحيثيّات هذا القول: أنّ ربّك ﷻ

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الزَّكاةِ، بابُ الصَّدقةِ باليمينِ، الحديث رقم (١٤٢٣).

لم يُكلِّفك إلّا بعد سِنِّ البلوغ، وتركك تربَع في نعمه خمسة عشر عاماً دون أنْ يُكلّفك، ثمّ يُوالي عليك نِعَمه، ولا يقطع عنك مدده حتّى لو انصرفتَ عن منهجه، بل حتّى لو كفرتَ به لا يقبض عنك يد عطائه ونعمه، فذِكْر الله ﷻ لنا بالخَلْق من عدم، والإمداد من عُدم، وموالاة نِعَمه علينا أكبر من ذِكْرنا له بالطّاعة.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾: هذه الكلمة نأخذها على أنّها بشارة للمؤمن، ونذارة للكافر، كما نقول للتّلاميذ يوم الامتحان: سينجح المجتهد منكم، فهي بشارة للمجتهد، وإنذار للمهمِل، فالجملة واحدة، والإنسان هو الّذي يضع نفسه في أيّهما يشاء.

تَمَّ بِفَضْلِ اللهِ تعالى تَفْسِيرُ الجزْءِ العشرون

الحمدُ لله الّذي جعلَ القُرآنَ الكريم نُوراً لا يُطْفَأُ مِصْبَاحُهُ، وسِرَاجاً لا يَخْبُو تَوَقُّدُه، ومَنهَجاً لا يَضِلُّ سَالِكُهُ، وفُرقَاناً لا يَخمَدُ بُرهانُهُ، وبُنياناً لا تُهْدَمُ أحكامُهُ، وحَقّاً لا يُخْذَلُ أعوانُهُ.

اللّهمَّ اجْعَلْنَا ممَّن تَأَدَّبَ بآدابِ القُرآنِ الكريمِ، وائْتَمرَ بأوامرِه، وانتهى بنواهيه، والتمسَ غرائبَ علومِه، وخشَعَ لسماعِه، وخضعَ لكلامِه، وآمنَ بمتشابِهه، وعَمِلَ بمُحكَمِه، واستنَّ بسُنَّتِه، وحافظَ على واجباتِه، وعَمَّرَ بتلاوتِه جميعَ أوقاتِه، ولم يغفَلْ عن تلاوتِه في حالةٍ من حالاتِه.

سبحانَ ربِّك ربِّ العِزَّةِ عمَّا يَصِفُونَ، وسلامٌ على المرسلينَ، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

فهرس

رقم الآية – نصّ الآية رقم الصّفحة

تفسير سورة (النّمل) من الآية: (٥٦–٩٣):

٥٦- ﴿* فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ١١

٥٧- ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ ١١

٥٨- ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ١١

٥٩- ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ١٢

٦٠- ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ١٣

٦١- ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ ١٦

٦٢- ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ١٩

٦٣- ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣﴾ ٢٢
٦٤- ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾ ٢٢
٦٥- ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾ ٢٦
٦٦- ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ بَلۡ هُمۡ فِي شَكٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾ ٢٨
٦٧- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧﴾ ٢٩
٦٨- ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾ ... ٢٩
٦٩- ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩﴾ ٣٠
٧٠- ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ٧٠﴾ ٣٠
٧١- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٧١﴾ ٣١
٧٢- ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ٧٢﴾ ٣١
٧٣- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ ٣٢
٧٤- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤﴾ ٣٣
٧٥- ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٧٥﴾ ٣٣
٧٦- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦﴾ .. ٣٤
٧٧- ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾ ٣٥

٧٨- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ ٣٥
٧٩- ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ ٣٦
٨٠- ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ٣٦
٨١- ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ ٣٧
٨٢- ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ٣٨
٨٣- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ ٤١
٨٤- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ ٤١
٨٥- ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ٤٢
٨٦- ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ ٤٢
٨٧- ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ٤٤
٨٨- ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ٤٦
٨٩- ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ ٤٧
٩٠- ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ .. ٤٨

٩١- ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ ٤٩
٩٢- ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ ٥٠
٩٣- ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ .. ٥٢

تفسير سورة (القصص) من الآية: (١-٨٨):

١- ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ ٥٥
٢- ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ ٥٦
٣- ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ ٥٦
٤- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ ٥٧
٥- ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ ٦٠
٦- ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ ٦١
٧- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ ٦٢
٨- ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ ٦٧

٩- ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ ٦٨

١٠- ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ ٦٩

١١- ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١﴾ ٧٠

١٢- ﴿*وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ ٧١

١٣- ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ ٧٢

١٤- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤﴾ .. ٧٢

١٥- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ ٧٣

١٦- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ ٧٤

١٧- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾ ٧٥

١٨- ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨﴾ ٧٦

١٩- ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾ ٧٦

٢٠- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ ٧٧
٢١- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ ٧٧
٢٢- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ ٧٨
٢٣- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ ٧٨
٢٤- ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ ٨٠
٢٥- ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ٨١
٢٦- ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ ٨٢
٢٧- ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ٨٣
٢٨- ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ ٨٤

٢٩- ﴿* فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ٨٥

٣٠- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ ٨٦

٣١- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ ٨٧

٣٢- ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ٨٩

٣٣- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ ٩٠

٣٤- ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ ٩١

٣٥- ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ٩٢

٣٦- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ ٩٣

٣٧- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ٩٤

٣٨- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ ٩٥

٣٩- ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ٩٦

٤٠- ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ٩٧

٤١- ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ ٩٨

٤٢- ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ٩٩

٤٣- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ١٠٠

٤٤- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ١٠٢

٤٥- ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ١٠٣

٤٦- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ١٠٤

٤٧- ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ١٠٥
٤٨- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ١٠٦
٤٩- ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ١٠٨
٥٠- ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ ١١٠
٥١- ﴿* وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ ١١١
٥٢- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ١١١
٥٣- ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ ١١٢
٥٤- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ١١٢
٥٥- ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ ١١٥
٥٦- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ١١٦

٥٧- ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ .. ١١٧
٥٨- ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾ ١٢١
٥٩- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ ١٢٢
٦٠- ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾ ١٢٣
٦١- ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١﴾ ١٢٥
٦٢- ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢﴾ ١٢٥
٦٣- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣﴾ ١٢٧
٦٤- ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤﴾ ١٣١
٦٥- ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ ١٣٢
٦٦- ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦﴾ ١٣٢
٦٧- ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧﴾ .. ١٣٤
٦٨- ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨﴾ ١٣٤

٦٩- ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ١٣٦
٧٠- ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ١٣٨
٧١- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۚ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ ١٤٠
٧٢- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ١٤٢
٧٣- ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ١٤٢
٧٤- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ١٤٣
٧٥- ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ١٤٤
٧٦- ﴿*إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ ١٤٦
٧٧- ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ ١٤٩
٧٨- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ ١٥٤

٧٩- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ ١٥٥
٨٠- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ١٥٦
٨١- ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ ١٥٩
٨٢- ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ١٥٩
٨٣- ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ ١٦١
٨٤- ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ ١٦٢
٨٥- ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ ١٦٤
٨٦- ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ ١٦٧
٨٧- ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ١٦٨

٨٨- ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ١٦٩

تفسير سورة (العنكبوت) من الآية: (١-٤٥):

١- ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ ١٧٥

٢- ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ ١٧٦

٣- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ ١٧٨

٤- ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ ١٧٩

٥- ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾ ١٨٠

٦- ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ ١٨٤

٧- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ ١٨٨

٨- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ ١٩٠

٩- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ ١٩٢

١٠- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ ١٩٣

١١- ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ ١٩٥

١٢- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ ١٩٥
١٣- ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ ١٩٦
١٤- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ ١٩٧
١٥- ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ ٢٠٠
١٦- ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ ٢٠١
١٧- ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ ٢٠٤
١٨- ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ ٢٠٦
١٩- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ ٢٠٨
٢٠- ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ ٢١٠
٢١- ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ ٢١٠

٢٢- ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢﴾ ٢١١
٢٣- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣﴾ ٢١٣
٢٤- ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤﴾ ٢١٤
٢٥- ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾ ٢١٧
٢٦- ﴿* فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ ٢١٨
٢٧- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ ٢٢٠
٢٨- ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ ٢٢٢
٢٩- ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ ٢٢٣
٣٠- ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾ ٢٢٦

٣١- ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾ ٢٢٧
٣٢- ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾ ٢٢٧
٣٣- ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾ ٢٢٨
٣٤- ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤﴾ ٢٢٩
٣٥- ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ ٢٣٠
٣٦- ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦﴾ ٢٣٠
٣٧- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧﴾ ... ٢٣٤
٣٨- ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨﴾ ٢٣٧
٣٩- ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾ ٢٣٩
٤٠- ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ ٢٤٠

٤١- ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ ٢٤٣

٤٢- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ ٢٤٧

٤٣- ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ٢٤٧

٤٤- ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ٢٤٨

٤٥- ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ٢٥٠

تضرّعٌ ودعاء ٢٥٩

فهرس: ٢٦١